البوصيري

رباعية بحري ٣

محمد جبريل

البوصيري

رباعية بحري ٣

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

البوصيري

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٣ ٣٤٩٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

إيقاع فعل الموت	٩
رحلة الاتجاه الواحد	١٥
أصوات الأحلام القديمة	٢٥
المسافر بلا زاد	٣١
أنس المحبة	٣٩
طيور الخريف	٤٧
ارتعاشة الحلم المنطفئ	٥٧
تصاريف التدابير	٦٣
آفاق قريبة	٦٩
قوت القلوب	٧٥
الصورة خارج الإطار	٨١
صداقة	٨٥
وقت للأمل	٩١
الانتظار	٩٥
مشارق الفتح	١٠١
حافة الظل	١٠٧
ما تبقى من حياة	١١٣
ارتحال إلى الأسمى	١١٧
طرقات على الباب المغلق	١٢٣
أين أنت؟	١٢٧

بعيدًا عن منطقة الأعراف ١٣١
أنسام منعشة ١٣٥
انحناءة ١٣٩
تلاشي الأصداء البعيدة ١٤٥
حياة جديدة ١٤٩
رقصة لعرائس البحر ١٥٥
اتساع الدائرة ١٥٩
ونفس وما سواها ١٦٣
حجاب الأنوار ١٧١
الأعماق ١٧٥
أزمة! ١٨١
نفحات الوصال ١٨٥
تقديم المجاهدة ١٨٩
التقلب في المعارف ١٩٣
ظلال حزينة ١٩٧
الأنس والوحشة ٢٠١
مواصلة المدد ٢٠٥
أسفار الصبح ٢٠٩

إسكندرية بلاط حمام ع المالح
هي الحليوة وفيها الحلو والمالح.

من مواويل الصيادين

إيقاع فعل الموت

اختار كرسيًّا في زاوية الرصيف، وجلس.

كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يجلس فيها على قهوة. انتظر في قهاوي من قبل، وجالَسَ أناسًا، وأنهى أعمالًا تتصل بالعمل، أو بالبيت، لكنه لم يجلس إلى أصدقاء، ولا لإزجاء الوقت.

أغلق كتابًا في الصوفية قبل أن يُتم قراءته، وأطلَّ من النافذة المُطِلَّة على سيدي البوصيري. لاحظ كُشكًا جديدًا للسجائر على ناصية الطريق المُفضي إلى الميدان.

تسلَّقَت شمس العصر الساخنة جدران الشرفة، حتى احتوتها تمامًا.

فتح الباب، فترامت نداءات، وصيحات، وهبَّت نسائم من ناحية الميناء الشرقية، محمَّلة برائحة الملح واليود والطحالب والأعشاب. ترامى — من بُعد — صوت مد البحر وجزره، كالوشوشة. وثمة بائع أمام الباب الخلفي لجامع البوصيري، يحمل على صدره صفًّا من الكتب، يسنده بيد، ويهزُّ كتابًا باليد الأخرى، وينادي بكلمات منغَّمة.

رفرفت يمامة، وتركت موضعها على الماسورة الملاصقة لجدار الشرفة. حلقت، وطارت إلى الأفق البعيد.

دخل، وتمدد على السرير. استعادت يده كتاب الصوفية. وضعه بجانبه، ودندن بأغنية، يحفظ لحنها، وإنْ غابت الكلمات.

غالبَ تردُّده، ثم قام.

ارتدى القميص والبنطلون، ودس قدمَيه في حذاء صيفي، كان يستعمله في الحقانية. لاحظ نشعًا لم يكُن رآه من قبل، أعلى الطرقة الموصِّلة إلى الحمام، وحجرتَي النوم. قرَّر أن يتأكد منه.

فتح الباب، ونزل إلى الطريق بخطوات متمهِّلة.

اتجهت قدماه — بتلقائية — إلى باب جامع سيدي البوصيري، المقابل.

صلَّى العصر، وقرأ الفاتحة لصاحب المقام، وأعاد قراءة أجزاء من البردة المحيطة بأعلى الصحن.

مضى خطوات إلى الباب الرئيسي في شارع التتويج، ثم عاد إلى الباب الخلفي.

واجه التردُّد في السير إلى الميدان، أو ناحية الترام حتى الميناء الشرقية. فضل السير في شارع الأباصيري. اعتاد السير فيه إلى الحقانية كل صباح، والعودة بعد الظهر. تعمَّد إبطاء خطواته، فلا شيء يشغله. حتى ذهنه كان خاليًا مما يسلم إليه تفكيره.

طالعه ميدان «الخمس فوانيس» باتساعه، وجامع سيدي علي تمراز، وبقايا سوق العيد. الفوانيس الخمسة توسطت الميدان، لم يعُد منها إلَّا التسمية. تحطَّمَت الأغطية الزجاجية، وانتزعت اللمبات. وقفت بالقُرب منها عربة حانطور، خلَت من سائقها، ودسَّ الحصان وجهه في مخلاة الطعام. في أقصى اليسار شارع الأباصيري، ينتهي إلى سيدي البوصيري وميدان المساجد. يسبقه شارع الشيخ البنا، وشارع سراي محسن باشا، يفضيان إلى الموازيني. ثم شارع رأس التين، إلى الحجاري وأبو وردة وباب الجمرك رقم واحد، ثم الشارع الخلفي لسيدي علي تمراز، وعلى اليمين شارع إسماعيل صبري، يمتد من الكورنيش إلى شارع الميدان والترسانة البحرية، وشارع فرنسا ينتهي إلى ميدان المنشية.

تابع خناقة بين سيدتين أول شارع سراي محسن باشا. قذفت إحداهما الأخرى بحذائها، ففضَّل السير بعيدًا.

مضى إلى قهوة المهدي اللبان.

اختار كرسيًّا على الزاوية بين شارع رأس التين وإسماعيل صبري، وجلس.

أَلِف رؤية القهوة في ذهابه إلى الحقانية، والعودة منها. حفظ أبوابها، ونقوشها، والنصبة ناحية الشارع الخلفي، والكراسي، والطاولات المصفوفة في الداخل والخارج. أَلِف حتى سحن الجالسين. غالبيتهم يرتدون القمصان والبلوفرات والبنطلونات والبدل وجبب المشايخ.

مسح المكان بعينَين متأملتين.

أحسَّ بالوحدة وسط مناقشات الجالسين وصيحات الجرسون. كيف أصبحوا أصدقاء؟ هل هم أصدقاء من الأصل، أو جيران، أو زملاء عمل؟ أو أن القهوة كانت بداية تعارُفهم؟ وهل بوسعه أن يجلس بالقُرب منهم، يشارك في المناقشات، يرد على الأسئلة المُثارة، يأتي— في الأيام التالية — إلى أصدقاء يعرفهم، ويعرفونه؟

قطع الأُفَّ المتململة صوت هامس:

– أستأذن.

كان الرجل قد جلس بالفعل على الكرسي المجاور. في نحو الخامسة والخمسين. يرتدي فانلة قطنية رمادية وبنطلونًا، وينتعل شبشبًا جلديًّا. أهم ما يميِّزه حاجبان كثيفان، وشارب اختلط سواده ببياضه، وتهدَّل على فمه. وعلى جانب وجهه الأيسر وحمة، امتدَّت إلى قُرب العين. لما تكلَّم، بدا غياب السنتَين الأماميتين أعلى الفم، سببًا في لثغته الواضحة.

– أول مرة تجلس في القهوة؟

غالب ارتعاشةً في صوته: هذا صحيح.

أشعلَ الرجل سيجارة، ونفث دخانها: بداية ... أم مرَّة والسلام؟

قال في ارتباكه: لم أتخذ قرارًا.

تهلَّل وجه الرجل بانبساط: إذَن حلَّ بيننا صديق جديد.

سأله عن اسمه، ثم اتجه بصوت مرتفع نحو الجالسين: عبد الله أفندي الكاشف ... صديق جديد.

فاجأه التصرُّف، وضايقه، وإنْ لم تفارقه ابتسامة مجاملة شاحبة.

قال الرجل: إبراهيم سيف النصر ... موظف بمعهد الأحياء المائية.

أردف وهو يومئ إلى الجالسين: هذه القهوة تكاد تقتصر على الموظفين ... ومن الواضح أنك كذلك.

داخلَ صوتَه تهدُّج: كنت ... قبل أربعة أيام.

زوى إبراهيم سيف النصر ما بين حاجبَيه: كيف؟

– المعاش!

ثم وهو يحاول إخفاء انفعاله: كنت رئيسًا للعاملين ... تابعت — بحُكم عملي — خطوات إحالتي إلى المعاش ... لكنني فوجئت بالخطاب ... كأنه ورقة إعلان وفاة مثل التي نقرؤها على الجدران!

قال إبراهيم سيف النصر: الحياة تبدأ بعد الستين!

أغمض عينَيه في تأثُّر: كلام نعزِّي به أنفسنا ... الحياة على الهامش مما لا يطيقه إنسان اعتاد العمل.

لم يُفاجئه خطاب إحالته إلى المعاش. يعرف تاريخ ميلاده، وتاريخ الْتِحاقه بالحقانية، ومدَّة الخدمة بالسنين والأشهر، وتاريخ الإحالة إلى المعاش، وموعد تسلُّم خطاب إنهاء

الخدمة ... لكن الشعور الغريب الذي انداح داخله، فاجأه. يعرف أن راتبه سينقص كثيرًا، بعد أن يصبح معاشًا. لم يجد في ذلك ما يُخيفه. المرتَّب الأقل يكفيه وزيادة، وإيراد الفدانين في بركة غطاس، يكفل له الأمن من احتمالات المستقبل. أكَّد في رسائله إلى أختَيه، وقال لَمن معه في سراي الحقانية إنه أدَّى رسالته، ومن حقه أن يستريح.

مع أنه كان يحفظ الصيغة جيدًا، فإنه أعاد قراءة الخطاب. بدا له مختلفًا عمَّا اعتاد كتابته وقراءته. عبد الله أفندي محمود الكاشف. هذا هو اسمه. الخطاب يبلغه بالإحالة إلى المعاش، بالرفت.

الرفت؟!

كتب التعبير عشرات المرات، وقرأه. لم يلحظ سخفه إلَّا هذه المرة. هل تنتهي خدمة خمسة وثلاثين عامًا بالرفت؟! لماذا لا تكتب صيغة أكثر تهذيبًا؟! نهنئكم ببلوغكم سن الستين ... نتمنى لكم حياة جديدة مُوفَّقة ... نشكركم على خدماتكم ... أي شيء أفضل من هذا التعبير الصارم!

الرفت؟!

إيقاع فعل الموت، ونفس عدد الحروف.

فاجأه تهامي بائع الخبز: أريد خدمة من الحقانية.

تشاغل بعدِّ الأرغفة: لم أعُد أذهب إلى هناك.

ثم بصوت متقطِّع النبرة: أُحِلتُ هذا الأسبوع إلى المعاش.

قال تهامي وهو يُلقي بقفة الخبز على كتفه: هل أظل على هذا الموعد أو أتأخر؟

تساءل في دهشة: لماذا تتأخر؟

في لهجة مترفِّقة: ربما تريد النوم براحتك!

ضايقَتْه الكلمات. تنبَّه — في اللحظة التالية — إلى خطئه: ماذا لو استكمل الرجل تعريفه؟ وما شأن الجالسين إن كان موظفًا أم أنه خرج إلى المعاش؟

هزَّ إبراهيم سيف النصر رأسه في فَهم، وقال: أطال الله عمرك!

وأعاد الكلمات: الحياة تبدأ بعد الستين ... هكذا يقولون!

سرحت عيناه في الفراغ: إذا وجد الإنسان شيئًا يشغله.

قال سيف النصر بلهجة مستحثة: وما يمنعك؟ كما أرى، فأنت بصحتك ... ابحث عن وظيفة مناسبة، أو شارِك في تجارة.

رفت على شفتَيه ابتسامة مهزومة: أما التجارة، فليس لي فيها ... وأما الوظيفة، فيدي على كتفك.

حدجه بنظرة مُستفهِمة: أين كنت تعمل؟

وهو يشير بيده ناحية شارع فرنسا: في سراي الحقانية.

– عرضحالجي؟

– لا ... رئيس قلم.

وهو ينفض بإصبعه دخان السيجارة: لك خبرة إذَن بالقانون والقضايا ... قد تجد وظيفة مناسبة في مكتب أحد المحامين.

– وكيل المحامي وظيفة لها شروطها.

ارتفع صوته بالدهشة: ومَن يتوظَّف على شروط الوظيفة؟!

واقترب بفمه من أُذنه: حكومة السعديين ستذهب إلى حالها، وتجري انتخابات جديدة.

أضاف في صوته الهامس: يتردَّد أن خمسة محامين على الأقل ينوون الترشيح لدائرة الجمرك ... إذا لجأت إلى أحدهم، فلن يتردَّد في إلحاقك بمكتبه أو بمكتب محامٍ زميل.

– لا بد أن أدخل إلى المحامي المرشَّح من باب السياسة ... ولا شأن لي بها.

علا صوته بنبرة محرِّضة: هو لن ينتظر منك إلا أن تعطيه صوتك ... وتدعو الآخَرين لإعطائه أصواتهم.

وربت ظهر كفه: لا تغلق الباب قبل أن تحاول فتحه ... ودَعنا نرَ!

تعالى أذان الظهر من جامع سيدي علي تمراز.

صمَتَا، واكتفيا بتأمُّل حركة الميدان.

قال إبراهيم سيف النصر: أنا أسكن هذا البيت.

وأشار إلى الناحية المقابلة. ثلاثة بيوت متلاصقة، تُعاني القِدم، وتساقُط الطلاء، وتآكُل قِطَع الطوب. النوافذ خشبية، أقرب إلى المشربيات، وإن أطلت مناشر، تدلَّت منها قطع الغسيل.

أشار — ثانيةً — إلى الناحية المقابلة: أوسط البيوت الثلاثة.

أعاد النظر.

البيت في مواجهة الباب الرئيسي لعلي تمراز. من ثلاثة طوابق. شكَّل الطوب الأحمر تكوينات من طلائه المتساقط. وثمَّة مقرنصات متكسِّرة، وأفاريز تشوَّهَت كتاباتها بطمس الكثير من الحروف والكلمات.

قال الكاشف: أسكن في شارع الأباصيري ... أمام الباب الخلفي لجامع البوصيري.

قال سيف النصر: كان موظفًا مثلنا ... لكن الرسول خصَّه ببركته، فصار من الأولياء.

وأسند ظهره إلى الكرسي: أرتاح قليلًا بعد الغداء ... ثم أنزل إلى القهوة ... لا أغادرها قبل السلام الملكي في الراديو.

خمَّن حياة الرجل الأسرية. تصوَّرَه زوجًا لسيدة لزمت البيت، وأبًا لثلاثة أبناء. ولدَين وفتاة، أو فتاتَين وولد. دخلوا الجامعة، وإنْ لم ينهوا التعليم.

قال الكاشف وهو يحتسي ما تبقى من فنجان القهوة الثاني: أسعد الله أوقاتك!

قال إبراهيم سيف النصر: وسيُسعدنا بك إن شاء الله!

ثم وهو يتأهَّب للقيام: ألن تصلِّي الظهر؟

وأبطأ من قومته في تذكُّر: أين تؤدي صلاة الجمعة؟

ارتبك الكاشف في مفاجأة السؤال: في أبو العباس أو البوصيري ... وأحيانًا في نصر الدين!

وهو يهز إصبعه: إذا صلَّيتَ الجمعة القادمة في علي تمراز ... فستحرص على سماع خطب الشيخ عبد الحفيظ.

ووشى صوته بإعجاب واضح: لولا أنه لا يدَّعي الولاية ... لاعتبرناه وليًّا!

رحلة الاتجاه الواحد

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

قرآن كريم

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قرآن كريم

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.

قرآن كريم

قال أبو العباس: «يكون الرجل بين أظهرهم، فلا يُلقون إليه بالًا. حتى إذا مات قالوا: كان فلان. وربما دخل في طريق الرجل بعد وفاته.»

وقف على رصيف سيدي المسيري المُواجِه لقهوة الزردوني.

تظاهر بالتمشِّي، عندما رمقته عين مُستريبة. عاد، فأطال نظراته إلى الرجل الجالس على رصيف القهوة.

تعدَّدَت رؤيته للرجل في جلسته على قهوة الزردوني. في باله أعجب الحكايات التي رويت عنه. ظِل قوَّته يغطِّي الناس والبيوت والجوامع والشوارع والدكاكين ومراكب الصيادين. يحترم الجميع السير أمامه، وربما مال البعض إلى شارع جانبي.

روى عم محجوب ما فعله في سرادق مرشَّح حزب الشعب: قذف الكلوب الرئيس بكرسي. خفت الضوء. ذعر الناس لما حدث. توالت الضربات في الكلوبات الأخرى واللمبات. تلاشى النور، وحلَّ الظلام. اصطدمت الأجسام المتدافعة، وارتفعت الهراوات، نزلت على الخوف واللهفة والصراخ.

قيل إنه كان يأكل دجاجة على ريق النوم. وقيل إنه كان يذيب الفص تحت لسانه، ثم يجرع زجاجة طافية كاملة، في بار البوستة، ويعود إلى بحري، دون أن تهتز المرئيات أمامه. إذا انساق لمعركة، تظل رجلاه تحملان جسمه، وتطيح شومته بالأجسام العفية، فلا تخطئ طريقها. وقيل إنه كان يحمل على ساقه، في جراب جلدي، مطواة حادة، يلجأ إليها إذا واجه الخطر. يهوش بها ليجبر خصمه على التراجع، يستخدمها لإسالة الدم، لا للقتل. يذعر الخصم لمرأى الدم، فيحبط، يخشى الموت. وكان يحرص — إذا توجس الشر — على ارتداء بونية من الحديد، يوجهها إلى رأس خصمه، أو وجهه، أو ذقنه. واشتهر عنه الضرب بالروسية. تُميت — إذا أحسن تصويبها — مَن تصل إليه.

أكَّد المعلم أحمد الزردوني أن حنفي قابيل اضطر إلى الفتونة. فرضت عليه معارك فخاضها. دافع عن نفسه. لم يجعل قوَّته — حين قدم من الصعيد — موردًا للرزق، ورفض البلطجة، وفرض الإتاوات. وحين مالت نفسه إلى المعلمة أنصاف تزوجها، ورفض أن يعمل حاميًا لها، ثم طلقها بعد أن أصرَّت على ما في رأسها.

قال الزردوني: حنفي قابيل فتوَّة … أما الشاطر فبلطجي.

الْتَمعَت عينا عباس الخوالقة بالدهشة: وما الفرق؟

قال الزردوني: هو الفرق بين مَن يأكل بعرق جبينه، ومَن يفرض الإتاوات على الناس.

ذهل لما رأى اليوزباشي نبيل قرة ضابط نقطة الأنفوشي، ينحرف إلى القهوة. يُلقي السلام، ويجلس. يدور بينه وبين الرجل كلام. لم يتبيَّن — على البُعد — ماذا قالا، لكن الحديث تخلَّلَته همسات ومداعبات وضحكات مقهقهة.

سمع الكثير عن الفتوات: الْتِماع الخناجر والسكاكين، والصرخات، والتأوُّهات، وقرقعة العظام، وصليل السلاسل الحديدية، وضربات الشوم، وقطع الحجارة، والزجاجات الفارغة، وتهاوي الأجسام، وانبثاق الدم، وافتراشه مساحات في الأرض، وعلى الجدران.

تمنى أن يصبح أبو أحمد، فتوة، يؤكد هيبته الرجال الذين يسيرون خلفه، أو يحيطون بمجلسه. يعمل له الآخَرون حسابًا، يقفون احترامًا، ينفِّذون ما يطلب. يفرض الإتاوات على تجار الحي، وعلى الميسورين من السكان. لن يكون شيخًا للصيادين مثل الحاج قنديل وعباس الخوالقة وبقية المعلمين، ولن يكون درويشًا مثل أبيه.

لم يكُن قد رأى الفتوات، وإنْ أتَتْه أخبارهم، فتمنَّى أن يصبح فتوَّة.

استهوته حكاية أمين عزب. طرد الرجل الغريب من القهوة، فصار موضع إعجاب أبناء بحري، وقرَّر أن يتعلم الفتونة.

جلس إليه في زاوية خطاب. استمع إلى كلماته، ووقف بالساعات في شارع إسماعيل صبري يُتابع تصرُّفاته.

قال له قاسم الغرياني: لم يكُن الشيخ أمين عزب فتوة ولا مارس الفتونة.

ولكزه في كتفه: إذا أردت الجلوس إلى فتوة، فهو حنفي قابيل ... كان أبو أحمد زمانه ... ثم هدَّته الأيام!

روى له عن معاركه في بحري منذ بداياتها. خاض في تفصيلاتها ومنمناتها. كيف استحالت الدعوة معركة عنيفة قاسية. أضاف، وحذف، وضعه في إطار البطولة. رد السلام على شاهين عبد الفتاح، تاجر العلافة بالموازيني، وقال: تفضل.

واصل شاهين سيره.

لحق به: إذا عدت إلى فعلتك ... قتلتك.

قال شاهين: أنا لم أفعل شيئًا.

– رفضت دعوتي.

– عندي شغل.

طقَّت نظرته بالشرر: قبول دعوتي أهم.

دفعه ناحية القهوة.

أجلسه إلى جانبه على الرصيف، تفصل بينهما طاولة صغيرة. لاطفه — بمجرَّد جلوسه — ودعا له بكوب سحلب وكرسي معسل.

لم يفوِّت شاهين عبد الفتاح ما حدث.

ترصَّد لحنفي قابيل في انحناءة الطريق من سراي رأس التين. فوجئ حنفي قابيل بما جرى. ظفر بحياته وبهزيمة شاهين، وإنْ خرج من المعركة بطعنة سكين. لزم البيت، فلم يذهب إلى المستشفى. عاده الحاج محمد صبرة، وعالجه. إذا عرف خصومه أن المعركة

أدخلته المستشفى، كيف له أن يمشي في الطريق، ويدخل الحلقة، ويجلس في القهوة، ويتكلَّم، فيُنصت الرجال؟

شغله أن يتعرَّف إلى الرجل، يجالسه، ويُحادثه. تاقت نفسه لمصادقته، والتعلُّم منه. التعرُّف إلى أصول الفتونة. يُصبح — على يدَيه — فتوة، أبو أحمد. كيف يدخل عراكًا، فيتركه دون أن يصاب بأذًى. تبلورت أمنياته في أن يصبح واحدًا من الذين يخشاهم الرجال، يقفون لهم احترامًا، يخاطبونهم بودٍّ وأدب، يتلفَّتون إنْ جاءت سيرتهم.

يرتدي جلبابًا من الحرير، ويضع على رأسه طاقية بيضاء، وينتعل خفًّا مغربيًّا، واستندت راحة يده على عصا من الأبنوس. لم يكُن وجهه يعبِّر عن سِنِّه، وإن امتدَّ جرح غائر في خدِّه الأيمن، ربما من طعنة سكين. له أنف أقنى، وشارب رفيع فوق شفته العليا، وشفتاه غليظتان، وعيناه تصدران نظرات نافذة، تحت حاجبين كثيفين وإن غلب عليه الاستغراق. إذا أراد التحية، مال بأعلى كتفه، ولامست إصبعه جبهته، وتمتم بكلمات هامسة، مدغمة.

غالب تردُّده: أريد أن أتعلم الفتونة.

كتم حنفي قابيل ابتسامة مشفقة: لماذا؟

أربكته نظرة الرجل الملتمعة. أشاح بعينيه، فلا يواجهه: أريد أن أصبح فتوة ... أبو أحمد ... مثل حميدو فارس وأبو خطوة وأمين عزب ... ومثلك.

علا حاجباه بالدهشة: مَن أخبرك أني فتوة؟ عندما تضطر إلى خوض معركة، فذلك لا يعني أنك فتوة.

وسرح في الفراغ أمامه: انتهى عهد الفتوات ... الظروف هي الفتوة الآن.

ثم بلهجة متصعبة: أما شيوخ المنسر فهم مشايخ الحارات!

– لكنني أريد أن أتعلَّم ...

وابتلع ريقه: لا أريد الفتونة ... بل لأحمي نفسي.

قال الرجل في دهشته: من ماذا؟

– أذى الناس.

حدجه بنظرة متأملة: ما اسمك يا ولد؟

– محمد علي الراكشي.

برقت عينا قابيل باهتمام: ابن الشيخ علي الراكشي؟

نكس وجهه في الأرض: كان صيادًا.

قاطعه الرجل: لكنه الآن أحد أولياء الله الصالحين ... والرجل يبشر في قبره بصلاح ولده من بعده.

لملم جرأته: لم يترك لنا ما نحيا به.

هزَّ الرجل رأسه بما يعني التأسُّف: الشيخ البعيد سره باتع!

روى جابر برغوت أن الراكشي زاره، قبل وفاته بيوم، قال له: أودعك لأني أريد أن أسافر.

نسب برغوت كلمات الراكشي إلى ما كان قد طرأ على أقواله وتصرُّفاته، فلم يعقب. لما عرف بموت الراكشي، أدرك أن السفر الذي كان يتحدث عنه هو الموت. وروى برغوت أنه شاهد العشرات من الرجال، لم يرَهم من قبلُ، ولا يعرف من أين أتوا. يزاحمون الصفوف التي وقفت لصلاة الجنازة. لما حاول تبينهم — عقب انتهاء الصلاة — فوجئ باختفائهم.

حين سأل الجد السخاوي أم محمد، عن الخفي من أحوال علي الراكشي، ما لاحظته من كراماته ومكاشفاته، روَت ما كان الجد السخاوي يرفض تصديقه، لولا اقترابه من كرامات الجنازة، في غسله وحمله ودفنه.

كان إذا بقي في البيت لزم حجرته، ينشغل بقراءات ودعوات وابتهالات. تقدم إليه الطعام من انفراجة الباب. يأكل القليل، ويُعيد الباقي. تحلُّ فيه البركة، فيظل، والأولاد، يأكلون منه أيامًا، حتى ينفد. وعندما ترى حجرته — آخِر الليل — منوَّرة، تُوارب الباب برفق. تجده ساجدًا، يُطيل سجدته ويُطيل، وعلى رأسه قنديل من النور معلَّق في هواء الحجرة. أحواله تظهر على وجهه، تتغيَّر بتغيُّر الرؤى والمشاهدات. وكان ينزل البحر، فيسبح. ما يكاد يمضي خطوات حتى تطفو الأسماك من كل الأنواع والأحجام، حتى المفترسة منها ترافقه في سياحته. ثم لم يعُد — في أيامه الأخيرة — يتردَّد على الحلقة، ولا على الساحة الحجرية وراء مساكن السواحل، ولا يحمل السنارة في طريق الكورنيش، لكنه كان يذهب بالطعام — آخِر النهار — إلى عياله. يأتيه بالبركة من الكون.

روت أنه كان ينقلب له اللون الواحد، في صحن واحد، أنواعًا مختلفة من الطعام. يجد الأولاد كل ما يشتهون أكله. وكان يأتي للبيت بفاكهة الشتاء في الصيف، ويأتي بفاكهة الصيف في الشتاء. وأتى برغيف من فرن السيالة. وضعه على الطبلية، وغطَّاه بمنديل، وقال: كلوا باسم الله. اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وأنت خير الرازقين. وأكلَ الأولاد من تحت المنديل حتى شبعوا، وظلَّ الرغيف كما كان.

طالت غيبته، أسبوعًا كاملًا. فبدأ القلق يناوش المرأة.

عاد إلى البيت، والإنهاك بادٍ عليه. قال وهو يمضي إلى حجرته: كنت أتلو القرآن على الملائكة.

وعاد إلى الشقة — ليلة — فأحزنه أن المرأة والأولاد بلا غداء ولا عشاء. رفع يدَيه بالقول: إلهي ... ضمنت رزقًا تسوقه لنا، فلماذا تُحجب عنا الرزق؟

انتبهَت الأعين إلى أرغفة من الخبز الساخن، الشهي، على الطبلية، لم تكُن موجودة.

صادقَ رجلًا من عباد الله في البحر، كان يخرج إليه من الماء، يُعطيه من الأسماك ما يعود بها إلى بيته. وكان الماء يقذف السمك ناحيته.

اشتهى الأولاد حلوًا، فدخل إلى المطبخ. وضع قطعًا من الخبز الناشف في حلة بها ماء. أوقد عليه النار، ثم قدَّمَه إليهم. فأكلوا حلوًا لم يتذوقوا أطعَمَ منه.

حين علا صراخ عثمان بطلب قطعة هريسة من صينية عم محمد الطوشي، واجهته نظرات أم محمد المتحيِّرة. أخذ قطعة من جير الحائط. هرسها في يده، ودفعها إلى عثمان، فأكلها ملتذًّا.

عندما طلب منه هاجس أن يدعو على الأولاد الذين يعاكسونه، فتقبض أرواحهم، تذكَّر محمد وأبو بكر وعمر وعثمان، فأشفق على الأولاد.

كان يخرج إلى صلاة الجمعة في أبو العباس. يخترق الشوارع المحيطة. يتأمل حركة الميدان. يصعد الدرجات الرخامية. يمضي بين المصلين، لا يرونه ولا يسمعون دعواته، ولا يشعرون بملامسة ثيابه. يقف في موضع خالٍ، في جانب أحد الصفوف. وكان إذا قام إلى الصلاة، شاهد الكعبة، وصلَّى في حرمها. فإذا انتهت الصلاة، سار إلى مقام السلطان، يقرأ الفاتحة، ويردِّد الأدعية، ثم يتجه إلى السيالة من الباب الملكي، لا يراه إلا الخواص. وكان يطير إلى قبر الرسول كلَّ ليلة، يقرأ صحيح البخاري على الأذن الشريفة.

قال قاسم الغرياني إن علي الراكشي زاره في المنام، قبل ليلة واحدة من موته، وطلب منه أن يحضر غسله. وحين دنا الموت، رأى ملائكة بِيض الوجوه، كأنَّ وجوههم الشمس، معهم أكفان وحنَّة من الجنة. وقال ملك الموت فوق رأسه: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوان، ثم نام وعيه في تسبيح الملائكة. واتجهت الأعين إلى مصدر ارتطام، أو انفجار. رأوا الصخرة المواجهة لكورنيش الميناء الشرقية، بالقرب من الموضع الذي غرق فيه علي الراكشي، قد تفتَّتت تمامًا. تحولت إلى صخور صغيرة وتراب، ثم ابتلعتها المياه، فلم يبقَ منها على السطح شيء. وتلبست عسكري السواحل حالة من الجذب، خرجت به عن نفسه. تركه رؤساؤه لحاله، بعد أن ألقى البندقية، ونزع بدلته الميري، ومضى إلى حيث لا يدري أحد.

لما وُضع على الخشبة ليُغسَّل، راح يحرِّك إصبعَيه بالتسبيح. وسقطت الخرقة الساترة للعورة على فخذَيه، مد يده، وعلا بها، فغطت ما كان مكشوفًا. وأخذ محمد صبرة من ماء غسله. وضعه على جراح المتردِّدين عليه، فعافاهم الله. وارتفع صوته بعد أن وسد جثمانه التراب: ﴿... الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾. وأخطأ القارئ في تلاوة آية من سورة الرحمن، فرد عليه خطأه من داخل القبر.

تمنَّت أن تراه في المنام. جاءها، في الليلة نفسها. كان يرتدي جلبابًا أبيض، ويلف حول رأسه تلفيعة بيضاء. أوصاها أن تقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها، وقال: وُعِدت أن يغفر الله لَمن تبع جنازتي.

سألته: ما الذي سمعته عندما حضرك الموت؟

قال: هتف فيَّ هاتف: يا علي أجِب داعي الله، فأجبته ولبَّيت أمر ربي.

– بماذا أجبتَ منكر ونكير؟

– سألاني مَن ربك؟ قلت: هو الذي نذرت دنياي لآخِرته.

استطرد في لهجة مطمئنة: ليس قبري ما رأيتموه. أفسحت الملائكة في قبري مد البصر، وفرشته بفراش من الجنة، وتغطيت بغطاء من الجنة، واستضأت بنور قنديل من الجنة. سيظل — كما أخبرني الملائكة — في موضعه، حتى يبعثني الله من قبري.

حبست المرأة نفسها — إلى ما بعد الأربعين — في حجرتها، لا تخرج إلا لقضاء حاجة، ولا تتكلم إلا معه. يأتيها في اللحظات التي يختارها. يحدِّثها عن عِبَر الحياة الدنيا، وما يلقاه في الحياة الآخرة من سعادة وهناء.

ظلَّت تتردَّد على قبره، يتلو القارئ سورة البقرة، تجعل ثوابها لأهل المقابر. اعتادت وجود حمامة بيضاء على الشاهد الحجري. إذا أحسَّت باقتراب أحد، طارت، واستقرَّت فوق السور، حتى يخلو الحوش، فتعود إلى مكانها على الشاهد.

قالت: أين أنت الآن؟

قال علي الراكشي: مع أولياء الله في الجنة.

– كيف تحيا؟

– فارقني الحزن ... عرفت الراحة أخيرًا.

همست مؤنبة: هل أنت راضٍ عما تركتنا فيه؟

أتاها الصوت من داخل القبر: تركتكم في رعاية الله ... ولو أني عُدت إلى الحياة فلن أبدِّل طريقي.

روى أنه استقبلته — حين خرج من القبر — نوق بِيض، لها أجنحة، عليها رحال الذهب، ويتلألأ شُرُك نِعالهم كل خطوة منها كمد البصر. وصعد به ملكان — في أصوات الصلاة والتسبيح والتحميد والتكبير — إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، إلى سدرة المنتهى. ينتهي إليها كل شيء من أمر الله، لا يُجاوزها.

علا صوت بسورة الرحمن، فاهتز كل شيء في الجنة. قال أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلَّى الله عليكِ، وعلى جسد كنتِ تعمرينه. أُعيد إلى الأرض، لتجهيزه، وتكفينه، ودفنه. وروى أنه لما قُبضت روحه، جعلها الله في قنديل من زبرجد وياقوت، وعُلِّقت وسط الجنة، ضمن قناديل معلَّقة أخرى، لا تنتهي. لا ليل ولا نهار، العرش سقف الجنة، ومن السقف ينداح النور، فيغطِّي كل شيء، فهو ضوء أبدي، والحجرات ليست معلَّقة، ولا هي مشيدة على أعمدة، والأنهار تجري بالماء والعسل والخمر، عليها قباب من الياقوت ومن الزمرد ومن المرجان، والأشجار متجاورة متشابكة الأغصان، متدلِّية الثمار، بلا أفق، عليها أجراس من الفضة، تهب عليها ريح الهفهافة من تحت العرش، تحرك الأجراس بأصوات لم يسمع أجمل منها في الدنيا، والأجواء تتضوَّع بأريج عبق، والطيور فوق الرءوس تغرِّد بأنغام جميلة، وتنفض أجنحتها، فينتشر المسك والعنبر. نادى منادٍ: لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، ولكم أن تحيوا فلا تموتون أبدًا، ولكم أن تشبُّوا فلا تهرمون أبدًا، ولكم أن تنعموا فلا تيئسون أبدًا. ودخل عليه الملائكة مسلِّمين مهنِّئين له، حاملين الهدايا والمواهب والخلع. قالوا: سلام عليك بما صبرتَ فنعم عُقبى الدار. وقالوا: أنت حي بحياة أبدية. يلتقي أهل الجنة، بعضهم ببعض، يختلط ذوو المكانة المرتفعة ومَن هم أدنى، يُسقطون الفوارق كأنهم في الصلاة. لا خوف، ولا حزن، ولا إصابة بهم، ولا كراهية، ولا وسواس، ولا مرض.

قال إنه تزاور مع أبو الحسن الشاذلي والمرسي أبو العباس وياقوت العرش والبوصيري والسيوطي وكظمان ونصر الدين وجمعة العدوي والشيخ عرفة الأنصاري وسباعي سويلم وغيرهم ممَّن سبقوه إلى نعيم الجنة. انتقل إليهم، وانتقلوا إليه، على خيل مسرَّجة، لا تروث، ولا تبول، يركبونها إلى حيث يلتقون. أقبل عليهم بفرحة الغائب عن أهله. وثمَّة أسواق لا بيع فيها ولا شراء، يتحلَّق المترددون عليها في مجموعات، يتذاكرون كيف كانت الدنيا، وكيف أخلصوا في عبادة الله، وكيف كانت أحوال الفقراء في الدنيا، وأحوال الأغنياء، وكيف جاء ملك الموت، فبشر بالنعيم الدائم.

قُدمت له الأطباق، فأكل منها، ثم قُدمت له أطباق أخرى، رأى أنها مثل الأولى. قال: هذا الذي رُزقتُ من قبل. قال ملك: كُل ... فاللون واحد، والطبق مختلف. ما يكاد يضع

الثمرة في فمه حتى يتبدَّل مكانها مثلها، وأكثر. تردَّد على الأماكن المباحة للصيد، لا يقتل، ولا يكسر، ولا يسلخ، ولا يجرح، ولا ينزف دمًا، ولا يتعب نفسه. يمسك الطير بيده، أو بكفَّة نور، أو شبكة نور، أو ما شاء الله، بلا خوف منه أو منها. تصبح في يده لحمًا مطبوخًا أو مشويًّا. يأكل منه حتى يشبع، ثم يعود الطير إلى حالته الأولى، ويعاود الطيران. ويريد الشرب من إبريق. يطير إليه، فيشرب، ويعود الإبريق إلى موضعه. يأكل — مثل كل أهل الجنة — ويشرب. لا يبول، ولا يتغوط، ولا يتمخط، إنما هو عرق ينفذ من جلده مثل ريح المسك.

قال لها في تأكيد: لا تنشغلي بي، فأنا أرعى في الجنة.

وقاومت المرأة خجلها، ثم همست: قال لي الشيخ علي: إذا أردت أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تتزوجي من بعدي.

ثم بصوت منسحب، كأنه يبتعد: اهتمي بنفسك، وبالأولاد.

أعفى عم سلامة، صاحب البيت، أم محمد من دفع المائة والثمانين قرشًا قيمة الإيجار. قال إن لعلي الراكشي أفضالًا في عنقه.

اتجه الرجل إلى محمد علي الراكشي متأملًا: تريد الفتونة إذَن؟

علا صوته دون تدبُّر: ما يهمني أن أدافع عن نفسي.

خمَّن من صمت الرجل وشروده، أنه انصرف عنه.

فاجأه الرجل وهو يتهيأ للابتعاد: قابلني غدًا بعد صلاة العصر في حديقة سراي رأس التين.

أصوات الأحلام القديمة

أمِن تَذَكُّر جيران بذي سلَمٍ مزجتَ دمعًا جرى من مُقلةٍ بدَمِ
أم هبَّت الريحُ من تِلقاءِ كاظمةٍ وأومضَ البرقُ في الظلماءِ من إضَمِ
فما لعينَيكَ إنْ قلتَ اكفُفَا هَمَتَا وما لقلبك إن قُلْتَ اسْتفِق يَهِمِ
أيحسبُ الصَّبُّ أن الحبَّ مُنكَتِمٌ ما بين مُنسجِمٍ منه ومُضطَرِمِ
لَوْلا الهوى لم تُرِقْ دمعًا على طَلَلٍ ولا أَرِقتَ لِذِكرِ الْبانِ والعَلَمِ

من «بردة البوصيري»

صعد الدرجات الرخامية، المُفضية إلى الباب الرئيسي، المُطلَّة على شارع التتويج. مالَ إلى غرفة الضريح. المقصورة الخشبية، تتداخل فيها قِطع النحاس المزخرف. قرأ الفاتحة والشهادتين.

كان يحلو له أن يزور — عقب صلاة العصر، في يوم يختاره — جوامع الحي ومساجده وزواياه، وأضرحة أولياء الله الصالحين. تشغي بهم ميادين الحي وشوارعه وأزقته. يبدأ بصلاة العصر في البوصيري المواجه للبيت. يصعد الدرجات، ويعبُر الحاجز الخشبي القصير من الخشب المعشق. يخلع حذاءه في نهاية الصحن المكشوف، والقباب الثلاث المُلحَقة به. صحن الجامع الواسع، مغطًّى بسقف مُزيَّن بالنقوش العربية، وفي الوسط قبة على أعمدة من الحديد الزهر. يتلمَّس طريقًا إلى الضريح في غرفته الجانبية، بين الأدعية، والابتهالات، وطلب المدد، ولثم العتبات، وتقبيل النوافذ والحوائط والمقصورة، وتقديم النذور، يُلقي السلام على صاحب الضريح، ويقرأ الفاتحة. تعلو حوائط الصحن والضريح إزارات زرقاء، مكتوب عليها برقائق الذهب، بخط فارسي بارز أبيات البردة،

وبالخط الثلث آيات من القرآن. يغادر الجامع من الباب الخلفي إلى أبو العباس. ينزل إلى أسفل الصحن الواسع. يقرأ الفاتحة، في الجانب الغربي، أمام المقابر الثلاثة للسلطان، وولديه أحمد ومحمد، ويقرأ الفاتحة، في الجانب البحري، أمام الأضرحة الستة لأولياء الله. يصعد الدحديرة إلى المسجد الصغير خلف جامع السلطان، يضم أضرحة الأولياء الثلاثة: سيدي بركات، سيدي علي الفتح، السيدة رقية الشاذلية، ومنه إلى أضرحة الأئمة الاثني عشر، جمعها — في المكان — الشيخ صالح، رجل ذو كرامات، استمع في رؤيا منامية إلى صوت يقول: أنا محمد إمام الحرمين ... أريد أن تبني مقبرة للشيخ محمد بن وكيع. بعد بضعة أشهر، قال الصوت: أنا محمد إمام الحرمين ... أريد أن تبني مقبرة للشيخ محمد أبو وردة. ظل الصوت يتناهى كل بضعة أشهر، باسم ولي جديد، حتى وصلت الأسماء إلى اثني عشر من أولياء الله الصالحين: محمد إمام الحرمين، محمد أبو وردة، يوسف الجعراني، محمد الشريف المغربي، محمد الغريب، ابن وكيع، محمد إجابة، محمد المطرودي، محمد الشريف، محمد بركة، محمد الغريب اليمني، محمد الحلواني. يمضي — من الناحية القبلية — إلى ياقوت العرش ونصر الدين والمسيري وعلي تمراز وطاهر بك ... يطيل الوقوف أمام كل ضريح. يقرأ الفاتحة، ويتهدَّج بدعوات. حتى سيدي كظمان، كان يتهدَّج أمامه بالتلاوة والأدعية. شُلَّت الأيدي التي حاولت أن تطول مقامه. ترفعه من موضعه لتفسح الطريق. عاملوه كما عاملوا سيدي أبو الدرداء. أُضيئَت على مقصورته الشموع، وقُدِّمَت النذور، واطمأن الناس إلى مكانته مع أولياء الحي.

كان بلا مسجد. كلها بيوت الله.

زار أضرحة أولياء الله في أحياء الإسكندرية: الشاطبي وابن الحاجب والقباري وجابر الأنصاري والطرطوشي وعبد الله الراس والسماك وغيرهم. إذا تعالى الأذان، قصد المسجد القريب، لكن التردُّد على جوامع الحي ومساجده كان همه الذي يحرص عليه. يحرص على زيارة المساجد ذات الأضرحة. يتأمَّل في مدد أولياء الله وشفاعتهم. يُطيل الوقوف أمام مقام السلطان. أولياء الله في الميدان الفسيح نجوم، لكن لا ضوء لهم في ضوء الشمس. سيدي المرسي أبو العباس. في يمينه تلميذه البوصيري، وفي يساره تلميذه وخادمه وزوج ابنته ياقوت العرش ... عم مدد السلطان سائر الورود، فائتنس الأولياء — في النومة الأخيرة — بقربهم من ضريح القطب المبجل، يرتوون من بركاته ومكاشفاته. يزورهم بعد زيارته للمرسي. البركة الجماعية تتحقَّق بالمجاورة.

عرف أن أولياء الله — سيدي محمد صلاح الدين، سيدي محمد المنفعي، سيدي محمد مسعود — أبناء سيدي علي زين العابدين، أحفاد الإمام الحسين، السلالة الطاهرة

العطِرة. أصبح يُطيل الوقوف أمام النوافذ المُطلَّة على أضرحتهم، يقرأ الفاتحة، ويدعو بما يسعفه به لسانه.

– أنسية!

لمحها تخطو في الميدان، من الموازيني إلى قلب السيالة. تبدَّلت ثيابها، وإنْ عرَفَها من خطواتها الطفلة، وجسمها الذي تؤكد الملاءة استدارته، والمنديل بأوية يغطِّي الرأس، وتنزلق منه خصلات الشعر الأسود.

كانت ترتدي ملاءة، أحكمت لفَّها حول جسمها، فلا يبين إلا الوجه. وغطى البرقع ملامح وجهها فلا يكاد يبين منها شيء. ودست قدمَيها في حذاء من الكاوتش.

عرف — لا يذكر الراوي — واقعة ظهور المرسي للإمام وجلساء درس المغرب. غابت أنسية بعدها. ذهبت بها الشائعات إلى أكثر من مكان. لما رآها تصحب سيد الفران في زحام شارع الميدان، تأكد من شائعة زواجهما. أَلِف تردُّدَها — فيما بعد — على كشك سيد في ناصية الموازيني والدحديرة الخلفية لجامع أبو العباس.

حين الْتَقى بها في شارع سراي محسن باشا، جاءت عيناها في عينَيه. سألها عن حالها. تمهَّلَت في خطواتها وهي تُحدِّثه عن زواجها من سيد.

قال بعفوية: لم تعودي إذَن تعملين في البيوت.

كأنه وارب بابًا مُغلَقًا: أنا لا أرفض أي عمل أساعد به زوجي.

سبقته الكلمات: لماذا لا تعودين؟

تمنَّى لو أنه تدبَّر السؤال قبل أن يوجِّهه إليها.

فاجأته بصوت هامس: متى؟

جرى بالفرشاة على أسنانه — للمرة الأولى — منذ أيام، وضبط ياقة القميص والكرافتة، واطمأن إلى انسجام لون الكرافتة مع البدلة، وعُنِي بكَيِّ الطربوش، وتلميع الحذاء.

انتظرها في الموعد. تشاغلَ بالقراءة في الشرفة. حاول أن يمتطي التذكُّر، أو الشرود ... لكن أذنيه استكانتا لحركة المرأة داخل البيت.

زاد ما كانت تتقاضاه من قبل. أعدَّ نفسه لتلقِّي شكرها، أو سؤالها، لكنها دسَّت النقود في صدرها، دون أن تراها.

توقَّع المفاتحة، في المرة التالية، لكنها لم تُشِر إلى الأمر. دخلت، وأغلقت عليها الحمام. خلعت الملاءة والشبشب، وظهرت بالفستان المشجر، الطويل. استبدلت به الجلابية الباتستة، وانصرفت إلى عملها داخل الشقة.

لم يعُد ينظر إليها، أو يكلِّمها. يلزم حجرة النوم، أو الشرفة المُطلَّة على سيدي البوصيري. يقرأ، أو يستمع إلى الراديو. ربما ترك لها الشقة، فيعود بعد نزولها. وكانت تأتي بخضار، تعدُّه له، ويصرُّ على دفع ما أنفقته. تظلُّ حتى تغسل الأطباق، وتستأذن. أغنَتْه عن الكثير مما كان يصعب عليه فعله، ولا يتصوَّر أنه يفعله. غسلت الملابس والأطباق، وكنست الشقة، وأزالت الغبار المتراكم على الأثاث.

آخِر النهار، دسَّت ما أعطاه لها — دون أن تنظر إليه — داخل صدرها. عدَّت المبلغ — لا بد — في السلم، أو في الطريق، أو في بيتها، لكنها لم تتكلم في الزيادة، حتى لا تفتح — ربما — باب الكلام بينها وبينه.

لم يكُن سيد يشكو الحال، ولا أظهر ضيقًا … لكن تعبيراته الساكنة، الحزينة، كانت تشي بما يمور في داخله.

أصحاب البلانسات يشترون من متاجر وكالة الليمون. لا يقصده إلَّا صيادو السنارة، أو الذين يتعجَّلون رحيل البلانس. حرص أن يملأ الكشك بكل أدوات الصيد: اللبانات، المخاطيف، الحبال، الكنار، الغزل، المداري، الملخ، البوص، السنار، الطعم، القفف، القار، البكر.

غالبت الحيرة.

لن يسهل عليها دخول بيت يعرف أصحابه ما كانت تفعله. لم تحادثه في الأمر حتى لا تثير ما قلبت عليه ماجورًا. اجترَّت المرارة، وتطلَّعَت إلى المستقبل. رنت — بالأمل — إلى عبد الله الكاشف. شجعته — بابتسامة — على السؤال والكلام. زغردت الفرحة في أعماقها، عندما انتزع السؤال من ارتباكه الواضح.

انقطعت عن التردد عليه، فشكَّ أنها سرقَتْه، واختفت … لكنه الْتَقى بسيد في طريقه إلى الحقانية: حضرتك عبد الله أفندي الكاشف؟

حدجه بنظرة متسائلة.

– أنا سيد … زوج أنسية.

أومأ برأسه يستحثُّه على الكلام: أعرف.

قال سيد: أنسية مشغولة في البيت.

لا يذكر إنْ كان قد أعطى الشاب نقودًا أم لا، لكنه تمنى لأنسية التوفيق في حياتها.

توالى تردُّد النساء على الشقة. يهمس بملاحظاته، فتُبدي المرأة التذمُّر. يعلن غضبه، فتغادر البيت، ولا تعود. يبعث له الجيران — أو سعاة الحقانية — بمَن يتردَّدن على

الشقة لأوقات، تطول أو تقصر، ثم تنقطع أرجلهن. أهملَ التفكير في أن يستقدم امرأةً من بركة غطاس. تعدَّدَت الزيارات، وتعدد التلميح والمصارحة بأن زواج علية ونبيلة يُنهي المسئولية.

كان قد أهمل الشقة. ظلَّت النوافذ مُغلَقة، والغبار متراكمًا على الأثاث والجدران. حتى الأكلمة علاها التراب، وتناثرت في الجدران — بتأثير الرطوبة — بقع ملحية، وتقشر الطلاء عن أشكال وتكوينات، وترامت رائحة عطن من ناحية الطرقة المفضية إلى المطبخ والحمام ودورة المياه وحجرتَي النوم.

أقبلت أنسية ناحيته.

زايله الحرج حين قالت في صوتها الهامس: ازيك يا عبد الله أفندي!

شجعه تصرُّفها.

سأل عن صحتها، وأحوالها، وزوجها، وهل أنجبت. قال مدفوعًا بالجرأة التي تلبَّسَتْه: لماذا لا تعودين للخدمة عندي؟

المسافر بلا زاد

قال الرسول ﷺ:

«اللهم أرِنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرِنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.»

قال عبد السلام بن مشيش لأبي الحسن الشاذلي:

«يا أبا الحسن، اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرِّهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك. ولأنْ تُصاب في بدنك، خير من أن تُصاب في قلبك. ولَعدوٌّ تصل به إلى ربك، خير من حبيب يقطعك عن ربك.»

قال أبو العباس المرسي:

«والله لا يموت هذا الشاب، حتى يكون داعيًا يدعو إلى الله.»

فزَّ من كرسيه — بلا توقُّع — أمام دكان الحاج محمد صبرة. اكتفى بتحيةٍ من يده، وأشار إلى سيارة تاكسي: محطة الرمل؟

بدت له القعدة كابوسًا عليه أن يتخلَّص منه. لطمت الأمواج جزيرته التي أخفاها بسِنِي عمره، فكادت تُعلن أسرارها.

قال المعلم أحمد الزردوني: لماذا لا تزوج محمود؟

وومضت على شفتَيه ابتسامة: داير مثل الدايخ في شوارع بحري.

ربت عباس الخوالقة صدره: إذا حدث زواج في أسرتي ... فسأكون أنا المتزوج!

قال حمادة بك: ربما الولد يحب الصرمحة ... ولا يريد الزواج.

قال عباس الخوالقة: أعرف صديقًا خان زوجته مع العالمة ليلة الزفاف!

قال الزردوني: هذا أهوَن من رجل أعرفه يترك فراش زوجته ويتسلَّل إلى الخادمة في المطبخ.

قال عباس الخوالقة: حب الخادمات مبدأ يقتضيه حُب التنوُّع!

جاراهم في الضحك، وإنْ تراقص — في الأفق — سره الذي أخفاه بأعوام العمر. شقة الزردوني قبالة البيت المهجور. هل رأى تسلُّل أنسية إلى داخل البيت وهو يتبعها؟ هل يلمِّح بما يورِّطه، فيروي، ويفضح نفسه. أحسَّ باختناق، شيء لم يتبينه، ضغط على صدره، واعتصره.

بدَت له الجلسة مُقبِضة، فانصرف.

ميَّز جابر برغوت — في ميدان أبو العباس — يحرص على ارتداء زي المشايخ؛ القفطان والجبة والحزام الأخضر. ويُلقي على كتفه شالًا متآكِل الأطراف من الكشمير، ويضع على رأسه — موضع العمامة — طاقية شبيكة، ويدسُّ قدمَيه في قبقاب خشبي يُصدِر صوتًا ذي إيقاع، وإنْ تألَّق الوجه، والْتَمعَت العينان، وتبدَّت النشوة في المشية والتصرُّفات.

تبدَّل حاله منذ ظهر له سيدي ياقوت العرش. انقلب وقته سكينة، لا يخترقها الزحام ولا الأصوات المتلاغطة من حوله. نوع من التبتُّل والتوجُّه إلى الذات المُطلَقة. الزهد الحقيقي هو فراغ القلب مما سوى الله. بادر إلى الطاعة، والانتهاء من كل ما قد يحمل شُبهة المعصية. أكثر من الندم والاستغفار والتوبة على كل ما فعل في أيام سالفة، ما يذكره وما لا يذكره، ما اعتبره صوابًا، لكنه — ربما — كان عين الخطأ. صفت الأوقات عن شوب الأكدار، وتطهرت السريرة، فلم يرَ آثار نفسه، ولا تعلَّق بالأسباب أو العلائق الخارجية. تجرَّد لعبادة الله، وانقطع لذكره، يذكره بقلبه لا بلسانه، ويؤدي الصلوات لأوقاتها، ويسجد فيطيل السجود والدعاء. يركب سفينة النجاة، تمضي فتستوي به على جودي الوصول، مسلوب الحول والقوة والإرادة والاختيار. زهد في الدنيا، وأعرضَ عن لذاتها، وعمرت النفس بحب الله تعالى، وعانى التألُّم من الذين أسرفوا على أنفسهم.

حرص على طلب العلم، ومجالسة العلماء، وصحبة أئمة المساجد، حتى يتعلَّم منهم ويسمع الخير. تنقل بين دروس المغرب في أبو العباس والبوصيري ونصر الدين وطاهر بك وعبد الرحمن وغيرها من جوامع الحي. حتى الزوايا التي عقد أئمتها حلقات الدرس، اختلف إليها. سأل، وأنصتَ، وناقش، وخرج بما يفيد.

بعدت به قدماه عن جامع ياقوت العرش. في باله صورة ولي الله، وإلحاحه في أن ينشد سيدي الأنفوشي ... لكن نفسه منعته من العودة إلى الجامع بعد أن تكررت الرؤيا، تطلب المجاهدة والاشتغال بما هو أهم من فتح الجامع، وإغلاقه، والعناية بالمقصورة والصحن والميضأة.

لم يشغل نفسه بالقضية التي أمره سيدي ياقوت العرش أن يلتقي بولي الله الأنفوشي من أجلها: هل تخص عامة المسلمين، أو أهل بحري، أو ناسًا يعرفهم أو لا يعرفهم. قال القطب كلمته. عليه — وإن لم يكُن في مراتب الصوفية — أن يلزم الإنصات والخشوع والتلبية.

تألَّقَت فيوضات من النور لا يدري مصدرها، ولا إلى أين تتجه. غطس في بحر من الأضواء المتماوجة. أدرك أنه في قلب البحر دون أن يعرف السباحة. اجتذبته التصوُّرات اجتذاب المغناطيس للحديد. انطلقت أمامه — بلا حدود — عوالم التجلِّي والمكاشفة والطوالع واللوامع والتمكين، احتوته تمامًا، وإنْ فضَّل أن ينسحب على نفسه. وقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياضة. مجرَّد سالك لا تؤهله ذاته لمشيخة ولا ولاية. تتستر عنه الأشياء، فلا يشاهدها.

لم يتمنَّ أن يشاهد الملائكة، ولا أرواح الأنبياء، أو يستمع إلى أصوات علوية. ولا دار في باله أنه يطير — يومًا — أو يمشي على الماء، أو يكلم الحيوان، أو يفعل المعجزات، ولا شغله إقبال الخلق، وتربية المهابة في قلوبهم. زهد في الدنيا، فلا يطلب الكرامة أو خوارق العادات. لم يعُد يشغله حتى البعث والقيامة والحساب والصراط والميزان والجنة والنار. هو ليس من الأولياء، ولا من الأبدال، ولا يملك القدرة على خير ولا شر ولا نفع ولا أذًى. ما يأمله، ويسعى إليه، أن ينفِّذ أوامر أولياء الله بالكلية، لا ينقص منها ولا يضيف إليها، ولا يبتدع.

استفرغ جهده وطاقته في طلب ولي الله الأنفوشي: ضريحه، أو مقامه، أو ما ينبئ عن وجوده بين أولياء الله في الحي. يشقيه أن ولي الله الأنفوشي لم يُعلن له عن موضعه، ولو في رؤيا منامية. لو أنه ظهر — حقيقة أو طيفًا — وقدَّم طلباته وأوامره، فسيفعل ما يؤمر به. ثمَّة رموز وإشارات لا يفهمها إلا الأقطاب — لهم الإجلال، والإعظام، والمحل الرفيع، والقول الجميل — ولا تُفشى إلا لهم. أجادوا السباحة في البحار العالية، ترشدهم منارات الأسرار الإلهية.

رحل قلبه من دنيا الناس. لم يبقَ فيه إلا محبة العلي القدير. لزم العزلة والصمت والجوع والسهر، وانفرد عن مخالطة أسرته. من تعود أفخاذ النساء لا يفلح. نهى

الأقطاب السائر في الصوفية عن الزواج، فلا يخلو من علقة، ويمنع الهمة على الحق تعالى. المرأة تمنع من كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار، بتمكن خواطر النساء من باطنه. يتسلط على المرء خوف من الفقر وخشية على الأبناء، ويركن إلى الدنيا. أدرك أنه ليس من أهل التصوف، فلا تعنيه مقامات يدخلها، ولا أحوال يغازلها، أو يسكن إليها، ويعتنقها. أبقى على المرأة. تركها كأنها أرملة. أوكل أمرها وأمر عياله إلى الله تعالى، وإن حرص على القيام بفرضهم. ترك لها ما يعين الأولاد على مواجهة أيامهم، وانطلق إلى حيث ينشد تحقيق أوامر ياقوت العرش. تعلق بأكابر الأولياء. دخل تحت حضانتهم، ولزم عشهم، وتحبب إليهم، بدوام زيارة الجوامع والمقامات والأضرحة. قرأ الفاتحة، وطلب الرأي السديد أمام مقامات أبو العباس والبوصيري وياقوت العرش ونصر الدين وكظمان وبكير والعدوي والواسطي والراس والمسيري وأبو الفتح وعبد الرحمن وكشك والشوربجي والشيخ إبراهيم والشيخة مدورة. حتى مجموعة الأولياء الذين جمعوا في مقام واحد، أطال التوقف أمامهم، وطلب الرأي والمشورة. أرواحهم طيور الحضرة، تطير في الملكوت، يسكنون فيه، لا يخرجون منه أبدًا. لا يراهم، وإن لامسته أنفاسهم. مال إلى الذلة والانكسار والخشوع والسكينة والتخلص من رق الشهوات. أهمل ما تشتهيه النفوس من أنواع المآكل والمشارب والملابس والمراكب، حتى يلتقط أصدق الثمار. وعزف عن اللحم، خوفًا من عارض شهوة النساء. وكان يأخذ ما يعطيه الناس له. لا يمد يده حتى يتيقن أن المعطي هو الله. يرفض اعتبار ما يأخذ صدقة أو هبة. هذه هي الطريق التي اختارها أولياء الله. عليه أن يسلكها، لا تشغله أسئلة الناس، ولا مؤاخذاتهم، ولا ملاحظاتهم المعيبة.

رأى في إدبار الخلق عنه ما يدفعه إلى الإقبال على ما يحياه من المجاهدة. انقطع إلى العبادة، وتجرَّد إلى الصلاة والذكر والتلاوة، وأكثر من قراءة الأوراد والأحزاب. عُني بتنقية باطنه من الشواغل، وعوَّد نفسه رياضة النفس ومجاهدة الطبع، وتهيَّأ لقبول ما يقوى على تحمُّله من الأسرار والمواهب. هو من أهل الظاهر، ليس بوسعه أن يفهم ما لدى أهل الباطن. أفعالهم وأقوالهم أسرار لا يفهمهما إلا أهلها، لكنه إذا جد في السر وصل، وانتقل من ضِيق الأكوان، ورحل إلى حيث ينبغي أن يذهب، فيظفر بما تطلَّع إليه من أنوار المواجهة، أنوار المجاهدة والمكابدة، أنوار المشاهدة والمكالمة، أنوار الحقيقة، تكشف ظلمة البطالة والتقصير والمساوئ والعيوب. صار على المحجة البيضاء. انفرد القلب بالله. خلص مما سواه. حاول فهم الدقائق والغوامض التي لا يحسن استجلاء غوامضها. تتفضَّل

القدرة بالنور. تشرق شموس الفهم والمعرفة، وينكشف الغطاء، وتنزل الرحمة، وترافقه الطمأنينة، وتتحقَّق المحبة، ويَسري الصدق في الكلمة. تنفرط حبَّات الضوء من عناقيدها، فيتألَّق المكان كالنهار.

خلَّف السيالة وراءه، ومضى إلى طريق الأحياء المائية وقلعة قايتباي.

كان الجو شتويًّا. السماء ملبَّدة بالغيوم، والأمواج ترتفع عاليًا، تتكسَّر فوق الحواجز الأسمنتية، وسور الكورنيش. يتناثر رذاذها على الرصيف، وامتداد الطريق، وطيور النورس تشكل قوسًا يندفع بامتداد الساحل.

قال له علي الراكشي: عرفت من الجد السخاوي أن ولي الله الأنفوشي يرقد في الضريح المسمى باسمه في قلعة قايتباي.

وهو يداعب ذقنه بأصابعه: قلبي يحدثني أن الضريح بلا ولي يرقد تحته.

بدا عدم الفهم في بحلقة عينَيه: لماذا؟

قال جابر برغوت: لا بد لكل ولي من كرامات في حياته، ومكاشفات بعد موته.

بطَّن الراكشي صوته بالود: لعلَّها حدثت وتحدث دون أن نعرف.

استعاد ما قاله علي الراكشي وهو يمضي إلى الضريح.

طال استناده إلى جدار غرفة الضريح الغارق في الظلمة. الضوء يغيب إلى مدخل القلعة، ظل — لدقائق — في زيارته الأولى، حتى توضحت — بالكاد — ملامح المكان. فتحت الغرفة عن آخِرها، فهي بلا باب. والضريح — في المدخل — من الحجر الجيري. تواصلت الأيام دون أن يبين الساكن في الضريح عن المعنى الذي يترقبه. يشرق المكان من نور ولي الله. تملأ بدنه، وتنبعث من وجوده. يمضي به في طريق الخصوص والعموم والحقائق والأسرار وحلاوة اللفظ ووجازته، والاشتمال على المعاني الكثيرة. يعرف ما لم يكُن يعرف من علم الأسماء والحروف والدوائر. تكوم زاد الترقُّب بتردُّد النسوة وقت صلاة الجمعة، شغلته الرسالة المرتقبة، فلم يعُد يؤديها، ينشدن الإنجاب والبرء من العلة والنصفة والمدد.

أهمل قول الموظف الشاب في جلسته على البوابة الخشبية الهائلة لمبنى القلعة. هو ولي الله الأنفوشي، يقصده الناس لطلب الكرامات. يرى ما لا يراه الناس، تتكشَّف له خبيئات نفوسهم، ويدلُّهم إلى الطريق: المعرفة بالله والخشية ودوام المراقبة والمتابعة والثقة بالله والمسارعة لامتثال أوامره وصدق التوكُّل عليه.

وهو يحاذر في عبور الطريق عند انحناءة الترام، ترامت الأصوات من ناحية القلعة. رأى الزحام والطاولات والطبالي. هنا كان يقف علي الراكشي يبيع ويشتري. لو أنه ظلَّ

في الدنيا، لأصبح قطب غوث، يأخذ بأيدي المريدين وطالبي المدد، يدلُّهم على الطريق الصحيحة، وما يجب فعله. لو أنه ظلَّ إلى جواره، ربما منح أخذ العهد على يدَيه، وصار له أستاذًا، شيخًا يهتدي به، يرسم له طريق الوصول إلى الله. الأسرار الإلهية لا تهب نفسها إلا لَمن حفظ الألفاظ والإشارة والسر. يُسانده في مهمته الصعبة، وينصحه، ويرشده إلى ما فيه الصواب. هو ولي الله. دلَّه يوسف بدوي على الطريق، وإنْ سار فيها بمفرده، يتلقَّى الفيوضات من مصادر لا يراها أحد.

نزل من التاكسي في طريق الكورنيش، قبالة حديقة سعد زغلول.

تأمل — بعفوية — مئذنة أبو العباس وامتدادات البيوت حتى قلعة قايتباي. ماذا قال جلساء القعدة بعد انصرافه المفاجئ؟ هل جاسوا في اتهامات سعيد النقيب، فتبدى المعنى الذي يضنيه، ويحرص على إخفائه؟ ولماذا لحقه عباس الخوالقة بالقول «الدنيا لن تطير» وهو يتابع خطواته السريعة، بعيدًا عن الساحة الترابية؟

غاب عنه المكان الذي يقصده: هل يذهب إلى الشقة المُغلَقة في الشاطبي، أو إلى بيت العائلة بالقرب منه؟ أو يكتفي بالجلوس — منفردًا — في على كيفك، أو التريانون؟

منذ صحت — في داخله — فكرة الترشيح للانتخابات، قصر جلساته على قعدة العصر أمام دكان الحاج محمد صبرة، ودرس المغرب في أبو العباس، وربما تردَّد على قهوة الزردوني. غاب عن أماكنه القديمة في أثينيوس والتريانون وديليس وباستروديس ومونسنيور. تعرف فيها إلى صداقات ظلَّت قائمة، أو تفرَّقت. بدت — بتوالي الأيام — كالأصداء البعيدة، لا يذكر ملامحها الواضحة.

عبر الطريق إلى الناحية المقابلة.

خلَّف وراءه الحديقة وموقف الحانطور وقضبان الترام والسيارات العابرة. مال ناحية مبنى الغرفة التجارية، إلى شارع سعد زغلول. بدا كمَن يبحث عن شيء محدَّد، وإن لم يدرك طبيعته تمامًا. توقف أمام الدكاكين الصغيرة المتجاورة. دفعه المعروض في الفاترينات إلى دخول الدكان المجاور لكافيتريا البن البرازيلي. طال تأمُّله للملابس المُعلَّقة على الشماعات، أو على الموديلات الخشبية. أهمل النظرات المتسائلة، وهو يتنقل بين الممرات الضيِّقة، على جانبَيها فساتين وبلوزات وجونلات وبِدَل نسائية.

داخلته نشوة وهو يتحسَّس — بأصابع متردِّدة — قميص نوم من الحرير. انداحت مشاعر موارة لا يدري كنهها، ولا كيف يتصرف.

تنبَّه لقول البائع: هل تريد شيئًا محددًا؟

لحقته صورة جلسته مع سعيد النقيب وسط الرجال، أمام دكان محمد صبرة، يفضحه بالثياب النسائية في دولاب غرفة نومه. تراخت يده المدودة إلى جانبه، وعاد إلى الطريق.

تلفَّت — على الناصية — إلى صفية زغلول وامتداده إلى الكورنيش، وامتداد سعد زغلول إلى الميدان الواسع، يبين في زحام المدى مئذنة القائد إبراهيم.

لمح — من بُعد — ترام الرمل، يتوزَّع ركابه في المحطة النهائية.

أسرعت خطواته ليلحق — بصدره — استقبال راكبي الترامواياتِ التالية.

أنس المحبة

قال البوصيري:

«كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ، منها ما كان اقترحه عليَّ الصاحب زين العابدين يعقوب بن الزبير. ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني خِلْط فالج أبطل نصفي، ففكَّرتُ في عمل قصيدتي هذه البردة، فعملتها، واستشفعت بها إلى الله في أن يعافيني، وكرَّرتُ إنشادها، وبكيت ودعوت، وتوسَّلت ونمت، فرأيت النبي ﷺ، فمسح على وجعي بيده المباركة، وألقى عليَّ بردة، فانتبهت، ووجدت فيَّ نهضة، فقمت وخرجت من بيتي، ولم أكُن أعلمت بذلك أحدًا، فلقيني بعض الفقراء، فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحتَ بها رسول الله ﷺ، فقلت: أيُّها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها، وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تُنشَد بين يدَي رسول الله، فرأيت رسول الله يتمايل، وأعجبته، وألقى على مَن أنشدها بردة. فأعطيتُه إيَّاها، وذكر الفقير ذلك، وشاع المنام، إلى أن اتصل بالصاحب بهاء الدين بن حنا، فبعث إليَّ، وأخذها، وحلف ألَّا يسمعها إلَّا قائمًا حافيًا مكشوف الرأس، وكان يحب سماعها هو وأهل بيته، ثم إنه بعد ذلك أدرك سعد الدين الفار في الموقع رمد، أشرف منه على العمى، فرأى في المنام قائلًا يقول له: اذهب إلى الصاحب، وخذ البردة، واجعلها على عينَيك، فتعافى بإذن الله عز وجل. فأتى إليَّ الصاحب، وذكر منامه، فقال: ما أعرف عندي من أثر النبي ﷺ بُرْدة، ثم فكر ساعة وقال: لعل المراد قصيدة البردة التي للبوصيري. يا ياقوت، افتح الصندوق الذي فيه الآثار، وأخرج القصيدة

التي للبوصيري، وأُتِ بها، فأخذها سعد الدين، ووضعها على عينَيه، فعُوفي ... ومن ثَم سُمِّيَت البردة، والله أعلم.»

صحا، فوجد العتمة قد ملأت الحجرة.

تحسَّس المنبه على الكومودينو. دقَّق، فلم يستطِع تبيُّن الوقت.

فز متسائلًا: هل جاء الرجل؟

مضى ناحية الباب.

ضغط زر النور، فتوضَّحَت المرئيات. اكتشف أنه لم يبدِّل ملابسه. نام بالقميص والبنطلون والحذاء.

وجَّه الدعوة إلى إبراهيم سيف النصر لمجرد المجاملة. لم يتصوَّر أنه سيلبِّيها. انقطعت الزيارات عن البيت، منذ أصبح وحيدًا. حتى زيارات الأقارب من بركة غطاس، تباعدت، ثم انتهت.

شغله التفكير: كيف يستقبل الرجل؟ أين يجلسان؟ ماذا يقدم له؟ وهل يبدأ الكلام، أو ينتظر البداية التي يحددها إبراهيم سيف النصر؟ وماذا ستكون نظرة الرجل إلى الشقة؟ هل تبدو مرتبة، أو أنه سيلحظ ما غاب عن انتباهه؟ هل يؤكد على أنسية فتأتي في موعد الزيارة، وتزيل ارتباكه؟

اعتزم دعوته — بمجرَّد أن يدخل الشقة — للجلوس في الشرفة المُطلَّة على سيدي البوصيري. مدخل للتحدُّث عن صاحب المقام: قرأ عن ولي الله ما يُعينه على الكلام لساعات متواصلة. إذا جاءت سيرة السياسة، خاض بحارها وهو لا يقوى على مجرَّد العوم. يُنصت إلى أحاديث الرياضة والفن. حتى قضايا الدين يفضل الإنصات حين تناقش أمامه.

قال إبراهيم سيف النصر وهو يتأمل ما حوله: شقة واسعة.

ثم وهو يتجه إليه بنظرة متصعبة: تحيا بمفردك.

اغتصب ابتسامة: مَن كانوا يقيمون معي ... استقلوا بحياتهم.

– أصدقاء؟

– لا ... أُختان ... تزوجتا.

– عقبالك.

أطلق من أنفه ضحكة مبتورة: فات القطار.

وتهدَّج صوته: يبدو أني سأظل في هذا السجن حتى الموت.

شعر بالرذاذ يتناثر من فمه. مسح شفتَيه بظهر كفه.

أعاد سيف النصر الكلمة: الموت!

وقطب جبهته: كلمة قاسية!

– إنه الصديق المتوقَّع لَمن يحيا وحيدًا.

بعد أن أغلق الباب، مضى إلى داخل الشقة — بخطوات متباطئة — ووقف وحيدًا في الصالة. كانت كل لمباتها مضاءة.

لم يتصوَّر أن حياته مع أختَيه تنتهي بهذه السرعة، هذه البساطة.

الزواج؟ ماذا يعني؟ وماذا تعني البداية والاستمرار إن كانت هذه هي النهاية؟ وماذا تعني الحياة والموت؟ تسرَّبَت أعوام العمر. غافلته ومضت، كأنها سرقته، أو سرقت منه.

أخلى سيف النصر وجهه للدهشة: السجن ... الموت ... تُسمِّي هذه الشقة الواسعة سجنًا؟

وهو يضغط على الكلمات: ما دمت تحيا بمفردك، فأنت في سجن.

وتنهَّد: هذه تجربتي.

كان يرتدي بنطلونًا أزرق، وفانلة من الصوف سوداء بلا رقبة، وبأكمام طويلة، ويضع طربوشه على الترابيزة بجانبه. فإذا ارتداه، حرص أن يطمئن إلى اتساقه على رأسه، وأن يكون الزر في الخلف تمامًا. يمدُّ إصبعَين — بين حين وآخَر — إلى جيب البنطلون العلوي، الصغير، يخرج الساعة ذات الكاتينة، يتأكد من الوقت، ثم يُعيدها. وكان الرجل — مع لثغته الواضحة — يخطف الكلمات. أعطاه انتباهه. وربما اكتفى بالمعنى الكلِّي لما يقول، لا يتوقَّف عند كلمة أو عبارة.

هزَّ رأسه، وسرح في الفراغ: مفروض أن أبدأ في زيارة مقبرة العائلة في العامود.

هتف إبراهيم سيف النصر: يا رجل ... يأخذك الموت وأنت حي؟!

قال الكاشف: ما دمت قد فُصلت من الحياة، فإن عليَّ أن أُعنَى بالموت!

ثم بلهجة متصعبة: منذ أُحِلت إلى المعاش ... بدأ العد التنازلي!

قال سيف النصر: كيف تواجه الأمر لو طال العد؟

قال الكاشف: خيل الحكومة تواجه القتل في نهاية أيامها ... أما موظفو الحكومة فإنهم يكتفون بإحالتهم إلى المعاش.

استطرد سيف النصر: لأن الله يحرم قتل البشر.

– يعني لولا التحريم، فالمفروض أن نُقتل!

تدلَّت يداه المضمومتان: زرتك للمسامرة لا للتكلُّم في الموت.

ورسم على شفتَيه بسمة عابثة: هل قرأت الصحف؟
– لا ... لماذا؟
– صدر أمر عسكري بإلغاء البغاء.
جاراه في الابتسام: الزنا مكانه كوم بكير وليس في حي أولياء الله!

وجد في مكتبة البوصيري ما لم يكُن قرأه. أزمع أن يقضي الوقت — منذ صلاة الظهر إلى موعد الوظيفة — للعودة إلى البيت. المكتبة مبذولة لَمن يريد القراءة. مكتبة أبو العباس في حجرة مُغلَقة، المخطوطات وكتب التراث وُضع القفل عليها، فلا يتيسَّر إلَّا قراءة القرآن، وبعض كتب الأوراد.

كان يفضل الوضوء في البيت.

ينزل بكامل ثيابه إلى الجامع. يدخل من الباب الخلفي، المطل على شارع الأباصيري. يا دوب يعبُر الشارع الضيِّق من البيت إلى الباب المواجه. ربما أطال الوقفة أوسط الصحن المكشوف. يتأمل الميضأة السداسية الشكل من رخام المرمر الأبيض، ثبتت في جنباتها الحنفيات. يُعيد قراءة آيات القرآن، والبردة المنقوشة في الجدران الأربعة أعلى صحن الجامع. مكتوبة بخط فارسي جميل، موشًّى بالذهب، في إطارات مستطيلة، ذات إزارات زرقاء. عرف — لطول تأمُّله أبيات البردة — موضع كل بيت في مكانه. الخدوش التي لحقت به، وتساقط الطلاء.

أعادته سيرة البوصيري — بقوة — إلى أيام الوظيفة القريبة. هل بدل مضي مئات الأعوام بين الوظيفة، وما صارت إليه؟ هل كانت وظائف الدولة مطلوبة، مثلما هو الحال عليه في هذا الزمان؟

تمنى لو أُتيحَت له الحياة في رحاب الماضي الجميل، العهود التي مضت، وفراديس الأسلاف. القرن السابع الهجري، قرن اليقين الديني والصوفية والأقطاب: الشاذلي وأبو العباس والدسوقي والبدوي والصباغ والدريني وغيرهم. حتى الارتحال بالذاكرة عشقه، امتدادات التصوُّر إلى ما لا يدرك كنهه. دخل صحن الجامع. هدوء ما بعد صلاة الظهر. مسحت عيناه أعلى الجدران:

يا أكرم الرسل ما لي مَن ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العَمِمِ
ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تحلَّى باسم منتقمِ
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلمِ

الكواكب الدرية في مدح خير البرية.

لم يعرف أن البردة هو اسمها. حفظه الأول في المطولات. استمع إليها في ليالي المولد النبوي، وفي موالد البوصيري وأبو العباس وياقوت العرش، وتمايل بها الذاكرون في الحضرة. يفرغ المصلُّون من صلاة الجمعة. يبقى المريدون. يتقابلون جلوسًا في صفين، في يد كل مريد نسخة من البردة، مطبوعة بخط النسخ، ومشكولة بخط واضح. تعلو الأصوات بتلاوتها. الصوت خفيض في البداية. يعلو ويعلو. تردد صداه جدران الصحن الواسع. قرأ الأبيات التي حفظها. عرف أن ما حفظه هو البردة. تقرأ في الفجر، وفي المساء المتأخر، وتقرأ في كل حين. هي البرأة لأن تلاوتها تشفي من الأمراض، وتفرِّج الكروب. شرط قراءتها الطهارة والوضوء واستقبال القبلة. تعقد لقراءتها الحلقات في المساجد، وفي حفلات عقد القِران، وحفلات الزفاف، وفي الجنازات، تسير الجنازة في شارع الميدان إلى نهايته. تؤدي الصلاة على الميت في جامع الشيخ إبراهيم، ثم تمضي إلى مقابر العامود، يتقدَّمها المنشدون، تعلو أصواتهم بأجزاء من «دلائل الخيرات» وبردة البوصيري، تنشد في لحظات دفن الموتى. حتى العتاقات التي يقيمها أهل الموتى في ليلة الأربعين، كانت قراءة البردة هي التالية لتلاوة القرآن ودلائل الخيرات.

تخلى عن حرصه في الوضوء قبل أن يغادر البيت. استعاذ بالله من الشيطان، وبسمل وحوقل، وتوضَّأ بغير عجلة. لم يكُن الوقت وقت صلاة. ولم يدخل الجامع لهدف. بدَت الأمور في داخله غامضة، ومشوَّشة. يُعاني الوحدة، والحزن الذي لا يدري بواعثه. ما يشبه الهم يناوش النفس، خواء يمتد بالتآكل إلى داخل الصدر.

طاف حول المقام، وقرأ الفاتحة.

من تحدث للمرة الأولى عن الحدث الذي لم يشهد بحري — وربما الإسكندرية كلها — قبله، ولا بعده؟ إمام أبو العباس؟ إبراهيم سيف النصر؟ أدهم أبو حمد؟ من أضاف إلى الحدث، وحشاه بالتفصيلات التي ربما لم تحدث؟

لم يعُد حلمًا أو يشبهه. هو معجزة، كرامة، تضاف إلى الكثير الذي تحقق في حياة سلطان الإسكندرية، وبعد وفاته.

هل استغاث به السلطان — فعلًا — فلم يُجبه؟ هل طلب العون من ياقوت العرش ونصر الدين والأولياء في الميدان، فلم يغادروا أضرحتهم؟

رفض التصور أن ولي الله يرفض الغوث. هو الذي أمضى حياته محرومًا من العمل، أو منفيًّا في قرية نائية، يعاني الوظيفة الصغيرة، ومؤامرات الموظفين الكبار. يخشون

أذاه، يحرِّضونه أن يكون واحدًا منهم، يواجهون رفضه بالتآمُر، حتى يواجه — وأسرته — مصيرًا مؤلمًا. لم تكُن الحياة مركبًا يسهل الإبحار فيه. كانت تثقله المطالب، ونفقة العيال، وجذب خيط الرزق من ثقب إبرة. حتى حمارته الصغيرة، استعارها ناظر الشرقية، فلم يُعِدها. أيقن أنه يستطيع أن يحصل على ما يريد من موظفيه. لم يُدركه خوف، وكتب قصيدة على لسان الحمارة، تعترض على ما فعل الناظر. تابعت قراءاته سعيه الدءوب للالتحاق بوظيفة في الدولة، حتى أصبح مباشرًا في بلبيس. بعد أن دفع وظيفته ثمنًا لدعوته إلى تطهير الدواوين والإدارات، أعيد إلى الوظيفة، كاتبًا مباشرًا بالمحلة الكبرى، ولم تتغيَّر صورة الوظيفة عما كانت عليه في بلبيس. دواوين الدولة قضية البوصيري التي سبقت ما عداها من قضايا. همه مهاجمة الموظفين والولاة، كشف المفاسد والانحرافات. الأوابد.

قصائد لم ينظم مثلها شاعر. تعبير عما شعر به الناس في زمان حياته. أثمرت القصائد في أيام المنصور قلاوون، ثم جفت الثمار بعد وفاته. خمسة عشر سلطانًا، توالت عهودهم، والبوصيري يمارس الوظيفة، وينتقدها:

وما أخشى على أموال مصر سوى من معشر يتأولونا

حين يظهر الرسول في منام امرئ، فإنه يكون قد ظهر فعلًا، لا حلم ولا توهُّم. هو الرسول حقيقة، وما يقوله هو قول الرسول. «مَن رآني في المنام، فقد رآني حقًّا، فإن الشيطان لا يتمثَّل بي.» يصدق رواية التوسل بالقصيدة للشفاء من الشلل الذي أصاب جنب البوصيري الأيمن، هي أقرب إلى الصواب. وشُفي كذلك كثيرون ممَّن أوشكوا على العمى، فهي البردة لأنها باعث شفاء. يسلم نفسه لتصور النبي وهو يخلع على البوصيري بردته. ينشده القصيدة، فيخلع عليه البردة — في الحلم — مثلما فعل مع كعب بن زهير في اليقظة. كان الشلل قد هد الجسد المتعب، وأبطل نصفه. عجز عن التقلب في الفراش من جانب إلى آخَر. فكَّر في أن يكتب بردته. كتبها، واستشفع بها إلى الله أن يعافيه، وكرَّر إنشادها، وبكى، ودعا، وتوسَّل، ونام، فرأى الرسول في رؤيا كالحلم. أنشد البوصيري أبياتًا من البردة، وعندما بلغ القول: فمبلغ العلم فيه أنه بشر، توقف. هل أتم الرسول بعض أبيات القصيدة — بالفعل — في الرؤيا، حين لاحظ إخفاق الشاعر في إتمامها؟ فماذا عن قول القرآن: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾؟

قال الرسول: قُل يا إمام.

قال البوصيري: إني لم أُوفَّق للمصراع الثاني.

قال الرسول: قل يا إمام: وإنه خيرُ خلقِ الله كلهم.

ومسح وجه البوصيري بيده، وتفل في عينَيه، وخلع عليه بردته. صار — بما حدث — إمام الواصلين. رُقِّي إلى مرتبة لم يبلغها أحد من السادة الأولياء، أو ذوي الكرامات. رؤية الرسول لا يُدانيها شرف.

قام من نومه مُعافى البدن. لقيه صوفي — صباح اليوم التالي — فقال: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله!

تساءل بالدهشة: أيها؟

قال الرجل: التي أنشدتها في مرضك.

وأعاد الأبيات الأولى من البردة، وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تُنشَد بين يدَي رسول الله، ورأيت رسول الله يتمايل، وأعجبته، وألقى على مَن أنشدها بردة.

أعطى البوصيري البردة إلى الصوفي. مضى في الشوارع والأسواق كما لو لم يكُن المرض أقعده شهورًا.

ذاعت البردة في مصر والشام والمغرب والحجاز واليمن. هي العمدة في حلقات الذكر والمدائح النبوية والإنشاد. صارت البردة، والبرأة. أسرف الناس في تبجيلها، وإن استحقت ما هو أفضل من التبجيل.

أشفق على هؤلاء الذين يضيعون الوقت والجهد في الطواف على الأولياء الذين يشغى بهم الميدان، والشوارع القريبة. لو أنهم قصدوا مقام سيدي البوصيري، عرضوا شكاياتهم وأحوالهم، وما يطلبون، فإن ولي الله سيقدم لهم من فيض كراماته ومكاشفاته ومدده، ما يحقِّق المأمول. لم يكُن شيخ طريقة. هو صاحب البردة. بلغ بها مقام الغوثية الكبرى ... لكل بيت منها فائدة. بيت أمان من الفقر، وبيت أمان من الطاعون، وبيت يشفي من الصداع والأوجاع، ولها فوائدها في التمائم والأحجبة. تُعلق على الرءوس، وتحقِّق الكثير من أنواع البركة، وتلتمس الفرج من كل ضيق.

رفض التصور أن البوصيري يرفض إغاثة السلطان. حرص أن ينتقل إلى الإسكندرية، ليلزم أستاذه المرسي، يحضر مجالس شيخه، يفيد من علمه وفيوضه.

قال إبراهيم سيف النصر: ولدت في بحري ... ولا أتذكر أني الْتقيت بك!

كان يكره الجلوس في القهاوي. لم يجلس إلَّا على قهوة وادي النيل بميدان المنشية، مرَّتَين أو ثلاثًا، حين فاجأه بالزيارة — في الحقانية — أقارب من بركة غطاس. حتى

سكان البيت لم يكُن يدخل معهم في كلام. يُلقي السلام أو يرد عليه، ويمضي. لا يزور ولا يُزار. وإذا فتح الباب جعله مواربًا. وكان يحرص على النظر إلى الأرض، فلا تقع عيناه على مَن يفاجئه بالتحية. يعقب التحية كلام، بداية طريق لا يعرف نهايتها، وإن كان — في كل الأحوال — لا يحبها.

قال: أنا من بحري ... ولست منه!

قال له أبوه — يومًا — عن الأصول. تبدأ في المغرب، ثم قدمت بالحج إلى مصر، فاستقرت. هل ينتسب إلى أصول واحدة مع البوصيري محمد بن سعيد حماد، المكنَّى بشرف الدين؟

حدجه بنظرة متسائلة: كيف؟

– أحيا في الحي منذ مولدي ... لكنني لم أخرج إلَّا إلى العمل.

تذكر أن أباه كان يُرسله إلى شارع الميدان، منذ أيام قليلة. يمنحه تعريفة ليشتري بقالة البيت من الخواجة ميخاليدس، على ناصية وكالة الليمون. هل غافله الزمن، وسرقه دون أن يدري؟!

ثم وهو يمسح اللعاب من جانبي فمه: أنا في الحقانية منذ المحاكم المختلطة.

قال سيف النصر كالمتذكر: ليس بعيدًا نقل سلطة المختلطة إلى المحاكم الوطنية.

وتأمله بنظرة دهشة: أليس لك أصدقاء؟!

افترت شفتاه عن ابتسامة هادئة: تعرفت إليهم في الفترة الأخيرة!

طيور الخريف

قال إبراهيم سيف النصر: متى ينتهي هذا العنف؟ اغتيال النقراشي واغتيال حسن البنا ونسف بيت النحاس ومحاولة اغتيال النحاس ... وإبراهيم عبد الهادي — منذ تولى الوزارة — لا يتحرك إلَّا في حماية المدافع الرشاشة.

قال عبد الله الكاشف: العنف يجلب العنف!

ترامى صوت المهدي اللبان من مجلسه داخل القهوة: الإخوان هم الذين بدءوا.

كانت العتمة تزحف على الميدان. تتلاشى بقايا الشمس أعلى الجدران، وتذوي الظلال، وتتلاشى، فيما عدا التكوينات التي تصنعها اللمبات المضاءة تباعًا. وكانت طيور السمان قد ظهرت في سماء الإسكندرية، وفي شوارعها، قادمة من الشمال في هجرتها السنوية. وترامت من اتجاه البحر رائحة رطبة. وثمَّة أولاد يلعبون تحت فانوس الشارع، وقطان علا مواءهما بالتخويف أمام بقايا سمك، وباعة غزل البنات والنبق والحرنكش والدوم، وماسح أحذية يدق بالفرشاة على الصندوق: تمسح؟!

حرص أن يمارس الطقوس التي اعتادها، عند الذهاب إلى الحقانية كل صباح. يصحو في الموعد. يحلق ذقنه. يتناول كوبًا من الشاي بالحليب. يقرأ الجريدة التي يدسها له البائع من تحت الباب. ثم يرتدي ملابسه. يطيل التأمل في المرآة. ينزل السلم متباطئًا، يتمتم بدعاء الخروج من البيت. يُلقي السلام على مقام سيدي البوصيري، ويقرأ الفاتحة. يمضي في شارع الأباصيري إلى ميدان الخمس فوانيس. يطالعه الميدان باتساعه وهدوئه. بدلًا من المضي في شارع فرنسا إلى ميدان المنشية، يتجه ناحية قهوة المهدي اللبان. ربما الجرسون نجاتي — في تلك اللحظة — يرش الرصيف والجزء من الشارع أمام القهوة بخرطوم الماء، ويعيد ترتيب الكراسي والطاولات لصق الجدران والأبواب المغلقة. يختار الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه، أو كرسيًّا بالقرب منه. يُلقي السلام، ويجلس.

استقرَّ في داخله شعور بالألفة. يشارك فيما تشرق به الأحاديث وتغرب: السياسة، وأحوال الجو، والترقيات والدرجات والمرتب الأساسي وإعانة الغلاء والأجر الإضافي والبدلات والعلاوات والأقدمية والتنقُّلات والانتدابات، وخطب الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع علي تمراز، وارتفاع إيجارات الشقق بعد الحرب.

تأمل البحارة الأجانب الثلاثة الواقفين أمام القهوة، يتكلمون بلغة ليست الإنجليزية التي يجيدها الجالسون، ولا الفرنسية التي يعرفون الكثير من مفرداتها. تشاغلوا بتخمين جنسية البحارة. هم من الروس ... وهل تأذن الحكومة للروس بالنزول إلى الإسكندرية؟! بل هم من الألمان ... الألمان مهزومون ولا يحق لهم ارتداء الزي العسكري ... القامة الطويلة تشي بأنهم أمريكان.

قال إبراهيم سيف النصر: خيَّبهم الله جميعًا!

قال عبد الله الكاشف: ميزة هذا الحي أن كل شوارعه تأتي من البحر وتنتهي إليه ... أينما سرت لا بد أن ينتهي بك الطريق إلى البحر.

هزَّ أدهم أبو حمد رأسه، وهو مغمض العينَين، وظلَّ صامتًا.

مع أنه يحيا بجوار البحر، فإنه لم يتأثر به. لم يشغله النظر إليه، أو النزول فيه، أو السير على الكورنيش. وأحسَّ — أحيانًا — أنه يكرهه. وكان دائم التذكر لدوريات الجنود الإنجليز على طريق الكورنيش، وبطاريات الأضواء الكاشفة، والمراكب الراسية وسط الميناء الشرقية.

قال الشيخ أحمد أبو دومة: قررت بعون الله أن أضيف اللغة الإنجليزية إلى دروس كتَّاب ولي العهد.

قال فهمي الأشقر: ولي العهد أصبح ملكًا؟!

قال الشيخ أحمد: والتلاميذ ... أليسوا أولياء عهد لآبائهم؟

قال سيف النصر: وتسميه الاسكول.

قال الشيخ أحمد: هذا ليس كتَّابًا عاديًّا ... إن تلاميذه من أبناء الموظفين.

وعلا صوته بنبرة تفاخُر: لولا أنه — حتى الآن — يخلو من هيئة تدريس لاعتبرته روضة أطفال.

قال فهمي الأشقر: وأين العريف؟

– أي عريف؟

قال الأشقر في دهشته: ألا يوجد في الكتَّاب عريف يساعدك؟!

قال عبد الله الكاشف وهو يضع على شفتَيه ابتسامة مجاملة: الأولاد يأتون للتعلُّم على الشيخ أحمد.

قال إبراهيم سيف النصر: يعلِّمهم وهو نائم!

واتجه إلى الرجال: شيخنا يترك الأولاد وينام ... لا حفظ للقرآن ولا يحزنون!

صرخ الشيخ: هذه فرية!

واصل سيف النصر كلامه: لا يصحو الشيخ من نومه إلَّا إذا الْتَقطَ صوت أقدام على السلم ... يشخط في الأولاد فيرفعون أصواتهم.

قال أدهم أبو حمد في تأثر: السن له أحكام.

قال الشيخ أحمد أبو دومة محتجًّا: بلغة موظفي الحكومة ... فأنا لم أبلغ سن المعاش.

كان قد ادَّخر من المال ما يؤمِّن له شيخوخة غير مُتعِبة. وقيل إنه شارك كمال مصباح تاجر المنيفاتورة بشارع الميدان في رأس ماله ليضمن إيرادًا ثابتًا. يشقيه أن غالبية الرجال في عائلته إذا جاوزوا الشباب أصيبوا بارتخاء في أعصاب الساقين، تضمران، وتعجزان عن السير إلَّا بواسطة عصا، ثم تتحولان إلى ما يشبه العَصَوَين المتهدِّلَين، فيلزم الرجل الفراش، أو ينتقل على كرسي متحرِّك.

لم يفلح في المدرسة الأولية. أحب الذكر والموالد والمدائح والإنشاد الديني. أتقنَ أصول تجويد القرآن: المد والغَنَّ والإخفاء والإدغام، وأتقنَ المد الكَلِمي والحرفي، والمد الثقيل والخفيف. وضع أبوه أصابعه في الشق، فأهمله. عمل لفترة صيِّتًا في الموالد والمناسبات الدينية. ودار بتلاوة القرآن على البيوت. ثم شغل نفسه بقراءة التواشيح والابتهالات في نصر الدين. وتوسَّط له أمين عزب، فعمل مؤذِّنًا بياقوت العرش. عندما فتح الكتاب، زاوج — لفترة — بينه وبين رفع الأذان. ثم تفرَّغ للعمل في الكتاب.

الحجرة واسعة. تطل على شارع فرنسا. أرضها من البلاط. تجاورت فيها التخت. في الجانب دولاب، وضعت فيه المصاحف والأقلام والألواح والدوي. خلت من سبورة، فمهمة الشيخ تلقين الأولاد آيات القرآن. يتلو الآيات فيردِّدونها وراءه. وكان يعلمهم قواعد الوضوء والصلاة، وقواعد الإسلام الخمس، ويلقنهم بعض الحكم والأمثال وأبيات الشعر. يعلو صوته بطريقة غنائية، حتى لا ينساها الأولاد. بيده عصًا من الجريد، يهش بها ولا يضرب.

عُرف عنه أنه يتعمد ألَّا يضحك مع الأولاد، أو يباسطهم، فلا يأخذون عليه. يزول حاجز الرهبة بينهم وبينه. وكان يرفض استخدام الأولاد في حاجاته الشخصية، أو في

الخدمة في بيته القريب من الكتاب. يمضي خطوات في شارع فرنسا. ثم يميل إلى شارع سيدي خضر، المتقاطع مع شارع الميدان. بيوته متساندة، واطئة، به سكان كثيرون، لا يتكلم عن أي شقة يسكن، أم أنه يسكن — مع أسرته — في حجرة، أم أنه بلا أسرة. يقول الولد: أشيل عنك يا أستاذ. يحتضن ما يحمله بيدَيه، ويهز كتفَيه رافضًا. يتجه إلى داخل البيت. وكان يُظهر ضِيقه إذا مدَّ أحد الجالسين يده في جيبه ليدفع الحساب. ربما أقسم، ثم يهمل القسم، ويترك دفع الحساب لسواه. وكان أشد ما يعتز به أنه سافر إلى القاهرة لمشاهدة موكب المحمل، فاستطاع أن يتبرَّك بملامسته.

قال فهمي الأشقر: وهل ستعلم الأولاد الإنجليزية.

تفكر للحظة، ثم قال: لن تبخلوا عليَّ بإنجليزيتكم!

قال الكاشف في نبرة مجاملة: الكتاب خدمة عظيمة للقرآن الكريم.

وسرحت نظرته في المدى: سيدي البوصيري افتتح — لأعوام — كتَّابًا لتحفيظ القرآن.

تنبه إلى ضرورة الجلوس على القهوة بما يتحدث عنه: خبر في الراديو، حادثة في جريدة، معلومة في كتاب. يعتزم استعادة تعبير الْتَقطته أذناه. ربما رأى في الطريق ما يصلح لحكاية، وربما سجل ما استوقفه في ورقة صغيرة، يدسُّها في جيب الجاكتة العلوي. يشد انتباههم، طرف خيط ينسجون منه حوار القعدة.

قال الشيخ أبو دومة: نعم ... أيامه كانت كلها حفظًا لكتاب الله!

قال إبراهيم سيف النصر: البوصيري هو الموظف الوحيد الذي صار وليًّا ... ولو أنصفوا لجعلوا كل الموظفين أولياء.

قال الكاشف في لهجة معتذرة: لكن البوصيري الموظف فعل ما لم نستطعه نحن.

وأعاد كوب الشاي إلى موضعه على الطاولة، وأضاف: أتدري أنه طالب منذ ألف عام بقانون من أين لك هذا؟

وجاشت عواطفه: الرجل أمضى حياته الوظيفية بلسانه وشعره حتى فُصل من عمله.

وتنحنح ليزيل حشرجة في حلقه: كانت الوظيفة هي الصراط الذي مشى عليه سيدي البوصيري إلى الصوفية.

ونقر على الطاولة بإصبعه: سيدي أبو الدرداء ولي فاضل ... لكن الطوربيد الذي تلقاه بيده، وألقى به في البحر ... لم يكُن الكرامة الوحيدة التي أنقذت الإسكندرية من دمار محقق ... فعل البوصيري الشيء نفسه أكثر من مرة.

علت وجه سيف النصر ابتسامة واسعة: رفض أبو الدرداء أن ينتقل من مكانه، فوسَّعت البلدية الشارع من جانبَيه لكي يسير الترام … كرامة لا تقل عن كرامته في إنقاذ الإسكندرية من الطوربيد!

فوت الكاشف الملاحظة: من حق سيدي البوصيري أن يصبح وليًّا.

أفاد من قراءاته عن ولي الله.

منذ ولد في البهنسا حتى أسلم الروح — وهو قطب ذائع الصيت — في الإسكندرية: شرف الدين البوصيري، حاول أن يجمع بين نسبه إلى دلاص وبوصير، سمى نفسه الدلاصيري، لكن الناس درجوا على تسمية البوصيري: محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن أبي سرور بن حيان بن عبد الله بن ملاك الصنهاجي. امتداد الانتماء إلى فروع قبيلة صنهاجة العربية في بلاد المغرب. هل كان افتقاد العدل هو الدافع للتصوف؟ وهل كان تصوف الناس رفضًا للواقع أو فرارًا منه؟ لماذا رفض وظيفة محتسب القاهرة؟ لماذا أبى أن يتقلدها؟

يغمض عينيه. يتخيل نفسه مريدًا في مسجد الظاهر، يستمع إلى مدائح البوصيري النبوية. ينشغل — مثل الآخرين — بتدوينها وروايتها. المطولة النبوية، البردة وغيرها، فرار من واقع لا أمن فيه. يعاني الإحباط والعجز والقهر. بدت غريبة دعوته ترك جهاد المغول والصليبيين، ومواجهة عدو الداخل: الفساد والظلم. قال: إن إصلاح البلاد ينبغي أن يبدأ من الداخل. عورضت البردة عشرات المرات، وشُرحت مئات الشروح، وتُرجمت إلى ما يصعب تذكره من اللغات. لها من الكرامات ما يفوق الحصر، ما يجاوز تصديق العقل البشري. تُقرأ في الخلوات، وفي حلقات الذكر. شرط قراءتها الطهارة والوضوء واستقبال القبلة. اتخذها الناس تمائم تمنع، أو تشفي، من الأمراض، أو من أذى طوائف الجن. قيل إن الضريح كان متواضعًا، بُني بالحجر الجيري، وغُطي بالأعشاب. زار البوصيري — في المنام — محافظ الإسكندرية في عهد الوالي محمد سعيد. دلَّه على مكان قبره، وطلب منه بناية الجامع فوقه. اعتذر المحافظ إلَّا إذا وافق الوالي. زار البوصيري محمد سعيد في الليلة التالية، فشيد الجامع.

أضاف قراءة البردة إلى سور القرآن. صوت خافت منغَّم، يتوسل بهما حتى يخلو نومه من الأحلام المزعجة والكوابيس.

قال المهدي اللبان: مدد يا بوصيري.

ثم وهو يميل طربوشه إلى الوراء: لا تنسوا يا حضرات … الليلة سهرة أم كلثوم.

قال إبراهيم سيف النصر: ربما استمعت إليها في بيت صديق ... الصحبة حلوة!

قال عبد الله الكاشف: منذ بدأ السنباطي في التلحين لها ... أظهر أجمل ما في صوتها.

قال سيف النصر: لا أحد ينكر قيمة ألحان زكريا والقصبجي.

قال الكاشف: خلقت موسيقا السنباطي من أجلها.

غمز فهمي الأشقر بعينه: الأغنية الوحيدة التي أحبها: حمامة بيضا ومنين أجيبها ... طارت يا عيني عند صاحبها.

الراحة والألفة. هؤلاء الجالسون قريبون منه، وأصدقاؤه. لا يتصور أنه يحيا بدونهم. بدوا طيبين. أحاديثهم تنقله من جزر الوحدة إلى عوالم يتعرف إليها للمرة الأولى، وتدهشه.

قال إبراهيم سيف النصر: صفيرك لاسترجاع الحمام، يصلني في بيتي.

في حوالي الثامنة والأربعين. أهم ما يميزه عينان صغيرتان تنطقان بالطيبة، وملامح منبسطة. مفلفل الشعر. على جانب وجهه خيط أسود طولي. خمن عبد الله الكاشف أنه من تأثير عملية. له شارب نحيل، يميل إلى الصفرة. يضع في عرقة جاكتته قرنفلة حمراء. عندما يتكلم، تغلب عليه حماسته، ويكثر من الإشارات. يمسح جبهته بجانب يده، ثم ينتر العرق حقيقة أو وهمًا.

جعل فهمي الأشقر الحمام هوايته. يستهويه هديله. يجيد التفرقة بين أنواع الحمام اليماني والهزازي والشقلباظ وحمام الزاجل. بنى له بنية فوق سطح البيت المطل على شارع التتويج. يفتح عصر كل يوم — عقب عودته من عمله ببورصة مينا البصل — أبواب الكوات المغلقة. يقضي ساعة في ترتيب البنية، ينظفها، ويغيِّر ماءها، ويستبدل الحب إن اختلط بالوسخ. يقف على كتفيه، ورأسه، ويأكل من يده. ثم يتوزع في أسراب، تعلو البيوت والقباب والمآذن. ربما تمضي إلى السلسلة، أو قلعة قايتباي، أو حاجز الأمواج في مدخل الميناء. يصفر بنغمة تعرفها، فتعود. ربما عادت بحمائم من بنيات قريبة، وبعيدة. وكان دائم التردد على العطارين. يشتري أزواجًا من الحمام، أو يوفق بينها وبين ما عنده. يضيفها إلى البنية الخشبية ذات الكوات المستديرة.

لاحظ عبد الله الكاشف أنه يكثر من القسم بالطلاق تأكيدًا لكلامه، أو لانتزاع موافقة محدثه.

– أصارحكم بأني أنظر إلى الحمام وهو يحلق في الجو، فأحسده.

زاد في فضوله، همس إبراهيم سيف النصر وهو يتلفت حوله: أدهم أبو حمد ... حكم عليه الإنجليز بالإعدام.

أعاد تأمل الرجل الصامت في كرسيه. ممتلئ الجسم، ذو وجه أبيض مشرب بحمرة. مليء باللحم. تناثر النمش في جبهته وخديه. يرتدي نظارة طبية فوق عينيه، وإن بدَت في سواد إحداهما نقطة بيضاء. يميل بذقنه على صدره، ويغمض عينيه. يتصور من ملامحه المسترخية، الساكنة، أنه أغفى. تشرق الأحاديث وتغرب، فلا يبدو أنه يدري بما يجري من حوله، ثم يفاجئه — ألف الباقون التصرف فلا يفاجئهم — برأي أو تعقيب، ثم تميل ذقنه على صدره ثانية، ويغمض عينيه.

برقت عيناه باهتمام: الإعدام؟! ولكنه …

قال سيف النصر: ظل مختفيًا حتى وقعت اتفاقية الاستقلال.

قال الكاشف في حيرته: لماذا؟

– اتُّهم بقتل عسكري إنجليزي.

التفت — بتلقائية — ناحية أبو حمد: لا يبدو أنه يستطيع قتل دجاجة.

– كان من أنشط أفراد الجهاز السري للوفد.

ثم وهو يداري تأثره: أُصيبت عينه من تعذيب الإنجليز في معسكرات كوم الدكة … وزاد من تألمه أن الهروب ضيع عليه فرصة إتمام تعليمه … عين — بعد وساطات — في وظيفة صغيرة بديوان المحافظ، حتى أُحيل إلى المعاش.

كانت نظراته محايدة، ووجهه خلا من انفعال ما، لا حزن ولا غضب ولا فرحة. عينان باردتان، لا تعكسان أي تعبير. ربما لأنه قد جرَّب — في حياته — كل الانفعالات، فهي لا تبين في أقواله وتصرفاته.

قال له في نفسه: لماذا تحتفظ بهذا القناع الجامد؟ هل المناضل السياسي يجب أن يكون عابسًا؟

لم تكُن ملامحه تشي بالتأييد أو الرفض لاختلاف الرأي، وإن بدا مهموم النفس دائمًا، وذهنه مشغول بمشكلات لا يبوح بها. الجهامة التي تكسو وجهه لم تكُن تأذن له بأن يتعرف إلى أسرار حياته. إذا تحدث اتجهت كلماته إلى العموميات، لا تنحاز إلى وجهة نظر محددة، ولا تؤكدها. مرة وحيدة علا صوته بالغضب لدفاع إبراهيم سيف النصر عن موقف النحاس في حادثة ٤ فبراير. قال: لم يعُد الوفد وفدًا منذ خان سعد القضية!

وخالط صوته نبرة حزينة: أفندية الوفد أصبحوا باشوات أيامنا!

أدرك أنه يأخذ على الوفد ما يسخطه، وإن لم يحاول التعقيب بملاحظة أو برأي. هل هو التألم مما أصبح فيه، وما كان يتوقعه؟ لم يكن يحدثه بالبساطة التي يتجه بها

إلى الباقين. ثمة مشاعر غامضة تمور في داخله. ليست مشاعر نفور ولا كراهية، لكنها مغايرة لمشاعره نحو باقي جلساء القهوة. زادها حرص من الرجل في إضفاء الهيبة على ملامحه — أو أنها طبيعية — وتصرفاته، علا الحاجز بين الرجل وبينه، لا يأخذ منه ولا يعطي. قرر أن يتقبله على علاته، دون محاولة للفهم أو التفسير.

خمن من انتفاخ ركبتي البنطلون، أن الرجل يحرص على الصلاة. وكان يكثر من الضغط بإصبعه على النظارة فوق أنفه.

تحدث إبراهيم سيف النصر عن نجاح معهد الأحياء المائية في نقل زريعة البلطي إلى مياه العيون والمصارف بسيوة. عرفت الواحة — للمرة الأولى — صيد السمك.

قال بلهجة العارف: هذا ما فعله المعهد أيضًا في مريوط وإدكو والمنزلة وبحيرة قارون.

ثم بنبرة متشكية: نأمل في حكومة مستقرة تساعد المعهد على أداء رسالته.

قال المهدي اللبان: أية انتخابات قادمة — ما دامت نزيهة — لا بد أن تأتي بالوفد.

تململ أبو حمد في جلسته: الوفد؟ أي وفد؟ وفد سعد ومكرم والنحاس وسينوت حنا ... أو وفد سراج الدين وعبد اللطيف محمود وعبد الجواد حسين؟!

لاحظ عبد الله الكاشف أن زكي بشارة يستمع إلى المناقشات في صمت، كأنها لا تعنيه. سحنته جامدة، لا تبين عن انفعال بما ينصت إليه، أو يتكلم فيه. لا يتكلم إلا لضرورة. لم يكن أحد يتجه إليه بالحديث إلَّا إذا تدخل بحكاية تذكرها، أو بالرأي، أو بالتعقيب. يتقبل ما يستمع إليه بالصمت، دون أن يظهر انفعالًا. إذا فاجأه سؤال، أو ملاحظة تنتظر كلماته، تعثرت الكلمات بطيئة على شفتيه، بما يتصور أنه يحمل الإجابة.

كان يجلس في القهوة فترة العصر. يُلقي السلام — بعد أذان المغرب — ويمضي في شارع فرنسا. لا يدعو أحد الجالسين إلى مرافقته، ولا يتكلم عن المكان الذي يقصده، وإن روى إبراهيم سيف النصر أنه رآه — في ليالٍ كثيرة — يجلس في بارات شارع البيار، وشارع السبع بنات، وشارع البوستة. يسند كرسيه إلى الجدار، على الرصيف، وأمامه زجاجات بيرة، وطبق ممتلئ بقطع الجبنة التركي والفول السوداني والترمس والخيار المخلل والخس.

عندما اطمأن إلى إنصاته، مال على أذنه بصوت هامس: لن أنسى المشهد ... كنت عائدًا من مشوار بمحطة الرمل ... فوجئت بالرجل يستند إلى نخلة في طريق الكورنيش، ويفرغ ما بجوفه.

قال الكاشف في تأثر: ربما أثقل في الشرب.

سكنت ملامحه بالدهشة: وما يدفعه إلى هذا؟!

قال سيف النصر: الله أدرى بالظروف.

– وماذا فعلت معه؟

– لا شيء! صعدت معه إلى شقته، وفتحت الباب بنفسي ... لم أتركه حتى نام.

مصمص شفتيه في تأثر: المصادفة ألقت بك في طريقه ... فماذا عن الأيام القادمة؟

أعاد تأمله: الوجه القمحي الشاحب، والعينان من وراء النظارة الطبية في إطار ذهبي، دائرتان سوداوان صغيرتان، والشفتان المزمومتان على بسمة هازئة، تأكدت في أنصاف الدوائر الرقيقة على جانبي الفم. في يده خاتم يتوسطه فص من العقيق، وفي صدره دبوس ذهبي، واصفرار أصابعه يشي بأنه يكثر من التدخين. يرتدي بدلة كحلية، يطل منها قميص أبيض، وكرافتة منقوشة بزهور ملونة، صغيرة. نادرًا ما يضع الطربوش على رأسه، فهو يكتفي بالإمساك به.

قيل إنه بلا عمل محدَّد. يحيا من إرث تركه له أبوه في مديرية البحيرة. أطيان وعقارات وودائع في البنوك، وإن لم يكُن يعرف عنها إلا ما يبلغه به موظف عهد إليه بذلك كله. له شقة تطل على الميناء الشرقية، يحيا فيها بمفرده، ويسافر إلى أسرته في دمنهور كل أربعاء، ويعود صباح الأحد. زاره الجميع في شقته المطلة على الميناء الشرقية. وكان يسافر إلى دمنهور بمفرده. وروى فهمي الأشقر أنه التقى به في محطة مصر، فاكتفى بمصافحته، ومضى إلى القطار.

قال إبراهيم سيف النصر: هل قرأتم: روسيا أجرت تجربة على القنبلة الذرية.

قال فهمي الأشقر: مثل التي ألقيت على هيروشيما؟

قال عبد الله الكاشف: لعلها أخطر.

قال زكي بشارة: هل ننتظر حربًا ثالثة؟

قال الكاشف: ستكون آخر الحروب!

ارتعاشة الحلم المنطفئ

نفضت الداية يدها، وغادرت البيت مولولة: الحقوها بالحكيم!

جرى سيد بالقلق داخل الحجرة. هذه ثاني مرة ينبئ الجنين عن وجوده في بطنها، ثم يخذله. البخار يتصاعد من الأوعية المتناثرة في أركان الحجرة، يساعد على سرعة الوضع.

نقلها إلى مستشفى الملكة نازلي.

قال الطبيب: هذه حالة إجهاض.

وسأل سيد: متى بدأ الحمل؟

قال سيد: هذا شهرها الثالث.

ووشت ملامحه بالقلق: هذا ثاني سقط لها.

استطرد متذكرًا: أجرت في المرة الأولى عملية كحت وتوسيع لعنق الرحم.

أكدت الداية زمزم أنها لم تصادف — من قبل — ما رأته.

لما تأخر الحمل، نصحتها زمزم. ارتدت حول وسطها غزل صيد، لا تخلعه إذا استحمت، ووضعت حول وسطها قفلًا، حتى يحدث الحمل. ملأت زمزم فمها من كوب ماء، ونفخت على رأسها، وبين ثدييها، وقالت: اللهم إني أعيذها بك من الشيطان الرجيم. اللهم هب أنسية بنت أنور المدفع ما ترجوه من ذرية صالحة!

حين تأخر دم الحيض، عرفت أنها حامل. انداحت في أعماقها مشاعر ترفض الاطمئنان، وتتوجس من المجهول.

علا صوت زمزم بالنصيحة: احذري أكل الكرفس ... خطره أكيد في حدوث السقط!

وبسملت، وحوقلت، وأطلقت البخور في أرجاء الشقة: ابتعدي عن المرضى، فخطرهم أشد.

قالت أنسية في استكانة: أنا لا أترك البيت!

توحمت.

اشتهت نفسها للحم والعنب والرمان وطين إبليس. لم يحرمها سيد من كل ما اشتهته، وتوحمت عليه، حتى لا تنعكس آثاره على جسم المولود. حتى الفاكهة في غير أوانها، أوصى قاسم الغرياني وحمودة هلول ومحيي قبطان أن يأتوا بها من المدن التي تسافر البلانسات إلى سواحلها. وأتى لها بأطعمة تفيد الحمل: الزيتون والجبن والخيار والجرجير. وأهداه الغرياني نجم بحر يتفاءل به، يجلب الحظ، ويمنع الشر، ويحدث المأمول.

شدد عليها، فأكثرت من أكل الخيار المخلل والبلح والخوخ واللحوم البيضاء والكبد والطحال، وأكلت البيضة كلها. امتنعت عن شرب الشاي والقهوة، وأكثرت من شرب الحلبة، وأكل لحم الضاني والشمبري. نصيحة عم محجوب حارس حمام الأنفوشي، كي تنجب ذكرًا، ولدًا يحمل اسمه.

أعفت نفسها من واجبات البيت. قام سيد بأدائها عن طيب خاطر. منعها من الوقوف في المطبخ. لم تعد حتى تطهو له، ولنفسها. يدخل المطبخ، أو يعود بطعام من السوق. أراحها من غسل ثيابهما، وكنس الشقة، ومسحها، وترتيبها، فلا تنعي همًّا. حرص، فلا يسرد الحكايات الحزينة أمامها، أو الأخبار السيئة، أو قصص الولادات المتعسرة. شدَّد عليها، ومنعها من التردد على مناسبات العزاء، أو زيارة المقابر، أو ارتداء الألوان الحزينة. وكان يحرص على اعتدال مزاجها.

أشفق على قعدتها في البيت: الشباك أمام الشباك ... لماذا لا تدعين جاراتك لزيارتك؟

– لا أحب!

– لماذا؟

– أفضِّل أن أكون في حالي.

– الناس بالناس ... وقد تملِّين الوحدة.

شوحت بظهر يدها: اعتدت عليها.

تمنت — في الأيام الأولى — أن تزور وتُزار، لكن معايرة جارة الطابق الأولى صدَّت نفسها. أزمعت أن يظل الباب مغلقًا، لا تفتحه ولا توارِبه، فتصدمها المفاجأة بما تصورت أنهم لا يعرفونه، أو تناسوه.

علا مواء قطة من أسفل البيت. صرخت — داخل الحجرة — بأعلى ما عندها. فهم، دون أن يسأل عن سبب الصراخ. نزل، فطرد القطة.

حرصت على أن تظل اللمبة المعلقة على باب الشقة مضاءة، فلا يتسلل الشر إلى الداخل. علقت في صدرها ما شاء الله زرقاء. دلت رأس بصلة نيئة وحجابًا فوق سريرها، وحجابًا آخر فوق باب الشقة. وحرصت — كل صباح — على تبخير الشقة. تبدأ بحجرة النوم، وتنتهي بالصالة. يظل عود البخور داخل كوب على الترابيزة، حتى ينتهي.

قالت للطنطاوي بائع الفول: لا تلف الطعمية في هذه الورقة ... أريد صورة الطفل.

التمعت عينا الرجل بابتسامة. أدرك أنها تتوحم، تتطلع إلى طفل يشابه — في جماله — طفل الصورة.

قال: إذا جاء المولود يشبهك، فسيكون أجمل من الصورة ... أما إذا جاء شبيهًا لأبيه، فالعياذ بالله!

قالت وهي تداري فمها الضاحك بأصابعها: مَن قال؟ أبوه من أجمل الرجال!

العين لقاطة.

تعمدت أن تنظر إلى الأطفال والشبان ذوي السحن الجميلة. تلتقط عيناها مناظرهم، فيأتي الجنين على صورهم.

ابتسمت لتهدئة خطواتها أمام قهوة الزردوني. تطيل النظر — بجانب عينها — إلى قاسم الغرياني: قامته الطويلة، وشعره المتدلي على عنقه وقفاه، وعينيه اللوزتين الملتمعتين، وبشرته البيضاء، أكسبتها الشمس لونًا برونزيًّا، والشفة السفلى الممتلئة. والشارب النحيل المائل إلى الصفرة. سبقته إلى بيت سيدي داود ثلاث مرات، ثم لم تعُد تراه. شحبت صورته باقتصار علاقتها على سيد. وتذكرته في توحمها على الولد. تمنَّت أن يكون ولدها في مثل فحولته ووسامته.

ألقت زمزم بشيء في صدرها. تحرك، فصرخت.

قالت المرأة: لا تخافي ... هذه ضفدعة ذكر ... لكي يأتي المولود ذكرًا!

وشى انتفاخ صدرها بالحمل الذي تنتظره.

اعتادا التمشي على الكورنيش إلى السلسلة. تتشابك أيديهما، ويتكلمان، ويحلمان بالمستقبل.

سأل بالقلق: لماذا؟

قال الطبيب وهو يعينها على القيام: هل كنت تعانين متاعب نسائية قبل الزواج؟

في حوالي الخمسين. يرتدي بالطو أبيض. نحيل القامة، شعره الأبيض الكثيف يضفي عليه مهابة. أبرز ما فيه حاجبان أسودان كثيفان. يرتدي نظارة طبية مقعرة في إطار

ذهبي، تبدو عيناه من ورائها دائرتين سوداوين صغيرتين. وجهه ساكن الملامح، وعلى شفتيه بسمة ثابتة، تُخفي ما يدور في داخله.

هل يورطها، فتحدثه عن أحوالها القديمة؟

– هل تصعدين سلالم؟

قالت: أسكن في الطابق الأرضي.

حدجها بنظرة متأملة: هل تحملين في عملك أشياء ثقيلة؟

ومض في داخلها شعور بالتباهي: أنا ست بيت!

– هل تربين قططًا أو كلابًا؟

وهي تشير إلى سيد: لا ... أحيا مع زوجي وحده.

قال الطبيب: هل تأكلين بسطرمة أو بولوبيف أو لحومًا نيئة؟

لوت بوزها بما يعني التقزز: لا أحب اللحوم النيئة ... وآكل البسطرمة والبولوبيف أحيانًا.

قاطعها الطبيب: لا داعي! لعلك مصابة بطفيل التوكسوبلازما.

رمقه سيد بنظرة متسائلة: ماذا؟

قال الطبيب: المهم أنه يؤدي إلى الإجهاض أو قصور نمو الجنين في الرحم.

ثم بلهجة تأكيد: لذلك حدث الإجهاض.

قالت أنسية: هل إذا امتنعت عن أكل البسطرمة والبولوبيف يأتي الولد؟

قال الطبيب: هذا مجرد احتمال ... الجرثومة التي تؤدي إلى الإجهاض موجودة ... وأسبابها كثيرة!

وداخل صوته رنة إشفاق: لعله مجرد التهاب ... علاجه تناول قرص إسبرين كل مساء.

أضاف مستدركًا: أو كل صباح.

أعاد سيد القول من خلال حيرته: هذه ثاني مرة.

قال الطبيب وهو يشير إليهما بالانصراف: ما دمنا قد توصلنا إلى السبب ... فلا بد أن نتوصل إلى العلاج.

علقت على باب حجرة النوم خمسة وخميسة، ونعل حذاء.

قال سيد: ألم يكفك التعاليق على باب الشقة؟!

وهي تواجه الفراغ بأصابع مفتوحة: حتى ترد العكوسات أمام من يزورنا.

وغمغمت: أنا لا أطمئن إلى نفسي!

نذرت — إذا أنجبت — أن تتولى التسحير في شوارع بحري وحواريه وأزقته. تحمل الطبلة، وتدعو الناس إلى السحور.

ابتسم سيد لفكرة النذر: هل خلت الدنيا من الرجال؟

قالت: رأيت بنفسي مسحراتية من النساء.

أين رأت؟

تنبه لسخف السؤال، فابتلعه.

تصاريف التدابير

سعى إلى أقرب طاولة في القهوة، وجلس.

ماذا لو أنه طلب إجابة مهجة: هل هي تريده، فيعاود التقدم إليها، أو أن عباس الخوالقة سيزوجها لآخر، بعد طلاقها من فؤاد أبو شنب، فيكتم على الخبر ماجورًا، وينسى الأمر.

عانى، فتمنى الموت حين عرف بزواج مهجة من أبو شنب. ثم صادق اليأس. لم يعُد لديه أمل يربطه بها، ولم يعُد يذكر ما حدث إلا أن تعيده عبارة، وربما أعادته رؤيته — مصادفة — لعباس الخوالقة، أو محمود، في شوارع الحي. لحظات تتباعد، ثم تختفي. وعرف بطلاق مهجة من فؤاد أبو شنب، فلم تعُد حياته حياته. تبدَّل كل شيء. لم يغِب وجهها عنه في الأيام التالية: العينان البنيتان، الواسعتان، والشعر الأسود المنسدل على كتفيها، والوجه الباسم، والشفتان الرقيقتان كورقتي وردة. عادت مهجة إليه، وعاد إليها. تسدل شعرها من البلكونة. يتسلقه. تغلق عليهما باب الحجرة. تكلمه، ويتبادلان النظرات، ويتلامسان بالأيدي، ويتمشيان على الكورنيش، وفي حدائق النزهة وأنطونيادس والشلالات، ويصحو على عينيها، ويحاول النوم بعد أن يُلقي عليها السلام.

أظهر المعلم كشك ضيقه من إطلاق لحيته. لم يحلقها منذ فض الشيخ طه مسعود حفل الزفاف. طالت لحيته، فغطت عنقه. كستنائية اللون بما يناقض سواد شعر رأسه: هل مات أبوك أو أمك؟

قال هشام: واحد شايل ذقنه ...

قاطعه المعلم كشك بصوت زاعق: كلم أباك بأدب.

وتململ في جلسته: لم يبقَ إلَّا أن تتبع الشيخ حماد، أو تقف على باب أبو العباس!

رحب المعلم عباس الخوالقة بالزيارة. قدم شايًا وباردًا، وأفاض في الذكريات الجميلة. أكدت أمه أن مهجة وهشام مخطوبين منذ طفولتهما. لم تشِر إلى فسخ القران، ولا إلى زواج مهجة من فؤاد أبو شنب.

قال عباس الخوالقة: ربنا يعمل ما فيه الخير.

وظلت لهجته على ودِّها: أمهلونا لسؤال البنت.

أدرك أنها مطلقة، فأردف: يجب سؤال مهجة.

ضربت أمه على صدرها بعفوية: هل تأخذ موافقتها على ما كانت قد وافقت عليه من قبل؟

قال الخوالقة: الظروف تغيرت.

وفاجأ هشام بالسؤال: أنت تعود لخطبة مهجة وما زلت طالبًا؟

قال هشام: أنا في السنة النهائية بكلية الحقوق.

في سخرية: لم تعد الحقوق — فيما أعلم — كلية الوزراء.

– إذا وفقني الله صرت وكيلًا للنيابة ... أو اشتغلت بالمحاماة.

ارتفعت نبرة السخرية: ألتقي بالمحامين على باب المحكمة الكلية ... يعرضون الترافع مقابل خمسة وعشرين قرشًا.

تدخَّل المعلم كشك: جئنا لخطبة البنت، لا لسماع مثل هذا الكلام الفارغ.

قال عباس الخوالقة: من حقي أن أطمئن إلى مستقبل ابنتي.

قاطعه المعلم كشك: وليس من حقك أن تهين الناس في بيتك.

ونفخ المعلم وهو يتعثر في ظلمة شارع السيالة: رجل قليل الأدب.

ثم وهو يهز رأسه في دهشة: يريد الرجل المغفل إقناعي بأن لابنته كلمة في زواجها.

قال له حسنين الدمنهوري: ما لك؟

كان قد ارتدى أفرول محطة البنزين، وتهيأ للانصراف.

أشاح هشام بيده: لا شيء.

قال الدمنهوري: هل شاركت في المظاهرات؟

رفع عينًا متسائلة: أية مظاهرات؟

– معقول! الناس بالآلاف يهتفون ضد الملك.

– أين؟

– في كل مكان.

وضرب الهواء بقبضته: فاتك نصف عمرك.

قال هشام في صوت ممزق: فاتني عمري كله.

احتواه بحنو واضح: ما لك يا أستاذ هشام؟

– قلت لا شيء.

– أنت تحمل الدنيا بدلًا من الثور.

وهو يُظهر التألم: أنا قرفان ... هذا كل شيء!

اتجه بنظرة غير متأملة إلى شارع فرنسا.

كانت شمس الأصيل تعلو الجدران، والمارة قليلين، وشيخ يطل من نافذة لوكاندة دمياط المقابلة. ورائحة المخ واللسان والكوارع والممبار المحشي والكرشة والفشة تترامى من المسمط المجاور. وثمة عربة حانطور تغطت بالكبود، واهتزت عجلتاها بالسير على قطع البازلت الصغيرة.

تنبه على قول جنيدي بصوت يعلو عن الهمس: زار القهوة صباح اليوم أحد المرشحين.

ثم بصوت ملون النبرات: عرض مبلغًا لجعل القهوة مقرًّا انتخابيًّا.

قال من بين شروده: مَن هو؟

– لا أعرف ... في حوالي الخمسين، ويرتدي بدلة وطربوشًا.

– كل المرشحين يرتدون البدلة والطربوش.

استطرد في غضب: ما هو الحزب الذي يمثله؟

– لا أعرف!

جز على أسنانه: لا أعرف! لا أعرف! ما عملك في القهوة إذَن؟!

ورمقه بنظرة فاهمة: أثق أنك وراء مجيء هذا الرجل.

أشار جنيدي إلى نفسه: أنا؟!

مال بظهره إلى الوراء: هل تحسبني لا أعرف سبوبة المحكمة الشرعية؟!

كانت القهوة بالقرب من المحكمة الشرعية. وكان المترددون على المحكمة من المحامين وأصحاب الدعاوى وموظفي المحكمة، يلتقون في القهوة، للتحدث في القضايا، وعقد الاتفاقات والمحاسبة. لم يفُت هشام ولا نزلاء القهوة ترحيب جنيدي بالقادمين من المحكمة. يناديهم بأسمائهم، ويدخل معهم في مناقشات هامسة.

بدا غياب جنيدي جزءًا من حياة القهوة. أِلف اعتذاره بشراء حاجيات من السوق، أو أداء الصلاة في مسجد تربانة، أو لقاء صديق في شارع الميدان. ورأى جنيدي وهو يدخل

المحكمة الشرعية، ويخرج. دقائق الغياب في الداخل يسبقها، ويليها، همسات جنيدي وغرباء. المشاريب تبرير لجلوسهم. ربما انصرفوا دون أن يقربوا ما طلبوه. عرف بصلاته مع المحضرين وسكرتيري المحكمة ووكلاء المحامين. التقط من تعبيراته فهمه لقانون الأحوال الشرعية. وكان يخرج من جيبه نوتة صغيرة، يسجل فيها — لا بد — مواعيد المحامين، وأصحاب الدعاوى، ومواعيد الجلسات … ذوي الاهتمام بتعويض الرجال ما كان على جنيدي أن يفعله أوقات غيابه. جاوز الأمر لقمة العيش في المحكمة الشرعية إلى مناقشة جعل القهوة مقرًّا انتخابيًّا.

هل يطول الانتظار حتى يبيع جنيدي القهوة؟

قال جنيدي: يقصدني بعض المترددين على المحكمة، فأدلُّهم.

وشت الكلمات بسخرية: سأدعوك جنيدي المحامي.

في لهجة متذللة: أنا خادمك يا أستاذ هشام … ما أفعله خدمات للناس.

شعر هشام أن الموقف أبسط من أن يثير فيه كل هذا الغضب. يعلو بصوته، ويحرك شفتيه بالأسئلة والاتهامات، لكن النيران المشتعلة في داخله تنشد فوهة بركان تنطلق منها.

الانتخابات!

لم يكن يحب السياسة ولا الأحزاب، وحين وجد نفسه وسط مظاهرة غادرت باب الكلية، مال في أول شارع جانبي.

هبت نذر الرياح الساخنة منذ أسبوع.

قال المعلم كشك: تلقيت أكثر من عرض لجعل القهوة مقرًّا انتخابيًّا.

أظهر هشام دهشته: وأين يذهب ناس القهوة؟

قال المعلم: النشاط الانتخابي له مواعيده.

ثم وهو يهز إصبعه مذكرًا: عملنا في النهار يقتصر على القهوة.

دخل ثلاثة يرتدون البدل. جلسوا بالقرب من باب القهوة. خمن هشام أنهم قدموا من المحكمة الشرعية، القريبة. عاد جنيدي بطلباتهم الهامسة إليه. حدجه هشام بعينين غير متنبهتين، ثم علا صوته بالسؤال: ماذا قلت؟

قال جنيدي: يريدون جعل القهوة مقرًّا انتخابيًّا لمرشح الوفد.

– هل يتبعون المرشح الذي جاء في الصباح.

– لا!

قال عم محمد الطوشي: وناس القهوة؟!

قال أوسط الرجال الثلاثة: تعرف أن القهوة لوكاندة أيضًا.

وأضاف مذكرًا: لن نحتاج إلى القهوة فترة الليل.

ماذا جرى في الدنيا؟

إعلان موعد الانتخابات ضغطة زر تحرك بعدها الجميع: اللافتات، والسرادقات، والبرامج الانتخابية، واللقاء في البيوت والدكاكين، وجلسات القهاوي، والمشاركة في المناسبات.

قال هشام: والدي من محبي سعد باشا.

ومد يده للمصافحة: لكن القهوة مكان أكل عيش.

قال أوسط الرجال: نحن نحتاج مكانًا يلتقي فيه مرشح الوفد بناخبيه.

قال هشام: أهلا بكم ... وإن كانت الكلمة لأبي ... المعلم كشك!

آفاق قريبة

فاجأه بالزيارة.

كانت أنسية قد انصرفت، وتهيأ للنوم. حدثته — للمرة الأولى — فيما لم يكن يتصور أنها تبوح به: تأخر الإنجاب، والخوف من المستقبل. وقفت إلى جانب الطرقة المفضية إلى داخل الشقة. ترتدي جلابية من الكستور، وتحيط رأسها بمنديل أسود، وحافية القدمين.

قال مهوِّنًا: الأولاد عطية من الله ... قد يمنحها، وقد يمنعها.

قالت أنسية: سيد لا يعرف ذلك.

علا صوته بالدهشة: أليس مؤمنًا؟

قالت: مؤمن وموحد بالله ... لكنه يعتبرني مسئولة عن عدم الخلفة.

ومضت على شفتيه ابتسامة مترفقة: ربما العيب فيه هو.

أطل من عينيها تعب واضح: يرفض حتى إجراء التحليل.

– خطأ ... الخلفة طرفاها اثنان ... رجل وامرأة.

فطن إلى أنه ربما سار في طريق غير مأمونة، فسكت.

أجهشت في البكاء فجأة، بكاء منفعل عالٍ، تخالطه شهقات متصلة، تقطَّعت في نشيج مرتفع. لاحظ ارتعاشة نهديها تحت الجلابية، فأدار وجهه إلى الناحية الأخرى.

لم يدرِ كيف يتصرف: وحِّدي الله ... سيكون خيرًا بإذن الله.

أمسك رأسه لحظات، ثم رنا إليها بنظرة مشفقة: اجعلي سيد يقرأ على رأسك بردة البوصيري ... ربما تفيد.

– سيد يا دوب يفك الخط.

– لا نريد أكثر من هذا.

انتزع ورقة بيضاء من كراسة على بوفيه الصالة. كتب فيها كلمات، ودفعها إليها: هذه الكلمات من البردة ... أعرف أنها للجمع بين النافرين من الأحباب.

استطرد موضحًا: الأزواج طبعًا!

في لهفة: ليت الكلمات تكون حجابًا يأتي بالولد.

قهره الارتباك. لم يجد ما يقوله: هل أكلم سيد؟

قالت من بين شهقاتها: لو عرف أني أشكو ... قد يطلقني.

وهو يمسح — بتلقائية — جانبي فمه: لي طريقتي في الكلام معه.

أن تعاني مع سيد، يضايقها ويخاصمها ويثور عليها، أفضل من التلطم في البيوت، تسلم جسمها لَمن تختلط ملامحهم في رأسها. تخلي له أكثر من مساحة السرير، لا تسلم عينيها للنوم إلا إذا أحست باقتراب أنفاسه، والتصاق جسمه. حتى لو أدار وجهه إلى الناحية المقابلة، تعزت بسماع شخيره العالي، لا يضايقها. تحيا بالأمل منذ يعلق الجنين في الرحم. شحذت الطفل من الله تعالى. نذرت إن وُلد الجنين في موعده، وعاش، تشحذ له من المصلين على باب المرسي أو ياقوت العرش.

دفعت بيديها خطرًا غير مرئي: أنت لا تعرف سيد!

خالط صوته حنو واضح: زوجك طيب ... لكنك تصعِّبين الأمور.

رفضها لتدخله، وشي بالطريق المسدودة. اكتفى بهز الرأس، والغمغمة بكلمات لم يتدبرها، ولا قصد بها معنى محددًا. مجرد أن تنتهي اللحظات القاسية.

داخلته راحة لاتجاه أنسية إلى المطبخ. ظل في مكانه على الكرسي المجاور للبلكونة المطلة على سيدي البوصيري. أصاخ سمعه لصوت فتح باب الشقة وإغلاقه. ثم تابعها وهي تميل من البيت، في طريقها إلى السيالة.

مع أنه اطمأن إلى إبراهيم سيف النصر، وتكلم معه فيما لم يكُن يتصور أنه يبوح به. أنس إليه، فأقبل عليه. أفرغ له كل ما في نفسه. لم يفرق بين ما يمكن البوح به، وما هو سر. حتى دخائل بيته لم يكن يجد حرجًا في روايتها ... مع ذلك، فإنه كان يجد في جلساء القهوة معارف، شركاء وقت ينتهي بانقضائه، لا تمتد تأثيراته إلى حياته في البيت، ولا خارجه.

لاحظ أن الرجل يحرص على ارتداء البدلة والكرافتة، ويضع الطربوش على رأسه. لا يبدل حرصه طيلة العام. يمسك في الصيف مذبة يطرد بها الذباب، ويُخرج — من جيب الجاكتة — منديلًا، يمسح به العرق في وجهه وعنقه، ويدسه في الجيب ثانية.

استأذن — لامتلاء جسمه — في الجلوس على الكنبة المواجهة للطرقة.

– هذه موضوعات تهمك.

دفع له بمجلة لم يتبين اسمها.

قلب الغلاف وصفحات في الداخل: واضح أن موضوعاتها عن الشيخوخة.

قال أدهم أبو حمد: هذا صحيح.

داخله شعور لم يألفه من قبل. قلق غامض لا يدري مصدره، وإن حمل إليه شعورًا بأن زيارة الرجل تحمل ما ينغص عليه.

أضاف أدهم أبو حمد وهو يحك جبهته بظفر إبهامه: اشتريتها منذ أيام ... تصورت أنها قد تفيدك.

ولون صوته بنبرة إشفاق: أنت الآن في سن الشيخوخة.

كان الموت دائم الإلحاح في الفترة الأخيرة. لكن الكلمات ضايقته. كره الوجه الأبيض المستدير، المشرب بالحمرة والنمش، والعينين الساجيتين المطلتين من نظارة طبية، واللغد الذي يغطي الرقبة، فتبدو مدسوسة داخل الجسم، والأذنين الكبيرتين، يتوضح تجويفهما على جانبي الوجه.

ما معنى الشيخوخة؟

إنه ينام، ويصحو، ويأكل، ويقرأ، ويستمع إلى الراديو، ويخرج، ويجلس على القهوة، ويتمشى على الكورنيش. لا يشغله العمر، وما إذا كانت له طبيعة تستدعي المراجعة. خرج إلى المعاش في السن القانونية. لم يقرن انقطاعه عن العمل بمعنى آخر. الوحدة هي ما يضايقه. أحس بها قبل أن يبلغ المعاش بسنوات.

الشيخوخة؟ ما هي؟ وما صورته في أعين الناس؟ وكيف يجب أن ينظر إلى نفسه؟ هل يقرأ، ويتبع إرشادات، ويلتزم بما لم يكن مهيئًا له؟

اغتصب ضحكة: بلوغنا سن المعاش لا يعني الشيخوخة.

وهو يعالج ربطة الكرافتة: المكابرة مرفوضة ... علينا أن نحسن مواجهة ما تبقى من أيامنا.

وأطل في عينيه أسى: الشخص البدين يموت دائمًا قبل السبعين.

واحتواه بنظرة متأملة: قوامك يمنحك فرصة العيش إلى سن متقدمة ... أما أنا.

وأشار إلى جسمه: لا بد من أن ألتزم بريجيم حاد لإنقاص وزني.

خشي أن يكون الضيق ظهر عليه. حين أتبع نجاتي جرسون قهوة المهدي اللبان كلامه معه بالقول: يا بركة. بدت الكلمة ثقيلة الوقع. لم يعُد هو. لم يعُد مثل الأيام

الخوالي. لعمره الحالي أسماء وصفات تقال لَمن هم في سنه. مجرد أنه يحيا، يأكل، وينام، ويجلس، وينقل خطواته، وينتظر.

فرضت المجاملة تظاهره بالإنصات. تمنى لو أن الرجل أنهى كلامه، وانصرف. فكر أن يقاطعه، يحدثه فيما اعتاد تناوله. بحث عن طرف الخيط مرات، ثم أفلته.

قال ليجاوز الإطار الذي وضع فيه الرجل حديثهما: أخبرني صديقنا إبراهيم سيف النصر ببطولاتكم.

زوى ما بين حاجبيه: أية بطولات؟

قال الكاشف: مشاركتكم في أحداث ثورة ١٩١٩.

غلب على لهجته فتور: شقاوة شباب!

لاحظ عزوفه عن الحديث في نشاطه السياسي، مشاركته في الأجهزة السرية، ظروف اعتقاله والحكم عليه بالإعدام، وإفلاته من حبل المشنقة. منطقة يخفيها، لا يتكلم عنها، ولا يشير إليها. إذا شعر بتلميح للاقتراب منها، تقنفذ، ولزم الصمت، وإن تناثرت في عبارات مبتسرة، لمحات من حياته، ومضات في مساحات من السواد. الحياة في الخطر والخوف وتوقع المجهول: تنقل الإقامة بين أكثر من مكان، النوم بعينين نصف مغمضتين، الاندساس في الزحام ووسط الناس، الحذر من الأعين المتسائلة والمتوجسة، متابعة ما تنشره الصحف. وقائع كثيرة، كان الفضول يناوشه للتعرف إلى ملابساتها. لكن الجهامة التي كسا بها الرجل وجهه، تصده، وإن أعطى انتباهه لكلام إبراهيم سيف النصر عن الرجل، وللمعلومات الومضات التي يعقب بها الرجل على مناقشات القهوة.

قال في لهجة محرضة: مقاومتكم للإنجليز لا تسمى شقاوة شباب.

– خرج الإنجليز، فكتم أنفاسنا من هو شر منهم!

– ذلك لا يلغي أنك واجهت الإعدام؟!

– وهل يختلف الأمر فيما نحياه الآن؟

– طبعًا ... جهاد هذه الأيام يقتصر على المظاهرات وتحطيم الدكاكين والتراموايات.

بدا له الرجل كارهًا للناس، عزوفًا عن مخالطتهم، إلا بما يمليه عليه الشعور بالوحدة. فهم بواعث كرهه لحزب الوفد. ظلمته قياداته. أكلته لحمًا ورمته عظمًا، لكن الناس، حتى الذين يترددون على القهوة، لا يعرفون شيئًا من الماضي الذي رواه له عنه إبراهيم سيف النصر.

أصاخ السمع لأصوات بعيدة غير مرئية، بينما الرجل يواصل التحدث فيما لم يعطه انتباهه. داخله — للمرة الأولى — إحساس بالضيق، وربما الكره، من الرجل.

يتكلم ويتكلم. تعمَّد ألا يتنبه للتعبيرات والمعاني، وإن توضحت كلمات لم يحاول وصلها بالسياق، ولا تدبر دلالاتها. ضايقته، فأهملها. شوش عليها في داخله، فلم تصله.

أغمض عينيه كالمنصت. يقاوم الرغبة في إسكات الرجل، في دفعه خارج الباب، هو والمجلة، ونصائحه.

أخرج أدهم أبو حمد من جيب بنطلونه الصغير، الأمامي، ساعة فضية بكاتينة. تأملها، ثم أعادها.

– أستأذن!

تنبه للعبارة لما أعادها الرجل بصوت مرتفع. كان قد ألقى بنفسه في جزر بعيدة، لا تصلها حتى أصداء كلام الرجل.

فزَّ بتلقائية.

سبق إلى باب الشقة. استعصت الكلمات المودعة، فاكتفى بهز رأسه، واستعار بسمة ود.

ظلَّ على صمته، وهو يُغلق الباب.

قوت القلوب

«يا أله، يا نور، يا حق، يا مبين. أحيِ قلبي بنورك، وأقمني لشهودك، وعرِّفني الطريق إليك!»

من دعاء الشاذلي

«بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم صلِّ وسلم بجميع الشئون في الظهور والبطون، على من منه انشقت الأسرار الكامنة في ذاته العلية ظهورًا، وانفلقت الأنوار المنطوية في سماء صفاته السنية بدورًا، وفيه ارتقت الحقائق منه إليه، وتنزلت علوم آدم به فيه عليه، فأعجز كلًّا من الخلائق فهم أودع في السر فيه.»

من الوظيفة الشاذلية

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

من حزب الشاذلي

قال ابن عطاء الله:

«لو انقطعت عن الخلق، لفتح لك باب الأنس به تعالى، لأن الأولياء قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة، فسمعوا من الله وأنسوا به، فإن أردت أن تستخرج مرآة قلبك من الأكدار فارفض ما رفضوا، وهو الأنس بالخلق.»

«لا يفُتْك مجلس الحكمة، ولو كنت على معصية، فلا تقل ما الفائدة في سماع المجلس، ولا أقدر على ترك المعصية، بل على الرامي أن يرمي، فإن لم يأخذ اليوم يأخذ غدًا.»

يا لائمي في الهوى العُذْري معذرةً ... مني إليك ولو أنصفتَ لم تلُمِ
عدتك حالي لا سِرِّي بمستترٍ ... عن الوشاة ولا دائي بمُنْحسِمِ
محضتَني النصح لكن لستُ أسمعه ... إن المحب عن العذَّال في صممِ
إني اتَّهمت نصيحَ الشيب في عَذَلٍ ... والشيبُ أبعَدُ في نُصحٍ عن التُّهمِ

منذ غادر ياقوت العرش للمرة الأخيرة، لم يعد يتردد على جامع أستاذه السلطان، ولا جامع ابن عصره البوصيري. كان يتردد على حضرة الأحمدية الشاذلية في جامع سيدي عبد الرحمن بن هرمز بشارع رأس التين، ومسجد الحامدية الشاذلية في غيط العنب، وزاوية الطريقة في منطقة شماعة وفيكتوريا، يكتفي بالإنصات والمشاهدة. ثم ألف جلسة السماع في مسجد تربانة بشارع فرنسا. واجهته الطوبية تشي برائحة القدم. يختاره لأنه بلا مقام ولا ضريح، فلا يغضب تصرفه أقطاب الحي من أولياء الله. يصعد السلالم المتآكلة، يعبر الردهة الصغيرة إلى صحن المسجد، فرشت أرضيته بالحصير، وتدلت من سقفه الخشبي لمبات خافتة الضوء. شكل الجالسون ما يشبه الحلقة، تحدها أعمدة الرخام الثمانية. خلا المسجد إلا منهم. حتى مصلى الحريم الخشبي غرق في ظلمة شفيفة، ولا صوت سوى حركة الطريق، تتصاعد خلال النوافذ الأربعة المواربة.

التحاب في الله خير صحبة، والأنس بالمريدين والسالكين أنس بالله. لم يعن بالسؤال عن الطريقة التي ينتمي إليها المشاركون في السماع، وما إذا كانوا من الشاذلية، أم من الرفاعية، أم من الجيلانية، أم التيجانية، أم هم من أتباع السيد البدوي؟ لكل صوفي حد محدود، ومقام معلوم، ودرجة مفروضة، لا يستطيع أن يتجاوزها، أو يسبقه من يتبعه، وهو يقف قبل الحدود والمقامات والدرجات. لم تكن الصوفية هي الطريق التي تصور أن قدراته تؤهله للسير في طريقها، ولا الغاية التي يطمح للوصول إليها. غابت عنه مصطلحات الصوفية وأسرارها، ولم يلتقِ في طريقه بما يعرف أن الصوفية يلتقون به: القبض والبسط والهيبة والأنس والوجد والشوق والانزعاج والفناء والبقاء والغيبة والحضور وغيرها من التجارب الروحية. يثق في عدم القدرة على حضور القلب مع الحق، ولا مشاهدة فيوضات النور، ولا التعرف إلى الغائب من الأسرار والأنوار، ولا يتوقع

استقبال الواردات والإلهامات والخواطر. ما يشغله أن يدله القطب سيدي ياقوت العرش، أو سواه من الأقطاب العظام، على الموضع الذي يستقر فيه سيدي الأنفوشي. يسأله، فيجيب عليه، يتعرف منه إلى ما ينبغي فعله، تشف المرئيات عن ملامحها الواضحة. يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين، فيركن إلى الدفء والحب والملاذ والحنان والرحمة والحماية والوصال والتجدد والانبعاث والتحقق والاهتداء.

هذه الجلسة هي قوت القلوب، تشبعها، وتروي ظمأها. يلتزم السكون وعدم الحركة، وإن أعطى لسماع حودة بدران والرجال في دائرة حوله. هم الصحبة يبدءون بتلاوة الفاتحة، ثم تعلو الأصوات بالقول: لا إله إلا الله، ثلاث مرات، ومحمد رسول الله، مرة واحدة. وتتلى الآية: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. ثم تعلو الأصوات — ثانية — بالصلاة على النبي، وتُتلى الأحزاب والأوراد والأهازيج الصوفية ومدائح الرسول والتسابيح والأدعية والابتهالات. تصمت الأصوات وتهدأ. يحل السكون المشبع بالأصوات الباطنة، تعمل على هياج ما في قلبه من محبة، وما في نفسه من مجاهدة. يسحب الشيخ ذو اللحية البيضاء، والجلباب الأبيض، من المكتبة الخشبية الصغيرة قرب المنبر والمحراب، نسخًا من بردة البوصيري، يوزعها على حلقة الرجال. يبدأ حودة بدران في إنشاد البردة، خفيضًا منغمًا، ثم يعلو الشدو. التآلف في وحدة النطق ومقاطع الأصوات، وعلو النبرات وانخفاضها. لا حركات ولا اهتزازات عنيفة ولا رقصات. حتى الأصوات لا ترتفع أكثر مما ينبغي، فللمسجد حرمته. يخلص في فهم ومعرفة معاني الكلمات المسموعة، الأبيات التي أعطاها الإمام البوصيري ذوبت نفسه ويقينه، فكافأه الرسول بإلباسه بردته الطاهرة. يحرص على حضور القلب في السماع، وعلى عدم الغفلة، والانشغال بما يصرفه عن الأجواء العلوية في داخل نفسه، أو من الخارج. تتهيأ النفس لقبول الأنوار الإلهية والمواهب، ترفع الحجب التي اكتسبتها النفس. ينصت إلى الأبيات المحملة بالتحذير من هوى النفس:

فإن أمَّارَتي بالسُّوء ما اتعظتْ ... من جَهْلها بنذير الشَّيْبِ والهرمِ
ولا أعدَّت من الفعل الجميل قِرى ... ضَيْفٍ ألمَّ برَأسي غيرَ مُحْتَشمِ
لـوْ كُـنْـتُ أعْـلَـمُ أنِّـي مـا أوقـره ... كَتمتُ سِرًّا بدا لـي منـه بـالـكَتَمِ
مَن لـي بـرد جمـاحٍ من غوايـتـها ... إن الطَّعـام يُـقـوِّي شَـهْـوَةَ النَّـهِـمِ
والنفسُ كالطِّفل إن تُهْمِله شَبَّ على ... حُبِّ الرضاع وإن تفطمْهُ ينْفَطِمِ

لم يعُد يعدل عن هذا السماع، ولا يجد في يومه ما يشغله عنه. هو شرط في الإيمان يحرص عليه، يمارسه من أجل التطهر والصفاء، يحرص على أداء الصلاة في مسجد تربانة. ينتحي — عقب الصلاة — ركنًا في الصحن المستطيل، المطل على شارع فرنسا. تستلذ نفسه بالسماع، وتستروح إليه. يبدأ المنشدون في التحلق حول حودة بدران، يبدو بقفطانه البني الطويل، والعمامة ذات الطيات المتعددة، كأنه غير ذلك الذي يغني في أفراح عقد القران والزفاف والختان، وينشد القصائد والمواليا والأهازيج في الموالد وحلقات الذكر، ويرتِّل التواشيح والمدائح النبوية وتسابيح السحر. يشدو الصوت الدافئ، القوي، بآيات البردة، تمدح الرسول، وتعدد مناقبه. يحسن التقطيع والترجيع. تعيد الحلقة من حوله ترديدها:

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى ... إن اشتكت قدماه الضر من ورمِ
وشد من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحًا مترف الأدمِ
وراودته الجبال الشم من ذهبٍ ... عن نفسه فأراها أيَّما شمَمِ
وأكَّدَتْ زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصمِ
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة مَن ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدمِ
محمدٌ سيد الكونَين والثَّقَلَيـ ... ـن والفريقين من عُرْبٍ ومن عجمِ

يطوي الأيام المتوالية، يتقوى بالسماع، يجد فيه استجمامًا من تعب الوقت. يجعله زاده ورفيقه إذا خلا إلى نفسه، يشغله حتى عن الطعام. لا تتوق نفسه إليه. السماع الصافي يعادل طعام أيام بأكملها. وجد في السماع ما ينهض بنفسه إلى ما يحميها من سيطرة الهوى عليها، سبيلًا إلى الحق تعالى، وإلى تحصيل العلوم والمعرفة والفهم. يشعر بالنور الإلهي في البردة. الأبيات الحافلة بالإشارات والإيحاءات، تصفي نفسه من وساوس النفس وخنسها. يحاول التنبه إلى المعاني، وفهمها. القلب هو الذي يصغي، والنفس تتأمل، والسماع طريقه إلى التطهر والصفاء، والتشوق إلى الجنة، والرهبة من النار. يتملكه حال من الوجد تغيب آفاقه. ينتقل من شهود الخلق والأغيار إلى شهود نور الحق.

السماع الصافي أورد في نفسه غذاء الروح.

هو ليس من أولياء الله، وإن غبطهم على مطلق المعرفة بالأسماء والصفات الإلهية. اكتفى بعالم المشاهدة وتلبية الأمر والخضوع، فهو لا يسير في طريق الصوفية من الغيبة والحضور والصحو والسكر والوجد والهجوم والغلبات والفناء والبقاء. قصرت نفسه عن

مجرد التمني بأن تحصل على التجلي، وتتنور بالأنوار الإلهية. ذلك فضل من الله، يخص به أنبياءه ورسله وأولياءه.

لم تعد له إرادة. ترك أمر تصرفاته، حركاته وسكناته، لتوجيه أولياء الله. هو بشر، وللبشر طاقة احتمال. كلٌّ يُسِّر لِمَا خُلق له. لا مفاضلة ولا اختيار. حبس نفسه عن المخالطات. تخلى عن صحبة الخلائق، والاتصال بهم. فتح المعاملة مع الحق. عمر قلبه بذكر الله وحبه، وصفت نفسه من الشهوات والأهواء والأكدار، واجتنب التبعات. استعاض بعبادة الليل والنهار عن كل عادة. صار أكثر انعزالًا، وأشد رغبة في السكون، وإلى التأمل الهادئ. ينصرف الذهن عن كل الموجودات، يغيب حتى عن حواسه ونفسه، وتهيم روحه في نور العشق، ويلامس برد الرضا والتسليم.

مضى — بعد السماع — ناحية ميدان الخمس فوانيس، ومنه إلى شارع الأباصيري. أعطى فكري جرسون قهوة مخيمخ بقجة الثياب المتسخة. يعود بها — ثاني يوم — مغسولة. دس في يده مبلغًا. ما قدمه له الناس. لا يسأل، وإن قبل ما وهبه له الله بواسطة عباده. يذهب فكري بها إلى أم الأولاد. تنفق منها على احتياجات البيت، لا ذنب لها، ولا لأولادها فيما أعد له نفسه.

اخترق الزحام، جسده مع الخلق، وعقله وباطنه مع الله تعالى. قطع العلائق واليأس مما في أيدي الناس. تخلص من حظوظه وأوصاف بشريته، وغسل قلبه من العوارض، وحبس نفسه من الاحتراق بأمور الدنيا وزخرفها، وحرص إلا يملك شيئًا، فلا يملكه شيء. ينظر إلى الأمام، لا يلتفت، ولا يعنيه ما حوله، لا يلحظ حتى ما يجري له، أو عليه. أقبل بالهمة على ما أمره سيدي ياقوت العرش بالاتجاه ناحيته. لا يصطنع المجاهدات ولا الرياضات الشاقة. ألقى القياد إلى أولياء الله، وترك نفسه سلمًا بين أيديهم. لا يشقيه إقبال من أقبل، ولا إدبار من أدبر. ترك الإرادة والفعل، وترك الاعتراض فيما لا يلائم. يتطلع إلى تجليات الإشارات الربانية، يكتفي بالإشارات المقتضبة، لا يجاوزها إلى التصريح في لحظات — لا يتوقعها — تنداح في داخله، عاطفة صاخبة، تملأ نفسه، ويهتز لها قلبه. يشعر بميل إلى احتضان من حوله، يعرفهم، أو يلتقي بهم للمرة الأولى.

في ميدان الخمس فوانيس، بدَّل طريقه إلى شارع الأباصيري، بدلًا من رأس التين. دهمه شوق إلى المرأة والأولاد. تمتم — ليصرف الخاطر — بآيات وأدعية، لكن الأمواج علت فلم يقوَ على دفعها. اخترق ميدان أبو العباس إلى شارع سيدي كظمان. بدت له الشوارع

الضيقة، الملتوية، المتشابكة، مغايرة لما تركها عليه قبل عام. أطال الوقفة أمام البيت ذي الطابقين والنوافذ العالية، المغلقة.

ارتبك لصوت مفاجئ في مدخل البيت.

عاد إلى الشوارع الضيقة، المتشابكة.

الصورة خارج الإطار

سراي الحقانية.

عجب للشعور داخله بأنه غريب عن المكان. النخيل الملكي ذو اللون الأبيض والقامة المعتدلة في ميدان المنشية، والحدائق الواسعة، وتمثال محمد علي الكبير، ومبنى البورصة، والبحارة الأجانب تدلقهم السفن، فيتوزعون في الشوارع القريبة من الميناء، يتبعون أقدامهم إلى كوم بكير في اللبان، وإلى البارات المتناثرة في شارع البوستة، وشارع السبع بنات.

تردد على السراي خمسة وثلاثين عامًا. استند إلى الأعمدة الرخامية الهائلة. صعد على السلالم العالية، اعتاد الأسقف المنقوشة، والجدران، وصورة الفتاة المعصوبة العينين تحمل ميزانًا متساوي الكفتين. تنقل بين الحجرات. تعامل مع القضاة والمحامين والوكلاء والعرضحالجية وأصحاب الدعاوى والمتهمين. حتى السطح صعد إليه للبحث في ملفات القضايا القديمة، داخل حجرات الأرشيف.

لحقه — وأسعده — صوت الساعي عبد الفضيل: حمد الله على السلامة يا عبد الله أفندي.

كان يحرص على الوصول إلى سراي الحقانية في الثامنة صباحًا، أو قبلها. يطمئن — في الساعة — إلى سلامة التوقيت. إذا كانت متوقفة، أو غير مضبوطة، يكتب الوقت بالساعة والدقيقة إلى جانب التوقيع. ينتظر — بعد الظهر — حتى يوقع الجميع. لم يعد مرتبطًا بأي موعد، ولا أي عمل. ليس ثمة إلَّا الجدران، والصمت، وأصداء الذكريات. بوسعه أن يصحو في الوقت الذي يختاره، وينام دون أن يخشى تأثير السهر على موعد استيقاظه. يسبح — بمفرده — في بحر العزلة. فراغ عريض ممتد، بدايته منذ غادر السراي للمرة الأخيرة، ونهاية تبدو غائبة الملامح. هل يقضي بقية حياته وحيدًا داخل الشقة، في الحجرة

المطلة على المنور الداخلي، والمطبخ، ودورة المياه، والحمام؟ هل تمضي الحياة في طريقها الوحيدة؟ هل تقتصر على مجرد الأكل والنوم وانتظار مجهول لا يعرف ملامحه؟

المكاتب متجاورة ومتقابلة بامتداد الحجرة المستطيلة، فوقها أكداس عالية من الملفات وأعداد «الوقائع المصرية»، وفي الأركان دواليب خشبية، تفز منها الملفات.

نظر — بطرف عينه — إلى موقع مكتبه.

جلس عليه جمال عيسى نائب الإدارة. كتب بنفسه — في أسبوع العمل الأخير — خطاب ترقيته إلى منصب مدير الإدارة. هنأه، وتمنى له التوفيق ... لكن المشاعر الغامضة الغريبة المحيرة، انداحت في داخله.

مضى عليه في هذا المكان، في هذا المكتب، مع هؤلاء الموظفين، أو من سبقوه إلى المعاش، معظم سنوات عمره. لم يكن يختلط بجيرانه من سكان البيت، ولا أصحاب الدكاكين القريبة، لكنه كان يدخل مع الجالسين حوله وأمامه مناقشات متسعة الآفاق. الأوضاع السياسية والأحزاب والعلاوات والترقيات والأسعار وأحوال الجو وأخبار الجرائم.

ابتسم لرؤية عبد المحسن فوزي وهو يأكل ساندوتشًا على مكتبه. ظل — إلى قعوده في البيت — يصرُّ على تطبيق التعليمات: المكتب للعمل ... أما الأكل والشرب، فمكانهما البيت أو القهوة. اقتصرت إجازاته على وفاة أبويه، وزواج الأختين، واشتداد المرض عليه. واشتهر بحفظه للقوانين واللوائح والتعديلات والأوامر المصلحية. وكان يساعد زملاءه ويعطيهم خبرته. يستعيد من الذاكرة أرقام اللوائح والمنشورات والقوانين، ومضمونها.

لا يذكر أنه جلس على قهوة — فيما عدا مرات قليلة لمجالسة زائر — أو شارك في غير أحاديث العمل. يثق أن الموظف المسئول يبتعد عن القيل والقال ومواطن الشبهات. عرف عنه حبه للعزلة، فلا علاقة له بالجيران في البيت، أو أصحاب الدكاكين. ينزل الطريق ليذهب إلى الحقانية، ويعود منها. ربما اخترق شارع الميدان، يشتري احتياجات البيت. فإذا دخل الشقة لا يغادرها إلى صباح اليوم التالي، أو يخرج لقضاء ضرورة، كالحلاقة، أو التردد على الطبيب، أو صلاة الجمعة.

قال لبسيوني البتانوني، لما عرض فكرة إقامة حفل تكريم له: أفضل أن يهدى المبلغ إلى عبد الفضيل حتى يذكرني بالخير.

أطلق البتانوني ضحكة: عبد الفضيل لا يذكر أحدًا بالخير، حتى لو منحه مال قارون!

فاجأه عرض فراج توكل: كيف عرفت أن لي أختين لم يسبق لهما الزواج؟

قال توكل بلهجة باردة: أعرف!

كان فراج توكل قد قارب الستين. وكان ملفه قد انتقل من الدواليب إلى مكتبه. يعد لحساب مدة الخدمة، وخطاب الرفت.

نقل عرض الرجل إلى نبيلة، فلم ترد.

حدجها بنظرة متأملة، يخمن بها صمتها. فضل أن يرفق عرضه بالسؤال: هل أبلغه بالموافقة؟

حياه فوزي سمعان، من خلف الدوسيهات والمستندات والأوراق، في مكتبه آخر الحجرة الواسعة.

قال: قلبي عندك يا فوزي أفندي.

قال فوزي سمعان: يبدو أن التلميذ لم يستفد من أستاذه كما يجب.

قال في تواضع: أنا في خدمتك ... إذا أردت شيئًا فاطلبه ... حتى لو شرفتني في البيت!

أسند ملف الخدمة على صدره، وهو يهبط درجات سراي الحقانية.

هل هذا هو آخر عهده بالمكان؟

صداقة

بدا مختار زعبلة سعيدًا وهو يسبق البحار الأجنبي في شارع أبو الوجاهة.
قال بالفرنسية وهو يشير إلى طاولة على جانب باب قهوة البحر: تفضل!
غالب البحار تردده، وأعاد النظر فيما حوله، قبل أن يجلس.
قال مختار لنظرة حمودة هلول المتسائلة: صديق ... التقيت به خارج الميناء.
قال هلول في عجب: هل لأنك التقيت به في الشارع أصبح صديقًا؟
وهو يشيح بيده: إذا لم تكن صداقتي لرجال البحر ... فلمن تكون؟
قال قاسم الغرياني: إذا لم تكن قد تعبت من البحر، فإن البحر قد تعب منك.
والتمعت على شفتيه ابتسامة مترفقة: من حقك أن تستريح بعد إصابة ظهرك.
تململ مختار زعبلة: وهل شكوت إليك؟!
مصمص الغرياني شفتيه، ومضى.
قدم زعبلة للبحار كوبًا من الليمون المثلج. ارتشفه في تمهل، ونظراته تحاول التعرف إلى المكان.

في حوالي الثامنة والعشرين. يرتدي زي البحارة. لم يحلق ذقنه، أو حلقها بالمقص، فبدت متناثرة الشعر. وتخللت بياض بشرته شعيرات دموية دقيقة. وجهه هادئ الملامح، وعيناه زرقاوان، وأنفه طويل، مقوس. وثمة وشم لعصفور أزرق اللون أعلى صدغه. تدلت في عنقه سلسلة طويلة من الذهب، تنتهي بصليب صغير.

كان مختار سعيدًا وهو يترجم إلى الرجال في القهوة ما يرويه البحار. أتقن العديد من اللغات، وباع الممنوع واشتراه. يعلو صوته بأحداث الرحلات إلى الموانى، والمدن ذات الأسماء الغريبة. الأفق الذي بلا حدود، العالم الذي بلا نهاية.

التقى به على باب نمرة ١٠، يقايض البحارة وعمال السفن، على علب الطعام المحفوظ، والسجاير، وزجاجات الخمر. خمن من وقفة البحار المتلفتة، أنه يبحث عن مغامرة. لا يخطئ في التعرف إلى جنسية البحار. يعرف بلده من سحنته: هذا إنجليزي ... هذا أسترالي ... هذا هندي ... هذا من أفريقيا.

كان يطيل الوقوف على رصيف باب نمرة واحد. يتأمل الزرقة الممتدة في الأفق، والبواخر الضخمة والأرصفة المزدحمة بالمسافرين والعمال والبضائع. يلقي على نفسه السؤال: متى ترفع السلالم، ويسافر إلى الأماكن التي كلمه عنها ثروت زلابية، ورآها في خياله؟ هل يجوب البحار والجزر والموانى، ويرى المدن والميادين والشوارع والبنايات والناس المختلفي السحن واللغات؟ تثيره حكايات المدن التي لا يعرف منها غير الأسماء: شنغهاي، ليفربول، نابولي، بيريه، جزر الأوزور ... أسماء يلتقطها من ثروت. يستعيدها، ويحفظها. يضيف من خياله إلى ما يرويه ثروت لتبين ملامحها.

سأله البحار — بالفرنسية — عن قلب المدينة.

قال زعبلة: هل تريد مكانًا محددًا؟

قال البحار: أبدًا ... أريد أن أتعرف إلى المدينة.

– هل أنت بمفردك؟

لاحظ التماع الخوف في عيني البحار. قال في لهجة متوددة: كنت بحارًا مثلك ... لكن ظروفي تمنعني الآن من ركوب البحر.

وأشار بامتداد يده: هل تريد أن أعرفك بالمدينة؟

حدجه الرجل بنظرة متشككة، كمَن يحاول سبر مشاعره. تأمل حركة الطريق من حوله: الدكاكين والوكالات والقهاوي وعربات اليد المكدسة بالبضائع على الأرصفة ووسط الشارع. أسبتة الخضار، وأقفاص الفاكهة، وبراميل الزيتون، وقوالب الجبن التركي، والعطارة، وطاولات السمك، والذبائح المعلقة، والأقمشة، والنداءات، والصيحات، وروائح الشواء والعطن والمياه الراكدة والمخلفات.

أخرج عودًا من علبة الكبريت. تشاغل بتسليك أذنه، وتأمل الصملاخ العالق بعود الكبريت. قلب الأمر في ذهنه. لاك في فمه كلمات، لم ينطقها.

ثم تبع مختار.

دار به على بارات العطارين والسبع بنات والمنشية. باع له ساعة في دكان ساعاتي على ناصية وكالة الليمون. جلسا تحت تمثال سعد زغلول. تمشيا على شاطئ الكورنيش. تلذذ البحار بطعم الفول عند الطنطاوي.

حين بدا التعب على وجه البحار، عبر به الطريق إلى الجهة المقابلة. اخترقا ميدان أبو العباس، وحواري السيالة، إلى قهوة البحر في شارع أبو الوجاهة.

تحدث قاسم الغرياني عن امرأة مالطية تعرف إليها في كوم بكير. ظلت العلاقة بينهما، فزارته في بيته. لم يختنها أهلها كعادة النصارى، فكانت تعلن بالصراخ عن إحساسها باللذة.

قال محيي قبطان: مصيرك إلى جهنم.

أطلق شخرة: جميل ... حتى لا أشعر بوحشة.

ولجأ إلى التعبير بيديه: بنت المرة! كنت أضع يدي على فمها حتى لا يأتي الناس على صراخها.

ثم وهو يتجه نحو مختار بنظرة محرضة: اسأله يا مختار ... هل تختتن نساء النصارى؟

هم مختار أن ينقل السؤال إلى البحار المشغول بالحكي، والرد على الأسئلة، يلجأ إلى هزة الرأس، وتعبيرات اليدين، في إحداث لغة ترافق الكلمات التي يثق أن الرجال لا يفهمونها.

تبين مختار سخف الكلمات، فقال: زار كل بلاد الدنيا، فاسألوه عن رحلاته.

قال محيي قبطان ليبدِّل الكلام: أمضيت الليل بمفردي ... كان الأولاد في فوزي منيب.

قال حمودة هلول: ولماذا لم تذهب معهم؟

– ليس في الفرقة من فوزي منيب إلَّا اسمها.

قال خميس شعبان: قيل إن فرقة أحمد المسيري بدأت عروضها أمس.

قال محيي قبطان: كان الفن في تلك الفرق ... زمان ... أيام حامد مرسي وعقيلة راتب وسيد سليمان وحمادة العطار.

وقال في سخرية: رأيتها العام الماضي ... بدأت بأغنية «ياللي زرعتوا البرتقان»، وانتهت بها ... فيما عدا الأغنية، لا أذكر شيئًا!

لمح جابر عم محمد الطوشي قادمًا في أول الشارع، قامته القصيرة النحيلة، وخطواته السريعة. يسبقه النداء بلهجة شامية منغمة: هات للخواجة بسبوسة.

لم يعُد الطوشي يحمل صينية البسبوسة على رأسه. استأجر دكانًا في التقاء شارع إسماعيل صبري بشارع فرنسا. اطمأن إلى انتظام حالها، فتركها لشاب نوبي الأصل.

ثم كلف نجارًا في سوق الدقاقين، صنع له عربة، جزؤها العلوي زجاجي. أضاف إلى البسبوسة أنواعًا أخرى من الحلويات: كنافة ومعمولة وحلاوة مولد.

استأذن حمودة هلول: إلى أين؟

– سأخطف رجلي إلى الحلقة ... أوصيت على أقتين لحم ترسة.

قال محيي قبطان: ربما تفوتك صلاة الجمعة.

وربت كتفه: انتظر إلى الأحد ... تذبح الترسة فيه الآن مثل الجمعة.

– صباح الخير يا مختار.

التفت بألفة التعرف إلى الصوت: ثروت.

نسي ما حدث في انشغاله بالقهوة. غابت الأسئلة عن يسرية، هل ماتت ميتة ربها، أو أن ثروت قتلها؟

لم يعُد يقف على شاطئ الأنفوشي، يترقب الإشارة، يصعد السلمات التسعين. الأسماء الجميلة تومض في عينيه من رسائل ثروت. يعطي سمعه للحكايات عن البحار والموانى والمدن البعيدة. كنوز الحكايات تنسيه اللحظة التالية، يتمنى امتدادها واتساعها، فلا يشغله حتى ما أعدت له يسرية نفسها، يتوقع ما لا تتوقعه. هو — وحده — ما يطلبه، يعطيه انتباهه. لم يعد كذلك يلتقي بثروت. كأنه سافر بلا عودة، أو أنه عاد فأغلق عليه باب بيته. ذوت الحكايات، وإن تمناها، وتمنى السفر. يركب البحر فلا يظل في ترقب ما لا يتوقع رؤيته. غابت كل الملامح، فلم يعد إلا حب السفر والإبحار.

– قلت أسأل ما دمت لم تسأل أنت.

ثم وهو يحرك بإصبعيه ياقة الجلابية: عدت — مثلك — من أهل البر.

بحلقت عينا مختار: ألن تعود إلى البحر؟

أشاح بيده: تبت عن السفر.

– لماذا؟

– شبعت من البحر.

– هل البحر أكلة تملأ بطنك؟!

ابتسم للعبارة: تساوت عندي كل المدن ... وتعبت من المغامرة.

– ركوب البحر مغامرة؟!

وشى صوته بانفعال: لا أطيق البُعد عن بحري.

أنت لا تتوسل الحكايات عن عوالم لا تراها. أقعدتك الإصابة، فهل نسي ثروت زلابية — أو تناسى — زمالتكما في ركوب البحر، إلى ما لم تعُد تتذكره من الموانى والمدن؟!

همس في نفسه: يسرية؟

قال لها: ألم يلاحظ ثروت شيئًا؟

هزت كتفيها: لا يوجد ما يلاحظه.

باحت عيناه بكلمات، فقاطعته: لا تعد إلى هذا الكلام.

هل ماتت؟ هل قتلها؟ قراءة الرسائل جرَّتني إلى ما لم أكن أتصور أنه يحدث. احتلت يسرية رأسه، وإن لم يتحدث عنها، ولا تحدث ثروت.

قال ليجاوز الحرج: لا بد أن سحر عروس الآن.

– في الابتدائية.

– تقيم معك؟

– عند أمي في العصافرة.

بدا على ثروت أنه يغالب التأثر: أصارحك بأني كنت ألقي على نفسي السؤال — على البعد — في الفترة الأخيرة: هل سيقدر لي رؤية بحري مرة أخرى؟

وقت للأمل

فتحت النافذة، فاقتحمت الحجرة جلبة الطريق. صيحات الباعة، ونداءاتهم، وصوت الراديو في القهوة القريبة.

اعتمدت بكوعها على الإطار السفلي، وأسندت ذقنها على راحتها، وشردت في المدى الصاخب.

طالت أوقات تمددها في السرير. تسلم عينيها للنوم. تضع يديها مشتبكتين تحت رأسها. تحدق في السقف والجدران. تتأمل تكوينات تساقط الطلاء تسند خدها على راحتها، وتتجه — من الضلفتين المواربتين — إلى الطريق بعين سارحة. تشرد بذهنها فيما تتذكره، وما يفد إلى بالها. تختلط الخيوط. أشد ما يضايقها نظرات النساء المتصعبة، والمصمصات، والدعوات: ربنا يعوض عليكي، والتأكيد على الوصفات الناجحة.

أحست بما صعب عليها تبينه: غيرة، أو حرج، أو ضيق، عندما رأت سيد يلاعب طفلًا في الشارع. لم تعرف الطفل، ولا إن كان من أبناء الجيران. جاشت مشاعرها، وغالبت الدموع. اختنق صدرها بضيق، همها أن تتخلص منه. تشممت رائحة البركان المواربة داخلها، يريد أن يقذف بحممه.

لو أن الطفل ابنها؟ ابنهما؟

شدد عليها الطبيب، فلا تتحرك في السرير حتى تلد: إذا قمت سيسقط الجنين.

تمددت على ظهرها. عيناها تحدقان في الظلام، تشرد في آفاق غير مرئية. لا صوت إلا تنفُّسها. تبدو الحجرة زنزانة ضيقة، مصمتة. لو أن سيد أمامها. يدور بينهما كلام، مجرد أن يتبدد الصمت من حولها.

حاولت أن تتقي العين الحاسدة بتلاوة آيات القرآن والرقى والأدعية، ورش الملح والأرز والحمص. علقت في صدرها، وفوق السرير، تعويذات من العين والخرزة الزرقاء، وصنعت عقدًا من الودع.

قللت من مغادرة البيت. حتى شقة عبد الله الكاشف قللت التردد عليها. في بالها كلام الطبيب، وخشيت أن تلقاها — ولو مصادفة — امرأة فقدت وليدها، فيواجه طفلها المصير نفسه. لكنها أحكمت الملاءة حول جسمها، وتركت البيت في غبشة الفجر، قبل أن يصحو سيد. اخترقت شوارع السيالة إلى الحلقة. انتظرت — بالكوب — ذبح الترسة. دفعت بالدم الساخن في حلقها دفعة واحدة. كان الحاج محمد صبرة في درس المغرب، والدكان يخلو من الزبائن. استأذنت رضا صبي الحاج. خطت على الموسى سبع مرات وقت الصلاة.

حرصت فلا ترى جنازة تعبر الطريق. حتى الصوات، كانت تصم أذنيها، فلا تواصل سماعه.

زارت الكودية نظلة في بيتها.

قالت لها امرأة في مستشفى الملكة نازلي: لجأت فارغة البطن إلى نظلة بعد عقم أربع سنوات، فامتلأ بطني.

قالت الكودية: هل تثقين أن زوجك هو الذي يفعل معك؟

شهقت: ماذا؟

قالت نظلة دون أن تغادر هدوءها: قد تكون معاشرتك دون أن تدرين، لجان أو عفريت.

أضافت في تأكيد: هذا حدث مع كثيرات ... يعشقها الجن أو العفريت، فيربط زوجها، أو يضعف قدرته ... ويمارس هو الفعل!

وقالت كالمتنبهة: هل تذكرين الله في حالة التعري، وعند الاغتسال؟

أضافت للدهشة المتحيرة: عند التعري وقبل مباشرة زوجك، تبتعد الملائكة، وينشط الجان ... وإذا أسلمت المرأة نفسها للجان، فما أسهل أن يؤذوها بالسقط!

تحسست بطنها. قرأت تلاوات وأدعية، ووصفت لها — حتى يظل الجنين حيًّا إلى موعد ولادته — تحويجة من إكليل الملك، والبسباسة الهندي، وجوزة الطيب. ونصحتها بأن تكثر من أكل الكرفس والجرجير.

قالت وهي تشير إلى الباب: نفذي ما طلبته بدقة ... واصبري.

الصبر!

اعتادت سماع الكلمة حتى ملَّتْها. قد تصبر، فهل يقوى سيد على تحمل صبرها؟!

– حتى ناس البلد يسألون عن الخلفة.

غمغمت: ناس البلد؟!

التقى به في زحام شارع الميدان.

كان يحمل بضائع للكشك من وكالة الليمون. أعاد التأكد من الملامح. مالا إلى جانب الشارع. امتد الكلام عن الغيبة وكفر الدوار والأسماء التي بقيت ملامح أصحابها، أو غابت، أو نسي الأسماء.

رفع عينًا متسائلة: هل تزوجت؟

نظر إلى الأرض ليُداري الارتباك: الحمد لله.

– عندك أولاد؟

– لم يأذن الله.

– لو أن الحاج والحاجة أحياء ما أرضاهما ذلك.

فطن إلى ارتباكه، وتعثر الكلمات على شفتيه. قال: ربنا يطعمك!

لاحظ سيد ارتشافها ما لم يتبينه من كوب كبير. رشت الباقي حول السرير، قبل أن تصعد إليه، وتنتظر.

لفت حول جامع أبو العباس سبع لفات.

لحقها التعب، وخافت من إهمال أمر الطبيب، فاستراحت على السور الحجري، ثم واصلت السير.

نذرت — إن أطعمها الله بولد — بإحياء ليلة، توزع فيها الخبز والفول النابت، للسلطان وياقوت العرش والبوصيري ونصر الدين وأولياء الله. ونذرت للسلطان بذبح خروف. لم يشغلها تدبير ثمنه. همها أن يأتي الولد.

تأملت قلق سيد في جلسته على كنبة الصالة. ناوشته.

فاجأها بالقول: أريد ولدًا يا أنسية.

لطمها الارتباك: موت المولود معناه أني أستطيع الخلفة.

قال: متى؟ الأيام تمضي دون أن تحملي.

– كله بوقته.

– متى يأتي ذلك الوقت؟

في مرح متكلف: طوِّل بالك على السخن تاكله بارد.

زوى ما بين عينيه: ماذا تقصدين؟

– لا شيء ... أقصد أن طولة البال تبلغ الأمل.

علا صوته بالتذكر: لماذا لا تزورين سيدي ياقوت العرش؟

أضاف بنبرة محرضة: له في قلوب النساء مكانة عظيمة ... يحرصن على النذر له، ويسعين إلى مقامه.

قالت في تأثر: لن أنسى له فضل هذه الشقة.

همس كمَن يحدِّث نفسه: أنت الآن الشيخة أنسية ... لكنك شيخة مقطوع نذرها!

لمح بائع عقاقير وأعشاب طبية، يصف بضاعته أول السيالة.

اقترب منه بحيث لامست شفتاه أذن الرجل.

ثنى إليه الرجل نظرة متأملة: ما زلت صغيرًا.

ثم وهو يدفع إليه بلفافة صغيرة: هذا هو الصاروخ ... تقضي به ليالي الأنس.

أضاف دون أن يعنى بمقاطعة سيد: لن تطلب المرأة بعد اليوم ... هي التي ستطلبك!

أمسك سيد بساعد الرجل لإسكاته. قال وهو يتلفت حوله في ارتباك: الفحولة موجودة والحمد لله ... أريد ما يساعد على الخلفة.

وأزاح خصلة الشعر المتهدلة على جبهته: أريد وصفة للخصوبة لا لتقوية الباه.

نبش الرجل في الأعشاب التي لم يكُن قد أتم صفها: هذه تحويجة أعشاب ونباتات ... اشربها في ماء فاتر قبل النوم، تضمن حمل امرأتك في نفس الليلة.

الانتظار

قال أبو الحسن الشاذلي:

«احرص أن تصبح وتمسي مفوضًا مستسلمًا، لعله ينظر إليك، فيرحمك.»

«لا تختَر من أمرك شيئًا، واختر ألَّا تختار، وفِرَّ من ذلك المختار، ومن فرارك، ومن كل شيء إلى الله تعالى.»

«من آداب مجالسة الصديقين أن تفارق ما تعلم، لتظفر بالسر المكنون.»

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۞ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۞ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.

قرآن كريم

نادى في الصباح — من الشرفة — على بائع الصحف. طالبه بأن يصعد إليه بالأهرام كل صباح.

كان يهمل حلاقة ذقنه. يترك الشعر ينبت في شعره، فلما ظهرت الشعيرات البيضاء في الفودين وأسفل الذقن، حرص أن يحلق ذقنه كل صباح.

لاحظ وجهه في المرآة — للمرة الأولى — منذ فترة طويلة. انسحب الصلع إلى معظم رأسه، فيما عدا الفودين، تداخل سوادهما ببياض واضح، وتناثرت بقع سوداء على الصدغين، وأعلى الوجنتين. وثمة تجاعيد خفيفة حول العينين لم تكن موجودة من قبل، والشارب تهدل. قال إمام أبو العباس في خطبة الجمعة إن حياة المرء محطة قصيرة إلى الآخرة. هو يعرف ما في المحطة، لكنه لا يعرف ما في الآخرة. تغيب الملامح والوقائع إلا ما

قرأه في مكتبة البوصيري، وما يتناثر في خطبة الجمعة، وكلمات زملاء الحقانية من قبل، وأصدقاء قهوة المهدي اللبان منذ عرف طريقه إليها.

أقسى اللحظات حين يخلو إلى الطعام بمفرده. يملؤه الشعور بالوحدة، يضايقه ويشقيه. يأخذ ويعطي مع الصمت والفراغ. يدهمه ما يشبه الإحساس باليتم. يفتح النافذة — إذا كان الوقت رائقًا — فتترامى إليه جلبة الطريق، أو يعلو بصوت الراديو إذا كان الوقت شتاء. لم يعُد يجلس على المائدة. ربما تناول الغداء في المطبخ، أو في الشرفة المطلة على سيدي البوصيري. واكتشف — ذات مساء — انه أكل ساندوتش فول — قبل أن يصل إلى البيت — اشتراه من الطنطاوي بشارع التتويج.

أعدَّ كوبين من الشاي. وضعهما على الطاولة في الشرفة المطلة على سيدي البوصيري. احتسى كوبه، ثم تذكر أنه أعد الكوب الثاني لعلية. وكانت قد أقامت في الشقة — لأيام — قبل أشهر، ثم عادت إلى بيت زوجها.

غلبه الشعور بالوحدة، وهو يتناول طعامه — ذات ظهر — فبكى.

أغمض عينيه، وضغط على شفته السفلى، لما خطرت على ذهنه كلمات إبراهيم سيف النصر: من حقك أن تنعم بالأيام الباقية لك.

اغتصب ابتسامة متوترة: وهل الزواج نعمة؟!

قال سيف النصر: المال والبنون زينة الحياة الدنيا.

علا صوته بالدهشة: البنون؟! هل أنجب طفلًا يتيمًا؟!

– الأعمار بيد الله!

تناثر الرذاذ من بين شفتيه: ربنا عرفوه بالعقل!

لو كان قد تزوج في شبابه ... هل كانت حياته تبدَّلت؟

حين يدفع المفتاح في ثقب الباب. يتصور السكون الخامد في الداخل. السجن والزنزانة والحصار والعزلة، تسميات تفضي إلى معنى واحد، محدد. يمضه الشعور بالوحدة. أصوات أنفاس الوحدة تشاركه أنفاسه، تسري في نفسه بالوحشة والملل، والتفكير فيما لم يتصور — من قبل — أنه يفعله. يضبط مؤشر الراديو على محطة الشرق الأدنى، ثم يحرك مفتاح الصوت إلى نهايته.

همس لنفسه — ذات مساء — وهو يمضي من الصالة إلى حجرة النوم: هل أنتظر شيئًا؟

وعلا صوته كمَن يحادث شخصًا: هل هناك ما يستحق الانتظار؟

ضايقه ظلام الحجرة. انداحت فيها الوساوس والخيالات.

ضغط على زر الأباجورة. مسح ما حوله بنظرة سريعة: النافذة الموارِبة، ينفذ منها نسمات باردة، والمكتبة الصغيرة، وضعت فوقها الكتب دون ترتيب، والمكتب الخشبي الصغير الملاصق للجدار، ونتيجة الحائط التي أهمل نزع أوراقها منذ أشهر.

تكور على جنبه، وأغمض عينيه.

لم يعُد النوم يطيعه حين يضع رأسه على الوسادة. ذلك زمان انقضى. آخر عهده به وداعه لعلية وزوجها.

أضاف الاستيقاظ على أذان الفجر إلى عاداته. يتوضأ، ويصلي. يطيل الصلاة والدعوات. ربما يضع على كتفيه تلفيعة، ويمضي إلى جامع البوصيري.

اعتاد الطواف حول مقام السلطان عددًا وترًا من الدورات. ثلاثة، أو سبعة، أو تسعة، حتى يأخذه التعب. ربما طالت وقفته على باب ضريح البوصيري، ينتشي بملامسة الداخلين والخارجين، يتطلع إلى النقوش والمقرنصات وأبيات البردة. وكان يخلو إلى نفسه، إلى أختيه، إلى أهل ابتعد عنهم، وأصدقاء فارقوه. يناقشهم، يسألونه ويسألهم، يجيبونه على أسئلته ويرد على أسئلتهم، تتدافع في ذهنه مزق من الأحداث والكلمات، متداخلة ومتشابكة ومتقاطعة، لا يدري بواعث توضحها، ولا بواعث اختفائها. وكان يكلم أنسية، لا يختار كلامًا محددًا، مجرد أن يطرد — من داخله — الإحساس بالوحدة. أدرك أن الزمن قد انساب منه. مضى، فلم يشعر أنه قد صنع بحياته شيئًا. بدا له الموت — في لحظات الضيق — أمنية جميلة. لا قلق ولا توتر ولا توقع. بلغت الأعوام مرحلة لا بد أن يواجه فيها الموت. أحيل إلى المعاش، فهو قد أحيل إلى الانتظار. زائر مجهول من المستحيل أن يزيد من دوران العجلة، بدلًا من الدوران البطيء، قبل أن تتوقف تمامًا.

لم يعُد يجد في القهوة ما يغريه، أو يشدُّه إليه. ترصد له الملل. ملل من الأحاديث المتشابهة، كسخونة شمس الصيف الحارة، اللزجة. راعه الإحساس بالوحدة وهو بين أصدقاء القهوة. الأحاديث لا تنتهي. تشرق وتغرب. خيط البداية في حادثة قديمة، أو ذكرى شخصية، أو نبأ نشرته الصحف. يعلو سؤال، أو ملاحظة، أو تعقيب. تتلوه الأجوبة، متفقة ومختلفة. يتواصل نقاش الموضوع الواحد، أو تتلاحق الدوائر — بتحريك الماء — وتتسع. يشارك في المناقشات، يلقي سؤالًا، يرد على سؤال، توقظه عبارة من الجزيرة التي يحيا فيها بمفرده. كل الأشياء قديمة، ومعادة، ومكررة. حفظ المفردات والتعبيرات ونبرة الصوت. كتاب مل قراءته، يتصور وقع الحدث قبل أن تعلو الأصوات، وتتناثر الأسئلة والأجوبة والتوقعات. تتكرر، تصطدم بجدران قريبة. لا شيء يجتذبه أو يستولي

على اهتمامه. الأحاديث السياسية وحدها تعلو بالإيقاع، وتمضي في مسارب غير متوقعة. ضايقته ملاحظة سيف النصر عن الزبد الذي يتكوم في جانبي فمه وهو يتحدث. رماه بنظرة استياء، ثم جرى بالمنديل على شفتيه. وضايقه — حين دخل القهوة — توقف الرجال عن الكلام. خمَّن أنهم كانوا يتحدثون عنه. وكان يضايقه باعة اليانصيب واللب والسوداني والفستق وماسحو الأحذية والمتسولون.

كان يتنبه من نفسه، أو يعود — بسؤال — عن شروده من الأحاديث التي يتبادلونها. يرحل إلى جزر بعيدة، تختلط فيها الغيطان والسواقي وسراي الحقانية وسوق راتب والطريق الزراعي وصحن البوصيري وميدان المنشية والكتاب وليلة زفاف نبيلة وقهوة النجعاوي والكورنيش وتمثال الخديو إسماعيل وسوق الخيط والنافذة الخلفية.

يتنبه لاسمه.

يدرك أن السؤال قد وُجه إليه، ولا بد أن يشارك في الكلام. يستعيد السؤال، ويحاول الفصل بين مجلسه في القهوة والجزر البعيدة. ربما أدركه تلعثم في البداية، لكنه يطمئن إلى لم الخيوط، ويتحدث. يبدي رأيه، وإن كتم المخالفة. يسترجع لحظات الوحدة في الشقة، فيدرك أن صداقة القهوة أفضل — في كل الأحوال — من الحياة وحيدًا.

كان يفز من كرسيه، ويمضي إلى غير هدف، لا يتلفت ولا يتأمل. يواصل السير حتى يلحقه التعب. يستقل الأوتوبيس أو الترام إلى نهايته، ويعود. وربما نزل في ميدان المنشية، لا يستوقفه رقم الأوتوبيس. يجلس يمين النافذة، يتأمل الشوارع والبنايات والناس. يظل في كرسيه حتى يعود الأوتوبيس إلى المنشية.

لمح في زحام سوق راتب صلاح الزفزافي يفاصل في شروة جندوفلي. التقت العينان، وارتفعت يده لإلقاء التحية، لكن عيني الرجل خذلته بتصنع عدم رؤيته. غالب حرجه، وواصل السير.

هل نسيه الرجل؟

تعرف إليه في الحقانية. زاره، وأنهى له — دون معرفة — أوراقًا. عاود التردد مشفوعًا بالصداقة الطارئة، وجلس. ارتشف القهوة، وباح بدخائل في نفسه، ومشكلات، وفضفض بما يرويه الأصدقاء.

هل نسيه، أو أنه لم يعُد له مصلحة في معرفته؟!

توقف الترام في محطة البوصيري.

هم بالقيام، ثم عاد إلى مكانه: لماذا لا يظل في الترام حتى نهايته أمام مدرسة إبراهيم باشا، ثم يعود على قدميه؟ البيت ينقصه أشياء. وقد يلتقي بزملاء من الحقانية، أو أصدقاء شباب، يدعونه إلى القهاوي المتناثرة في شارع رأس التين.

فكر في رد الزيارة لجلساء القهوة. يزورهم في بيوتهم، مثلما زاروه في بيته. مع أن إبراهيم سيف النصر أشار إلى شقته في البيت المقابل لسيدي علي تمراز، فإنه لم يدعه لزيارته. أدهم أبو حمد زاره مرة واحدة. ضايقه بما تعمد الخوض فيه. خشي — إن زاره في غيبة مناقشات القهوة — أن يعود إلى الحديث القديم. تذكر زيارته، حين تحدث عن تلبُّك معوي عانى منه الصغير طيلة الليل، فلم ينَم.

قال إبراهيم سيف النصر مهونًا: هكذا الأطفال.

لاحظ سيف النصر نظرة الدهشة في عيني الكاشف. كتم كلماته حتى قال له وهما يفترقان — أول الليل — على ناصية ميدان الخمس فوانيس: أدهم أبو حمد تزوج على كبر، وخلف طفلًا وحيدًا منذ عامين.

لماذا خوَّفه من الشيخوخة إذَن؟!

اخترق الشوارع والحواري إلى طريق الكورنيش. قبالة سراي رأس التين، وحدوة النجيل الهائلة الممتدة أمامها.

تسلل إلى نفسه شعور مقبض، وهو يرى قرص الشمس يغطس في الأفق. تحل الظلمة بعد قليل. تذوي الظلال وتتلاشى. تصطبغ المرئيات برمادية. يبدو الناس أشباحًا التفوا في أردية داكنة. يقذف البحر بهواء الليل المشبع برائحة الطحالب والأعشاب.

تلفت حوله، ثم أمسك حصاة ملقاة على سور الكورنيش. ألقى بها في المياه بآخر ما عنده. أحدثت دائرة صغيرة، اتسعت حتى اختفت.

عاود التلفت. ثم التقط حصاة ثانية.

مشارق الفتح

قال أبو الحسن الشاذلي:

«وكل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك فيه شيء. إنما هو مختار الله لك، واسمع وأطع. وهذا محل الفقه الرباني والعلم الإلهامي. وهو أرض لتنزل علم الحقيقة المأخوذة عن الله تعالى لمن استوى.»

قال أبو العباس المرسي:

«الزم، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيًا في المذهبين: يريد أهل الشريعة أهل العلم الظاهر، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن.»

قال أبو العباس للحسن الشاذلي:

«يا أبا الحسن، لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيًا إلى الله.»

أطلق عم شحاتة فراش مدرسة البوصيري صيحة فزع، لما رأى جابر برغوت مستندًا إلى الضريح. أحاط ركبتيه المضمومتين بذراعيه، ووضع العصا على كتفه.

لم يبدُ أنه فوجئ بدخول عم شحاتة، ولا تحرك، لدوران المفتاح في الباب الخارجي.

تخلى جابر برغوت عن ركبتيه المضمومتين. سحب العصا من كتفه. ألقاها في الهواء، وتلقفها وهو ينتصب: لا تخف!

ثم وهو يفرج ما بين ساقيه، ويسند قبضته على العصا أمامه: أنا خادم سيدي الأنفوشي.

أدى صلاة الفجر في أبو العباس. انتظر حتى انصرف آخر المصلين، ثم خرج إلى شارع أبو العباس، ومنه إلى شارع الكناني.

مدرسة البوصيري الأولية تحتل امتداد شارع الكناني، على ناصيتي شارع أبو العباس وشارع الموازيني. الحوش الواسع تحيط به الفصول، وفي المواجهة ردهة مستطيلة خالية، إلا من مقام ذي كسوة خضراء، يحيط به سور من الحديد المزخرف. الطابق العلوي له شرفة بامتداده من الخشب المخروط. تتجاور الفصول في ردهته الطويلة الضيقة، تنتهي بباب مرتفع يفضي إلى حجرة الناظر، وحجرة المدرسين، والبوفيه، والسلم الخلفي.

نقر على الباب، فانفتح أمامه.

نادى بما لا يسبب الإزعاج في لحظات ما قبل ظهور الصبح. أعاد النداء دون إجابة. اتجه إلى المقام الأخضر الساكن. صفت على الأرض — بالقرب منه — كتب قديمة وطاولة تنس طاولة أسندت إلى الجدار وكراسي محطمة.

خلع المداس، وجلس مستندًا إلى الحائط. من ورائه حجرة لها بابان، خلت إلَّا من بضعة مقاعد متناثرة، وأمامه الحوش الساكن، تحيط به الجدران العالية، والبيوت التي لا يبين إلَّا أسطحها.

هجر الخدمة في جامع ياقوت العرش، وحمل قربة ماء. يطوف بها شوارع الحي. يروي منها العطشى ظمأهم. قبل الصدقة، وإن لم يطلبها. رفع همته عن الخلق، فلا يذل لهم في شأن رزق يومه. سبقت قسمته وجوده، وما قدر له أن يصل إلى فمه، فلا بد أن يصل. أزمع أن يأخذ نفسه بالمجاهدة، لا يأذن لأحد، ولا لشيء، بمنعه من السير والترقي. إذا كان الأقطاب قد أفلحوا في الارتقاء إلى عالم الحضرة الإلهية، فإنه لن يستطيع الصعود سلمة، ما لم يتعرَّف إلى الرموز والأسرار والإشارات العميقة. يعرض عن ملاحظات الناس ومؤاخذاتهم. أقبل على ما أمره به سيدي ياقوت العرش. السعي إلى لقاء سيدي الأنفوشي، والاستماع إلى نصائحه، والإفادة من بحر علمه. عفا الله عما سلف. توحش عن الخلق، وغسل قلبه من الدنيا. انتقل من دوام الخدمة إلى المحبة والمعرفة والتيقن. اجتذبه ما لا يقوى على فهمه إلى الحضرة الربانية: لذة الطاعة، وحلاوة المناجاة، واطمئنان الروح إلى المراقبة والمشاهدة. ائتنس بالله، واهتدى إليه، وفني فيه، وذاق حلاوته. وهب نفسه للمحبة العلوية، والإخلاص في الطاعة، وتلقي أوامر الأولياء الصالحين، والتمكن من المراقبة والمشاهدة والمعرفة. يأتي النور والأمر من الله. يهتدي الإنس والملائكة والجان للطاعة في القدرة، وإنجاز الإرادة. ويمتلئ القلب بنور الإيمان والتقوى، نور إلهي يقذفه الله في

قلبه، وترتقي النفس إلى معارج التوحيد والقرب والرضا، وتدخل رحاب الوصل والاتصال بالذات العلية. تنداح الفيوضات الربانية في لحظة يترقبها، تجلو الأنوار مرآة نفسه، تهبه السر والمكاشفة، القدرة على المشاهدة وإدراك الحقائق.

طرح من ورائه القلق والتوتر والتساؤل والمراجعة. تهيأ لاستقبال معارج الحب والقربى، ومشاهدة أنوار الكشف، والتعامل مع الملائكة في الساحات المطهرة لأولياء الله الصالحين. يترقب أمر الله، مدد الأنوار والتوجيهات العالية عن طريق الإلهام والإدراك الغيبي. ما تحدثه به نفسه، وترشده إلى فعله. تكثيف النور الإلهي في داخله، يوجهه إلى حيث يجب، ويهبه الحكمة فيما يفعل. إذا كان أولياء الله قد زكوا نفسه في حضرة النور، ويسروا له سبيل التقوى، وطريق السعي للعمل الصالح، فإنه أحرق جميع الصفات والحاجات، وأغرق نفسه في بحر الإشارات الإلهية، وأهمل التشوف إلى مطالعة الأسرار.

لم يحاول مخاطبة الساكن في الضريح، ولا توقع أن يخاطبه من الداخل أحد، وإن اطمأن إلى أن سيدي الأنفوشي هو صاحب الضريح. اليأس الذي حل على نفسه في قلعة قايتباي، سيبدِّله الله.

هل كان يجد باب المدرسة مفتوحًا، لولا أن ولي الله أراد ذلك؟

الطريق واضحة، لا يضل عنها إلا من فقد بصره. انشغل عن حظوظ الدنيا وحظوظ الآخرة. أغلق أبواب النعمة والعز والراحة والنوم والغنى والأمل، وفتح أبواب الشدة والذل والجهد والسهر والفقر والخوف. وجد نفسه سائرًا في الدروب التي اقتصرت على الصوفية: المحاسبة، والخلوة، والرياضة، والتجلي، واعتزال الناس، واحتمال الأذى، والسهر، والزهد، والصبر. لا يريد لنفسه إلا ما يريده الله له، وما يوصيه به أولياء الله. تشرق عليه أنوار التوجه. يسكن، ويطمئن، ويمضي في الطريق التي دله عليها سيدي ياقوت العرش.

سيدي الأنفوشي هو الواسطة بينه وبين الأقطاب العارفين، أصحاب الأنفاس الصادقة، والكرامات، والمكاشفات التي بلا حصر، بالغي مراتب القرب، والمنهل العذب، ملوك الحضرة الإلهية. تمنى لو أن ولي الله الأنفوشي تجلَّت كرامات روحه الطاهرة في البرزخ. يراها، أو يلمسها، بإلهام، أو في رؤيا منامية. تتجلى الهيبة، فيحل السكون التام. تنثال الفيوضات، وتنداح الأنوار. يتنعم بالأحوال والكشوفات.

أجهد نفسه في استحضار صورة لم يرَها لسيدي الأنفوشي، يرسم ملامح يمليها الحب لولي الله.

زاره سيدي الأنفوشي في المنام، أو في صحو كالمنام. أكد ما رواه ياقوت العرش. دعاه إلى إعلان ولايته على بحري: الأنفوشي والسيالة ورأس التين. لم يتحدث عن مقامه، ولا

إن كان في قلعة قايتباي، أو في ساحة مدرسة البوصيري الأولية، أو في مقابر المنارة، أو العامود، وربما مكان ناءٍ لا يعرفه أحد. لم يعين موضع مقامه بالتحديد، ولا طلب تغييره، إنما طلب العناية به، ووضع كسوة عليه، وإقامة مولد له في يوم من رمضان، مثله مثل القطب ياقوت العرش. هو الذي حمى بحري من الشوطة. غاب الموت بالمرض عن أبناء بحري، وغاب المرض نفسه، وهو الذي أوكل له أولياء الله الصالحون مشكلات الناس، وما يعانون.

اجتذبته حالة لم يعهدها في نفسه، فلا الأرض تقلُّه، ولا السماء تفيء عليه، ولا الكون في عمومه يحصره. اقتحمت نفسه أنوار علوية، انبسطت في صدره، فاتسع بالرضا والتسليم واليقين، وإن أخفق في الإمساك بالنجوم، وتلقى ضربات الموج دون أن تهتز وقفته ... فهل يعينه أولياء الله على أداء ما يطلبونه منه؟

طال ترقبه للمدد الإلهي. أعد نفسه لإشارة ظاهرة أو باطنة. هاتف حسي أو معنوي. يشير عليه بالطريق التي يجب أن يتجه إليها، فترتقي معارجه إلى مدارك القرب والاستشراف والمراقبة والإرسال والاستقبال للفيوضات العلوية، يضيء الله معيته بالعلم والمعرفة، يدخل العوالم الغيبية الباطنة التي لا يراها أحد، يتحمل التكليف في ساحات أولياء الله، بهدى من الضياء الرباني، تتنزل به الملائكة من فوق السموات السبع.

الأنفوشي؟

التسمية جديدة، وإن تناقضت الروايات في أصلها. العائلة الإيطالية أنفوس احتكرت — لسنوات — صيد الأسماك وتجارتها. كل الصيادين أتباعها ورعاياها، ويعملون لحسابها. حلقة السمك متجرها الكبير، تبيع فيه وتشتري. هاجر أفرادها منذ سنوات بعيدة، لكن سطوتها ظلت — بالاسم المحرف — على الحي بأكمله. المؤكد — في بعض الاجتهادات — أن التسمية محرفة، لكنها تمتد إلى عصور قديمة.

الضريح الغارق في الظلمة داخل قلعة قايتباي — دونًا عن جميع الأولياء — بلا أتباع ومريدين، وبلا احتفالات مولد. حياته لا يذكرها أحد: مَن هو؟ أصله؟ فصله؟ كراماته؟ سيرته؟

الرواية — أصلًا — غير مؤكدة، وإن رأى بعينيه تهافت النساء — وقت صلاة الجمعة — يوقدن الشموع، يقدمن النذور، يكنسن — بملاءاتهن — الأرض الترابية، أو يتمرغن عليها، يهمسن، يجهشن بالبكاء، يجلسن — بالساعات — في صمت. يطلبن الخلفة

والمصلحة والشفاعة والمدد. تعلو الأصوات بآيات القرآن والأدعية والابتهالات والزغاريد. يتركن المتاعب عند الضريح، ويغادرن الحجرة المظلمة في غير الحال التي كن عليها.

الشيخ عوض مفتاح إمام ياقوت العرش قال: الأنفوشي حقيقة ... رفاته في الضريح الذي يتوسط فناء مدرسة البوصيري الأولية بالموازيني.

غادر ما جرى بين جابر برغوت وعم شحاتة في مدرسة البوصيري. تابع المناقشة ناظر المدرسة والمدرسون والفراشون والتلاميذ. نقلوا ما شاهدوه، واستمعوا إليه. نقلوه بإضافات وتهاويل في البيوت، والدكاكين، وعلى القهاوي، وفي دروس المغرب بالجوامع. علت أسئلة ومناقشات، وأثيرت تخمينات. امتلأت النوافذ والبلكونات والأسطح. عشرات الأجساد المتلاصقة، والأعين، تتأمل ما يجري، وتدافع الناس من الشوارع الجانبية. جلابيب وسيالات وبدل وعمم وطرابيش وطواقي ورءوس عارية. والعساكر يحاولون منع الزحام، وتصاعد الصخب المتلاغط، ورائحة العرق. اكتفى الكثيرون بالتطلع إلى المدرسة من خلف المبنى، المطل على ميدان الموازيني.

غادر أمين عزب زاوية خطاب عقب صلاة الظهر. أفسح له المحتشدون في شارع الكناني، وداخل المدرسة — حين عرفوه — منفذًا. تأمل جابر برغوت في جلسته الساكنة لصق الضريح.

– ماذا جرى يا برغوت؟

ظل في صمته، يتأمل أمين عزب بعينين ساجيتين، ثم قال: لقد اختارني سيدي الأنفوشي لتوصيل ما يريد إبلاغكم به.

همس أمين عزب من بين أسنانه: من سيدي الأنفوشي؟

أشار إلى المقام ذي اللون الأخضر، في الطرقة الضيقة الموصلة بين الفصول.

علا صوت أمين عزب بالحدة: هذا قبر رؤيا ... لا يوجد تحته أنفوشي ولا رأس التين.

اربدَّ وجه جابر برغوت: تسخر من ولي الله؟

صرخ أمين عزب: جعلت الوهم وليًّا يا برغوت؟!

ورمى الرجل بنظرة مشتعلة: ولماذا أنت بالذات؟

ثم في نبرة محذرة: ألم تتعظ مما جرى لك؟

حين مات ابنه مسمومًا، وظلت ابنتاه بلا زواج حتى جاوزت صغراهما العشرين من عمرهما، أيقن أن ممارسة السحر الضار عادت عليه وعلى أسرته بالمتاعب والأضرار، فقرر نبذها. كان يعقد — قبل أن تتبدل حياته — على ذيول العفاريت. يصادقها، ويفرض

عليها كلمته. ثم هجر السحر والعلاج بالقرآن، بعد أن تنبهت الجن لأذاه. حرق — بالآيات والتعاويذ والطلاسم — الكثير من أهل العوالم السفلية، فأولته اهتمامها. اجتهدت في النيل منه، وأذيته. زاد من عدائها له أنه لم يكُن يأذن لها بطلب شيء. يصر أن تخرج من الجسد، أو تحرق بإذن الله. حصَّن نفسه بتلاوة آيات القرآن والأذكار، والمحافظة على الصلوات في مواعيدها، والإكثار من النوافل. فلما أحسَّ بتعاظم الخطر، بلفح الأنفاس القريبة، وإن لم تتجسد في صورة ما، قرر أن يخفي عداوته للجن، فلا يظهرها.

تبدَّلت حياته، بعد أن أضاءتها كلمات سيدي ياقوت العرش. امتثل للأمر، واجتنب النواهي، وسارع في المرضاة، وغلب عليه الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة. لم يعُد في قلبه طمع في الناس، ولا تشوق إليهم. هذا زمان وحشة، والوحدة هي اختياره، لم يفرضها عليه أحد. حتى الاحتلام لم يعُد يطرق باب نومه، ولا يقتحمه، ولا يؤذيه في طهارته ونفسه. سد الباب بإخلاصه في العبادة، ومجانبة الكثرة، وإيثار الجوع، وحسن الظن بالله، ومخالفة الهوى، ورفض النومة المريحة على وسادة، والعكوف على البلاء، ونفي الخواطر المذمومة، والرضا عن القضاء، والصبر على المجاهدة، واختيار الموت على الحياة. أدرك أنه بقدر المجاهدة تكون المشاهدة، فذهب عن نفسه، واتصل بذكر الله، وذاق حلاوة الطريق، المحبة والاشتياق، القرب والوصال، خلوص الروح، ورقة القلب، وراحة القناعة، وبرد الرضى، ونسيم التسليم.

اتسعت معرفته، وتأهب لورود الأمداد: يرفع الحجاب، ويفتح الباب، ويتحقق العرفان، ويدخل — حين يتجلى ولي الله الأنفوشي عن ستار اختفائه — دنيا الفيوضات الربانية. تتدفق الأنوار من رياض الملكوت، ويهمس هاتف الحقيقة بأسرار العلوم والمكاشفات، وسر الربوبية الذي لا يفهمه إلا الخواص.

ثقبه أمين عزب بنظرة متفحصة، كمن يريد أن يتعرف إلى ما بداخله:

– أين كان سيدك الأنفوشي؟

قال جابر برغوت: سيدي؟ إنه سيد ناس الحي كلهم ... بركاته تشمل المنطقة من المنشية إلى رأس التين.

قال أمين عزب: وماذا عن المرسي وأولياء الله الآخرين؟

وهو يهز رأسه: لهم كل الاحترام والتوقير.

وفاضت عيناه بالألم: لكن المرسي ظهر، وحذر، فلم يأبه الناس.

ثم وهو يضرب الأرض بعصاه: أخشى من نذير مخيف.

حافة الظل

مالت من شارع السيالة إلى شارع سيدي كظمان. اخترقت الظلمة المتكاثفة، لا تؤثر في حلكتها الأضواء المنبعثة من ميدان المساجد.

انتفضت لسماع وقع أقدام خلفها. خطوات بطيئة زاحفة. وقفت في مكانها. أصاخت صوتها لاقتراب الخطوات وراءها. ظل الصمت سادرًا. تلفتت حولها. الظلمة ألغت الظلال. وإن تبينت ضوءًا خافتًا يصدر من نافذة علوية، مغلقة.

لم تلتفت وراءها، وهي تزيد في سرعتها. أهملت حتى الخطوات الواسعة، التي تباطأت بعد أن اختلط ظلها بقدميها.

قبل أن يطالعها ميدان المساجد، التفتت بنظرة سريعة، واندفعت إلى قلب الميدان.

تبينت وجهه في الأضواء المنبعثة من الجوامع ونوافذ البيوت والدكاكين المفتوحة، القليلة.

همست لنفسها بالخوف: هشام؟!

تصورت أنه نسيها. فقد الأمل في أن تكون له، فنسيها.

أسرعت في خطواتها، لإحساسها بمتابعته. لم تشعره بأنها رأته، فلا يلحق بها، ويكلمها. ماذا لو بادرها بالكلام؟ هل ترد، أو تظهر الغضب، وتواصل السير؟!

اعتادت الإحساس بأن عينين تلاحقانها. تلتفت خلفها. يطالعها الطريق، بخلوه، أو بالمارة المشغولين في أحوالهم.

تراه في الشارع. يطيل النظر إليها، فتغالب ارتباكها. تتجه بوجهها إلى الناحية المقابلة، أو إلى الأمام، لا تكلمه ولا يكلمها. وحين لمحته مستندًا إلى شجرة قبالة المدرسة، أهملت النظر ناحيته. لحقها قبل أن تميل إلى شارع السيالة. تشجعت بالمارة القليلين والنوافذ المفتوحة:

– ابتعد وإلا صرخت.

فض الإمام الحفل. فصل بينهما. لكن مهجة ظلت في باله. تكرر لقاؤهما — منذ تلك الليلة — في الطريق. لا ينظر إليها، ولا تنظر إليه. يبدو عليها الارتباك، ويحاول ألا يبدو عليه ذلك. يعلم بشعورها نحوه، وأنها تعلم بشعوره نحوها، وإن لم يحاول أن يكلمها، ولا حاولت هي أن تكلمه.

كانت مهجة فتاته. صارح أباه برغبته في الزواج، ولم يذكر مهجة. ذكر المعلم كشك أسماء عديدة. رفض أو اكتفى بالصمت. لجأ إلى التلميح، فلم يصل المعنى. قال لأمه. رشحت مهجة. وافق أبوه بلا معارضة.

تعدد خروجهما برفقة مصطفى في البداية، ثم بمفردهما. تلتقي عيونهما في صمت. تثق في حبه لها، ويثق في حبها له. لا يصارح أحدهما الآخر بما في داخله، وإن ظهر في النظرات، وضغطة اليد، والارتباك في التصرف. وحين تركت يدها بين يديه — للمرة الأولى — في سينما التتويج، شعر بتحرك شيء في داخله، ما يشبه الفرحة، أو النشوة.

قال: هل تذكرين عندما نزعت شوكة السمكة من قدمك؟

قالت: ياه! تذكر؟

أقبل على تأوهها. لم تكن قد دخلت المدرسة، فلا بد أنها كانت أقل من السادسة. آلمتها الشوكة عندما دخلت قدمها الحافية، وهي تلعب على رمل الأنفوشي. استندت على كتفه حتى جلست على بلانس قديم. انتزع الشوكة بأسنانه، وامتص الدم الفاسد، وبصقه.

تلك أيام مضت.

لم تعُد ترفع رأسها في وجهه. تميل بجسمها. تمسح بعينيها الأرض، وتمضي. ركبها التحدي. اختفى حتى التلاشي. كأنه لم يكن في حياتها، كأنه لم يحبها، ويخطبها، وتحبه. تصورت أنه سبب فيما جرى. لو أنه أصر على زواجها، ما أصر الشيخ طه مسعود على الشائعة القاسية، وما جرى — بعد ذلك — ما جرى. لو أنه خطفها.

فاجأها بوقوفه أمام باب المدرسة. تمازج في داخلها الخوف والفرحة. أدركت — من الابتسامة المتوددة التي ملأت وجهه — أنه التقط رؤيتها له. ظل على نظرته الصامتة، لم يجاوزها إلى الكلام: لماذا لا تقنعين أباك بالعودة إليَّ؟ لماذا لا يعود كلٌّ منا إلى صاحبه؟

فكرت أن ترتمي في حضن الأمواج المتوزعة إلى الشوارع. ثم تبينت أنها بعدت عن المدرسة والطالبات بمسافة. طالعها ميدان أبو العباس بحركة المتجهين إلى المساجد لصلاة العصر. لا بد أنه سيتردد في الاقتراب منها إذا ظهر في الطريق مارة.

بدت له الفرصة سانحة. لم يتصور أن يكون قريبًا من مهجة إلى هذا الحد. كانت ترتدي جونلة زرقاء وبلوزة بيضاء مغلقة الصدر، ودست قدميها في حذاء أسود لامع، وجورب أبيض يصل إلى ما تحت الركبة، وأسندت إلى صدرها كتبًا وكراريس. خشي لو أنه قلب الأمر، ربما يغيبها شارع جانبي، فلا يلحق بها. قلب في ذهنه كلمات، تعبيرات جميلة، أضاف إليها، وحذف منها. ربما نطق الجملة، يتأمل وقعها، وما إذا خرجت الحروف واضحة. ظل يرددها بينه وبين نفسه حتى حفظها. لو أنه التقى بها. لو أن خطواتها تباطأت، فيعيد عليها ما حفظه. أعد ما يجب عليه قوله: لقد ظللت مقيمًا على العهد. كنت أعاني ما تعانين ... آن الأوان لنعوض ما فاتنا. تيقن أنها لن تخذله، أحبته مثلما أحبها. الشائعة السخيفة أطارت ما كان في قبضة اليد.

توقعت أن يعود إلى أبيها، فيطلب يدها.

ذهل هشام لقول أبيه إن مهجة بنت مثل كل البنات، بل إنها لم تعُد تملك أعز ما تملكه أي بنت.

قال المعلم كشك: إنها مطلقة ... وهذا يكفي لرفضي تزويجها منك!

وعلا صوته: هل نسيت أنها فضلت عليك رجلًا في سن أبيك؟!

قال هشام: لم يكن ذنبها ... هذا ذنب الشيخ طه مسعود.

فوت المعلم كشك الملاحظة: لو أنها كانت تُبقي عليك ... لما تزوجت أول مَن تقدم إليها.

– هذه إرادة أبيها.

– إذَن فهي أسرة لا يشرفك زواج ابنتها.

ثم أردف مستدركًا: لو أني رأيت في المرأة قبولًا بإعادة الخطبة ... لوافقت بلا تردد!

– ماذا كنت تفعل لو أن أختي فاطمة هي التي واجهت سوء الحظ في زواجها؟

صرخ المعلم كشك: اختصرت الجريمة فجعلتها سوء حظ؟!

ثم واجهه وهو يستعيد كلام الخوالقة: ها نحن تقدمنا لخطبة فتاة مطلقة ... لكن أباها رفض تزويجها لك!

فاجأه بالسؤال: ألم تعد تصلي؟

غمغم بما لم يتبينه هو نفسه. مجرد حروف مضغها، فلا تبين عن معنى.

قال المعلم كشك: هل أفقدك هذا الحب المجنون دينك؟

كالأصداء تلقى أنباء مرضها، هزالها الذي طال، ترددها على الأطباء والأولياء والمشايخ، زواجها من أبو شنب. استتر بظلمة الطريق، أو السيالة، يحدق بعينين غير

مصدقتين في الزينات والأنوار، والأغنيات والزغاريد تنطلق من شقة عباس الخوالقة. أخبره صابر الشبلنجي بطلاق مهجة من الرجل. أشفق عليها لأنها طلقت للمرة الثانية. لا، هو لم يتزوجها. فصل الإمام بينهما قبل أن يتزوجا. حتى رفض عباس الخوالقة لا يحاسبها عليه. لم تقل له: أحبك، ولم تُواتِه جرأته ليقول لها: أحبك، لكنه كان يحس بحبها له، في التماع عينيها، في تلون صوتها، في ملامسة يدها ليده. يعرف أنها مقصودة، وإن تظاهرت بالعفوية.

حرم عليها أبوها فتح النافذة، أو النظر منها.

قال عباس الخوالقة: أعرف أن زواجك على الورق فقط ... لكنك في نظر الناس مطلقة.

ثم في لهجة باترة: لا زيارات ... ولا خروج من البيت إلا بصحبة أحد أخويك ... ولا رجعة إلى المدرسة.

قالت أم محمود: المطلقة هي الحائط المائل عند الناس ... لا تسلم من ألسنتهم!

تمنَّت المرأة لو أن مهجة لم تعقد قرانها على هشام كشك، ولا تزوجت أبو شنب. وتمنت لو أنها أنجبت ثلاثة أولاد، فلا تصبح عرضة لكلام الناس. الولد ولد. لا تشغلها تصرفاته، ولا تسأل إلى أين، ولا من أين؟

كان أبوها شيخًا للصيادين، وتزوجت صيادًا أصبح شيخًا للصيادين. لا تعرف — منذ طفولتها — إلا الغزل، والبلانسات، وركوب البحر، وغياب الزوج، والنوات، والذين اختطفتهم الجنيات، وتقلبات أسعار السمك.

لازمها — بعد رحيل مصطفى — ذهول وتوهان. تنظر إلى ما لا يرونه، وتغمغم بما يشبه الحديث إلى النفس. مات في السن التي لم تكن تتصور أنه يموت فيها، وكانت مشغولة بمهجة. أصرت أن تظل النافذة المطلة على السيالة مفتوحة، لكي تراه في قدومه من أول الطريق.

أقام عباس الخوالقة سرادقًا كبيرًا من أول السيالة إلى تقاطعه مع شارع العوامري. كل الكراسي من المذهب، واللمبات أضيئت في عز النهار، وتلا القرآن مصطفى إسماعيل والحصري والشعشاعي.

لم يغادر عباس الخوالقة مكانه في المدخل معظم ساعات اليوم. وتقبَّل العزاء، وأعاد رواية ظروف وفاة مصطفى بمرض مفاجئ، ربما هو الشوطة. ظل السرادق قائمًا ثلاثة أيام. في صباح اليوم الرابع عاد إلى الحلقة، يسأل عن أحوال البحر والبلانسات والرجال وأسعار السمك.

قال خميس شعبان: كاد يتزوج وهو في الرابعة عشرة ... كأنه عرف بما سيحدث، فأراد اختصار حياته.

لم يبدُ على عباس الخوالقة مشاعر استجابة. ظل على صمته وهدوئه، وإن هز رأسه في توالٍ بغير معنى. الحزن في القلب، والنفس تقاوم حتى لا يطفر الدمع.

أسكت الخوالقة حمودة هلول لما أعاد السيرة. قال: الله أخذ ... الله عليه العوض.

ثم بلهجة باترة: الزبائن لا شأن لها بحزننا ... وعلينا أن نفيق للشغل!

وحين تكلمت أم محمود عن طلعة رجب، أسكتها — متصعبًا — بإشارة من يده: هذا موضوع انتهى ... مصطفى مات ... وتقبلنا العزاء في موته.

واتجه إليها بملامح جامدة: هل تظنين أني كنت أتصور أنه يموت في حياتي.

وغالب ارتعاشة في صوته: مصطفى الآن وديعة عند الله ... طلب الرحمة هي كل ما نملكه له.

أزمع أن تعود الحياة سيرتها الأولى، وإن ظل الإشفاق على المرأة يتملكه. لا يدري كيف يتصرف، ولا بماذا يجيب على أسئلتها المتوالية: متى يعود مصطفى؟ هل اتصلت بأخواله في دمنهور؟ هل ذهب للفسحة مع أصحابه؟ لماذا لا تكلمني عن الولد؟

زار عباس الخوالقة مدرسة قاسم أمين.

أطلت عينا البواب من وراء الباب الخشبي الموارب. تمعن في وجه الخوالقة، فعرفه. أشار لسؤاله إلى حجرة الناظرة. سدد الخوالقة رسوم عودتها إلى المدرسة، وشدد — وهو يرشف فنجان القهوة — على أن تظل مهجة في المدرسة، لا تغادرها آخر يوم الدراسة، إلا إذا قدم أخوها لأخذها.

خلفت الكورنيش وراءها. طلعت اللسان الجيري المرتفع. ثم مالت إلى مساكن السواحل ذات الطابقين. موحدة الطابع. تطل — من ثلاثة جوانب — على ساحة ترابية واسعة، تناثر فيها أولاد يلعبون الكرة والطائرات الورقية.

تلفتت — بعفوية — وراءها، وهي تدخل بيتًا في الزاوية اليسرى للأضلاع الثلاثة. قفزت السلم، حتى الطابق الثاني. ضغطت على زر الشقة المقابلة للسلم. لم ترفع إصبعها، حتى انفتح الباب.

طالعها بملامح متهللة: جئت؟

ما تبقى من حياة

تسلل ضوء النهار من شيش النافذة، وهو ما زال يتقلب في السرير، مستعيدًا ما حدث في اليوم السابق، يصله بأحداث قريبة، وبعيدة، يفسر المعاني والدلالات.

امتدت يده إلى الكومودينو المجاور. تحسس الساعة ذات الكتينة. عرف الوقت. كتم رغبة في أن ينقلب إلى الناحية المقابلة.

أزاح الستارة، فانداح النور.

مد يده إلى المكتبة. قلب في كتبها القليلة. اختار كتابًا: العبرات للمنفلوطي. خبطه في ركبته، يزيل عنه التراب. قرأ منه ثلاث صفحات، ثم أعاده إلى الرف. القراءة تسليته الوحيدة داخل الجدران الساكنة. يقرأ ما تصادفه يده، ربما قرأه من قبل، لا يستبدله. يقرأ، ويقرأ، ويقرأ، حتى يغلبه النوم، أو يدفعه السكون الجامد، الممل، إلى الخارج. يرتدي ملابسه، ويقفز على السلم بما لم يعهده في نفسه.

تلاقت أصوات المؤذنين في الجوامع القريبة. الظهر. مضى ناحية المطبخ. لمح وجهه في مرآة التسريحة. لاحظ تجاعيد خفيفة تحيط بجانبي الفم، وتمتد إلى الذقن.

اعتاد الجلوس في الشرفة المطلة على جامع البوصيري. يأتنس بالقرب من مقام ولي الله. يحيا لحظات ممتدة من السكينة والطمأنينة. تبهت صورة الوحدة. لا تناوشه إلا إذا استدعتها ذاكرته. تبدو الأيام كأنها واقفة لا تسير. ما حدث في الأمس هو ما يحدث اليوم، وهو ما يصعب إلا أن يحدث في الغد. يأكل وينام ويقرأ ويجالس أصدقاء القهوة، لكنه لا يحيا، لا يشعر أنه يحيا. يحس بما يشبه الاختناق يضغط على صدره. ربما تفصَّدت جبهته بالعرق، واهتز جسمه بقشعريرة، وثقلت جفونه، ومال إلى القعود أو النوم. تتملكه رغبة في أن يسلم نفسه للبكاء، لا يشغله رد الفعل ولا النظرات المتابعة. يؤلمه أنه سيترك الحياة دون أن يخلف ذكرى، دون أن يترك أسرة ولا أبناء. شجرة تجتث

— بموته — من جذورها. يطالعه الأثاث الساكن. أَلِف رؤيته، وإن شعر أنه يترصد له بمجرد إغلاق باب الشقة. يضغط على عنقه، فيتمنى نسمة هواء. يستعين بالتركيز، فلا يبقى سوى الصورة الوحيدة التي يطمئن إليها. يطيل الوقوف في السطح. يتأمل حدوة المياه التي تحيط بالمنطقة. أمامه خليج الأنفوشي، تميزه الصخرة الناتئة في مدى الأفق، وتداخل المياه مع الأرض التي تتعدد فوقها الأبنية إلى قلعة قايتباي. تتخلل الرؤية مئذنة أبو العباس. على اليمين الميناء الشرقية، يحدها حاجز الأمواج بين القلعة والسلسلة، وثمة أشرعة المراكب الصغيرة، وصيادي المياس بالفلايك والجرافة. وعلى اليسار الميناء الغربية: البواخر الضخمة، والأرصفة، والمخازن، والحاويات، وبلوطات الأخشاب، والأوناش الهائلة. تمسح نظراته الأدوار العليا والأسطح إلى المنشية.

كان يتمنى أن يخلو إلى نفسه. يغلق عليه باب الشقة، فتحاصره الوحدة. يحنُّ إلى جلسة القهوة. لدقائق، ثم يغادرها. الصخب في داخله يعلو على صوت مناقشات القهوة والعزلة داخل الشقة. يتمنى ... يتمنى ... تغيب ملامح الأفق في ضباب كثيف. يضايقه الإحساس بالعزلة وهو في القهوة، يحكي ويعلق ويسأل ويجيب. لا صلة حقيقية بينه وبين أصدقاء القهوة.

قل ترددد على القهوة. يشعر بالوحدة وهم يتحدثون، يتكلمون فيما لا يستطيع المشاركة فيه. تغيب الرغبة في الكلام. تشرق أحاديثهم وتغرب، فلا يجد دافعًا للمشاركة. أدرك — وإن لم يتنبه من قبل — أنه يكره الزحام، والضجة، ويؤثر الوحدة. تعاظم في نفسه الإحساس بالنفور والضيق. يزيد في ضيقه ما يحيطونه به من نظرات محدقة. يفاجئهم، فيشيحون وجوههم، يحاولون مداراتها. هؤلاء الناس غرباء عنه. لا صلة حقيقية بينهم وبينه. يعتذر بموعد — يتذكره — ويمضي. يتجه إلى الكورنيش. يتأمل أسراب النورس، وأسراب الغر — لا يتداخل سرب بالآخر — وصيادي السنارة والجرافة والطراحة وفلايك صيد العصاري.

الصيد! هواية الأيام البعيدة!

اشترى ما يلزمه من وكالة الليمون. امتدت جلسته على المكعبات الأسمنتية، قبالة ميدان أبو العباس. أودع الغلق ثلاث سمكات صغيرة. وضعه في ركن المطبخ، ونسيه.

يحدق في المياه الساكنة، والتماعات أشعة الشمس عليها. يلتقط من الأرض حجرًا صغيرًا. يتلفت حوله، ثم يقذف به في الماء. تتسع الدوائر، ثم تختفي. يلاحظ شخصًا قادمًا، أو عسكري السواحل. يرفع قامته قبل أن يلتقط حجرًا ثانيًا، ويواصل السير.

رأى — في عبوره الطريق — قطة صغيرة، تداخل لون شعرها بين الأبيض والأسود. بدت متحيرة بين الأقدام وإطارات السيارات والعربات. حملها براحته، ووضعها على صدره. قرر أن تؤنس وحدته. وضع لها لبنًا مخلوطًا بقطع من الخبز في طبق صغير. وحين فتح باب الشقة — بعد العصر — ليذهب إلى القهوة، انسلَّت — من بين يديه — خارجة. لم يكن قد اختار لها اسمًا. نادى عليها: بسسسس، لكنها اختفت. رآها — ثاني يوم — في يد طفل على باب البيت المجاور. تذكر أن القطط تألف المكان لا البشر.

سرح — وهو في جلسة المهدي اللبان — مع أغنيات محمد عبد الوهاب في قهوة فاروق، القريبة: الجندول وكليوباترا وهمسة حائرة. عاد إلى البيت — ظهر اليوم التالي — يسبق الفونوغراف، يحمله شاب فوق كتفه. تردد — في الأيام التالية — على محال ميدان المنشية. اشترى أسطوانات، وتحدث مع أصدقاء القهوة عن تبادل ما لديهم وما لديه، وعن التسجيلات القديمة والجديدة. وأهداه إبراهيم سيف النصر تسجيلًا قديمًا للغندورة تغني فيه:

ارخي الستارة اللي ف ريحنا أحسن جيراننا تجرحنا

لكن الملل، الملل، قلل من استماعه إلى أسطوانات الفونوغراف. بدا مثل المكتبة، والراديو، والجلوس في الشرفة، والوقوف فوق السطح، يعود إليها في أوقات متباعدة.

تمنى — بعد المعاش — أن يفرغ لأفكار شغلته عنها الوظيفة. أغمض عينيه في محاولة للتذكر. رفت صور ورؤى وأطياف. عاود ما فعل. زار بركة غطاس وتعرف إلى ما لم يره، تأمل صيادي الجرافة في الميناء الشرقية، أخذه السهر — مع علية ونبيلة — في الشرفة المطلة على سيدي البوصيري، تمشَّى — بلا هدف — في محطة الرمل وسعد زغلول، فاصل الباعة في سوق راتب وشارع الميدان، صلى الجمعة في أبو العباس، شاهد الموالد وسوق العيد وحلقات الذكر، فاجأ أصدقاء المهدي اللبان بمعلومات غابت عنهم.

ألف — في حصار الوحدة — إغماض العينين، شرود الخيال في آفاق لا تنتهي. صادق ساعة الحائط المعلقة في الصالة، صوت حركة البندول والدقات. يعيد الأرقام بصوت منغم. اخترع ما يسلي به وقته: يعيد ترتيب مكتبته الصغيرة، يصنِّفها بموضوعات الكتب. يعود فيصنفها بأسماء الكتَّاب. تكرر تمنيه أن يطرق عليه الباب أحد. يبدد الصمت بضغطة الجرس. وواتته رغبة في أن ينزل الطريق، يطلق ساقيه، لا تتوقفان حتى ينهكه التعب. أو يعوم في الأنفوشي إلى ما بعد الأفق.

سحب القلة من النافذة المطلة على المنور. رفع القمع النحاسي الأصفر، وجرع من القلة حتى ارتوى.

علا رنين جرس الباب. القلة من يضغطون الجرس، عرف الفرق بين كل ضغطة وأخرى. يتوقع شخصًا بالذات. تباطأ، فعلا الرنين ثانية.

فتح الباب بيد غاضبة: أستاذ إبراهيم؟

قال إبراهيم سيف النصر، وهو يمضي — بتلقائية — إلى الداخل: لم تكن تتوقع حضوري.

ومض في داخله شعور بالألفة: أهلًا بك في كل وقت!

ارتحال إلى الأسمى

قال أبو الحسن الشاذلي:

«نحن إذا أتانا مريد له شيء من الدنيا، لا نقول له: اخرج عن دنياك وتعالَ، ولكن ندعه حتى تترشح فيه أنوار المنة، فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه، ومثل ذلك قوم ركبوا سفينة، فقال لهم رئيسها: غدًا تهب ريح شديدة، ولا ينجيكم منها إلَّا ترموا بعض أمتعتكم، فارموا بها الآن، فلا يسمع أحد قوله، فإذا هبت العواصف كان الكيِّس مَن يرمي متاعه بنفسه. كذلك إذا هبت عواصف اليقين، يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه.»

قال أبو العباس المرسي:

«إن لله عبادًا، محق أفعالهم بأفعاله، وأوصافهم بأوصافه، وذاتهم بذاته، وحمَّلهم من أسراره ما تعجز عنه الأولياء.»

لمح الكاميرا في يد أوسط البحارة الأجانب الثلاثة، وضعها على عينه ليصور سيدي علي تمراز. فرد ذراعيه بامتدادهما أمام الرجال الثلاثة. رافقت وقفته صيحات وشتائم.
لحقه — من قهوة المهدي اللبان — إبراهيم سيف النصر: ماذا تفعل يا شيخ قرد؟
اهتزت وقفته بالانفعال: الجامع للمسلمين وحدهم.
قال سيف النصر: وما شأن الناس بالجامع؟
علا الانفعال بصوته: محرم على الكفار، ومن يقصدونه للفرجة.
وداخل صوته نشيج: اقتربت الساعة وانشق القمر!

أدرك البحارة الثلاثة ما يحدث. صاحب الكاميرا أهملها إلى جانبه، ومضوا ناحية شارع فرنسا.

قال المهدي اللبان: الشيخ جابر لم يفعل إلا أن منعهم من تصوير الجامع.

مات علي الراكشي. فقد الصديق الذي كان يستخلصه منفردًا، يفضي إليه بأحواله، وما يشغله، وعجائب مشاهداته.

كان قد هجر ياقوت العرش، وترقبه في الضريح الساكن بقلعة قايتباي، ولزم جدار ضريح سيدي الأنفوشي بمدرسة البوصيري. يغادره إلى شوارع بحري. ينفذ ما أمره به سيدي ياقوت العرش. يأمل في المكاشفة والمدد. يبدل الله حالًا بحال. أشفق على الناس ضياع المعتقد، وضعف النفوس. ما يعانونه، مبعثه بعدهم عن الله، وإقبالهم على المعاصي. ذهبت عن نفوسهم حرمة الدين. زال الورع، وطوى بساطه. رفضوا التفريق بين الحلال والحرام، واستخفوا بالعبادات. لن يكون الخلاص إلَّا بالرجوع إلى الذات الإلهية، والمحافظة على الحدود، والابتعاد عن النواهي.

اعتاد الناس أقواله وتصرفاته. لم تعُد غريبة ولا نابية. وكانوا يلزمون الصمت، عند سيره في الشوارع والحواري، وأمام القهاوي والدكاكين وأبواب البيوت المفتوحة. غابت التعليقات المتصعبة والساخرة والغاضبة. حتى الأولاد الذين ضايقوا علي الراكشي بتصرفاتهم، لم يكرروا ما فعلوا مع جابر برغوت. ربما لتذكر الجميع خطأ التصرف مع ولي الله الراكشي.

فمَن يدري؟ من يدري؟

ظهر في أقواله وتصرفاته، ما يجعله من أرباب القلوب والأحوال. لجم نفسه بلجام الصمت والسكينة. ورضي بقضاء الله، واتصل بذكره، وأخلص واتقى وسكن. يسرح ويشرد، تستشرف نظراته ما لا يراه أحد، يصغي إلى أصوات تنداح في داخله، فلا يسمعها سواه. هو مشدود للمهمة التي كلف بها، لا يستطيع التخلي عن أدائها. درب نفسه على الامتثال والخدمة والسمع والطاعة. ثمة أنوار تومض أمامه، كأنوار الشهب والقمر والشمس، تضيء ما حوله، وثمة رموز وإشارات إلى حقائق الخفايا والبواطن والعلوم والمعارف والأسرار. تبع النداء في كل الخطوات التي يقطعها. انشغل عن التطلع إلى الدنيا، واستوحش من جميع البشر. غرق الكثيرون في بحر الدنيا العميق، فجعل سفينته فيها تقوى الله تعالى. آثر ما يبقى على ما يفنى، وجعل الله غناه في قلبه. لا يقبل شيئًا إلا من الذين اشتهروا بالتقوى وخوف الله. لا تشغله نظرات الدهشة ولا الملاحظات المؤنبة ولا

كلمات التوبيخ ولا المضايقات. نسي حوائج الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات والمراتب والخصوصية. ذهب عن نفسه، وعن كل شيء.

لم يضع في باله أنه يمارس كرامات الأولياء، فلا اطلاع على الكوائن، ولا طي للأرض، ولا سير على الماء، ولا طيران في الهواء، ولا إتيان ثمرة في غير أوانها، ولا الحصول على ثمار من شجرة يابسة، ولا تحول ماء البحر إلى ماء عذب. أتم تفويضه لأولياء الله الصالحين. غلب الرضا على القلب، ومضى في الطريق التي حددوها، وأشاروا بها. يترقب الأنوار التي ترقى به إلى التمكين في شهود الذات، واكتحال عين القلب بسر الحقيقة. أغرقته سحائب الرحمة، وعصفت به الهداية، ساقته إلى أرض النفوس الطيبة. هامت الروح في حضرة قرب الذات الإلهية، وتأهب لورود الأمداد.

اعتاد الناس اختفاءه — فجأة — وهو يخالطهم، أثناء سيره، أو في جلوسه داخل الجوامع، أو في استناده على المقام داخل صحن مدرسة البوصيري.

توقع الكثيرون بركات تضيف إلى معجزات أولياء الحي، مثل مشي السلطان فوق موج البحر، وتلقف أبو الدرداء للطوربيد من سماء الإسكندرية، وبردة الرسول حين خلعها على البوصيري. وقيل إنه يوحى إليه من البرزخ بإلهامات ومكاشفات.

لاحظ خميس شعبان مسحة من الطهر تضيء وجه الرجل. وأخذ حمودة هلول من فوق الطاولة، على رصيف الزردوني، كوب شاي، شرب منه جابر برغوت، ومضى. ارتشف بقايا الكوب، امتصها تمامًا. هتف: البركة يا أهل الوصول!

وروي أن جابر برغوت قال لدياب أبو الفضل وهو يقف على الأورمة أمام الحلقة: لا تتعب نفسك ... فهذا يومك!

وقبل ساعتين، كان دم الشريان قد انبثق من ضربة الساطور، ومات دياب أبو الفضل في مساء اليوم نفسه. وأكد عم شحاتة أنه رأى طيورًا بيضاء اللون، ليست حمائم ولا تشبهها، تهبط في جلسته بجوار المقام ذي الكسوة الخضراء، تضع من الطعام ما لا يتبينه أحد، فلا أحد يجرؤ على اقتحام مجلس الركن الساكن، حتى يمضي من نفسه. وكان يمضغ الطعام في صمت وتلذذ، ويحمد الله. فلما تبين عم شحاتة المكان بعد انصرافه، لم يجد الآنية التي كان يأكل فيها طعامه. وقيل إنه لم يزُر مريضًا أو مصابًا ودعا له إلَّا عجَّل الله بشفائه. وحين واجه قاسم الغرياني يصعد الدحديرة الخلفية لأبو العباس، شخط فيه: أنت جُنب ... فارجع اغتسل!

رويت عن الرجل حالات، فله قدرة على تمييز الواقفين — أو الجالسين — في الظلام، ويناديهم بأسمائهم، ويكشف عن مخابئ الثعابين والحيات والفئران في شقوق الجدران،

ويتحدث عن النوة قبل قدومها، ويعرف وقائع المستقبل. ربما يغلبه الانفعال. يصيح، ويصرخ، ويهم بنزع ملابسه، لا يهدأ إلَّا عندما يستحلفه مَن يعرفه برسول الله وأولياء الحي. قد يتعاظم فيبلغ رأسه السقف، وقد يتصاغر، فيصبح في حجم الدجاجة. أشار، فانشقت مياه الميناء الشرقية. سار في الأرض اليابسة إلى نهاية السلسلة. وكان يأكل من السمان حتى يشبع. يصفق، ويقول: طِر بإذن الله! تنقلب السمانات إلى الحياة، تكتسي ريشًا، وتتقافز، ثم تطير. وقيل إن الأقطاب من أولياء الله يتراءون له في اليقظة والمنام، يحملونه على أداء ما يريدون من أفعال الخير. وقيل إنه أخذ على رؤساء الجن العهود. جعلوا أنفسهم في خدمته، يلبون كل ما يعلو به — أو يهمس — صوته، وما يتمناه في نفسه. وقيل إن الجن تقمَّصته، وإنه لم يعُد يتكلم بصوته الطبيعي. تحول إلى ما يشبه الحشرجة. وربما أغمض عينيه، وتصلَّب جسمه، ثم اهتز في تشنجات متوالية، وانطلقت الصرخات كالعواء، وانسابت من جانبي فمه ومن ذقنه، رغوة بيضاء. وروي أنه كان إذا نظر إلى شخص وهو في حالة الانجذاب، فإنه يجذب هذا الشخص، فيصبح من محبيه.

قال حمدي رخا: ربما كان هذا الرجل أعقل العقلاء.

اتجهوا إليه بنظرات يفاجئها عزوفه عن المشاركة في المناقشات. إذا تحدث فبعمومية ترى أن كل شيء يجب أن يتغير ... وكان قليل التردد على القهوة. يعمل موظفًا في مصلحة الموانئ والمنائر. يؤثر الخروج إلى شاطئ الكورنيش. يتمشى في المسافة بين المحكمة الكلية وانحناءة الطريق إلى الأنفوشي. يتأمل ما تراه عينه وحده، لا يشير إليه، ويكتفي بالإنصات الهادئ. شعره الأبيض يتناقض مع الملامح الطفولية في وجهه. له بشرة قمحية صافية، وأنف صغير، وعينان لوزيتان شديدتا الالتماع، تطل منهما نظرات ساهمة.

زوى إبراهيم سيف النصر حاجبيه بالدهشة: هذا الـ...

قاطعه حمدي رخا: إنه يريد الصح.

قال عبد الله الكاشف: الصح مسألة نسبية.

قال حمدي رخا: المؤكد أننا نحياه!

قال الشيخ أحمد أبو دومة: هذا رجل اصطفاه الله لحضرة أنسه.

ثم وهو يداعب ذقنه بأصابعه: أثق أن وجود هذا الرجل المبارك في حيِّنا هو الذي منع ظهور الكوليرا في الحي.

قال أدهم أبو حمد: فماذا عن أولياء الله الآخرين؟

قال الشيخ أبو دومة: إنهم موتى ... ولن يؤذوا حتى لو أصيب بحري كله بالوباء ... أما شيخنا فقد حمى الله أهل الحي من المرض ليحميه من العدوى.

قال إبراهيم سيف النصر: هل تأثرت بحركات الرجل؟

وأشار بيده إلى باب البيت الملاصق: أنا أصدق أمين أفندي عزب ... ياقوت العرش لم يظهر للرجل، ولا زوده بنصائح أو توجيهات ... إنه تلبُّس جن يُملي عليه ما يتصور صحته!

طرقات على الباب المغلق

تكرر الإجهاض، فغلبها القلق: هل ...؟

هزت رأسها، ترفض التفكير في السؤال.

المغص الحاد يفري بطنها، والألم أسفل ظهرها. ذعرت لرؤية قطع الدم المتجمدة تتساقط. عرفت الطريق إلى مستشفى الملكة نازلي. ترددت على العيادة الخارجية: تنزع ملاءتها، وشبشبها. تتمدد على سرير الكشف. يسألها الطبيب وهو يرفع فستانها. يجبرها على فتح فخذَيها. يدخل آلة معدنية، فتكتم ألمها. استمعت إلى نصائح الأطباء، فلزمت المستشفى يومين وثلاثة. حفظت التعريفات، وإن لم تعرف مرضها.

قال الطبيب: هل تعانين اضطراب الدورة؟

استطرد لعدم الفهم في عينيها: هل تتأخر الدورة الشهرية؟

– أحيانًا.

فاجأها بالقول: هل تكررت هذه الحالة من قبلُ في عائلتك، أو عائلة زوجك؟

عائلتها؟! عائلة زوجها؟!

لم تلحق بمعنى العائلة، عندما ألحقها أبوها بخدمة المستشار، ولا تعرف عن سيد إلَّا سيد. لم يحدثها عن أب أو أم أو إخوة، ولا عن عائلة.

قال الطبيب: هل تعانين من ضغط الدم المرتفع أو السكر أو التهاب الكلى.

وهي تدفع بيدَيها خطرًا غير مرئي: أنا لم أذهب في حياتي إلى طبيب.

زم الطبيب شفتيه في تفكير: لعلها حالة قصور في نمو الجنين ... عيب خلقي.

وضع الطبيب — في مرة تالية — صورة الأشعة السوداء بينه وبين لوحة مضيئة. تأملها: هذه حالة اتساع في عنق الرحم.

وجرى بكلمات على الدفتر الصغير أمامه: سأعطيك بعض الأدوية ... ربما لا يحتاج الأمر إلى عملية.

وهز يدَيه متحيرًا، في مرة تالية: هذه حالة إجهاض غير مسبَّبة.

همست بالخوف: ألا يوجد علاج؟

جرى قلمه بالكلمات في الكراسة الصغيرة. نزع ورقة، ودفع بها إلى أنسية: سنكتشف السبب بعد إجراء التحاليل.

قالت الداية زمزم: عليك بزيت الحلبة الأصلي ... تبللين به قطنة، تدخلينها في المهبل بعد انتهاء الدورة ... لا تخرجيها قبل ثلاثة أيام.

انتزعت ضحكة من أنفها: وإذا طالب الرجل بحقه؟

– اعتذري بأية حجة ... قولي إن عليك العادة.

أطالت تأمل سيد، الساكن في جلسته على الكنبة. ابتسمت لتذكرها نصيحة الطبيب بأن تعتذر لسيد عن الجماع، حتى لا يسقط الحمل. لم يناقش سيد ما نقلته عن الطبيب، واختار كنبة الصالة لنومه.

منذ صحبها محمود الخوالقة إلى بحري، وتركها، أدركت أن عليها أن تواجه الأمور، وتتصرف. كانت تحرص أن يطول لقاؤهما. تلجأ إلى أعوامها الماضية، منذ صحبها محمود الخوالقة إلى بحري. تعطيه ليعطيها. ترتعش، تتأوه، تزم شفتيها تأكيدًا لمداراة الإحساس باللذة. لم يكن بلوغ الإشباع هدفها. تساوى الوقوف على ضفة الشاطئ، أو الخوض في الأمواج حتى الغرق. ألفت نهاية الاتصال دون أن يلامسها الارتواء. إذا هم بانتزاع نفسه، أحاطته بساقيها. لفت ساعديها حول رقبته. تحاول أن يظل داخلها. ربما أفلتت الثمرة قبل أن تصل إلى موضعها. نصيحة الكودية نظلة. لم تصارحه بها، وإن حرصت عليها.

النساء يحبلن ويلدن. أجسامهن تلتقط الهواء، وتبقيه فلماذا هي؟!

قهرها الإحباط، فهمست لنفسها: عندما كنت حرة، كان كل الرجال ملكي ... وبعد أن أصبحت زوجة استعبدني رجل واحد!

ورنت إليه بنظرة مستغيثة: قالت لي زمزم الداية إن السبب قد يكون لخلاف مع إخوتي، وعليَّ أن أصالحهم.

قال بلهفة: لو احتاج الأمر، أذهب بك إلى سحالي.

– لماذا؟

– لتصالحي إخوتك.

– المرأة تقصد بسم الله الرحمن الرحيم.

صحبها سيد إلى الشيخ مكي قارئ سيدي نصر الدين. تردد عليه الكثير ممن أضر بهم السحر، والعين، واللمس، والمس الشيطاني. يجيد التعامل مع الجن والشياطين، ويفك عقدة السحر، ومن شر النفاثات في العقد.

نصح الشيخ مكي بقراءة القرآن. يغيب الشيطان تمامًا إذا قُرئت آياته. ونصح بزيت الزيتون. تأثيره على الجان مزلزل. ونصح بالماء، لأنه يخمد النار، والشيطان خلق منها. إذا نزلت البحر، زال تلبس الجان لجسمها في طهارة الماء.

وعادت إلى البيت بست بيضات مسلوقة، مغموسة في الفلفل الأسود، قرأ عليها الشيخ، وتلا أدعية.

قال سيد وهما يغادران الجامع: يا أنسية ... المثل يقول: إن ما كانش لك أهل، ناسب.

واتجه إليها بملامح متأثرة: أنا وأنت بلا أهل ... وطفلنا الذي نأمله هو نسبنا!

أين أنت؟

صحا على كرشة نفس، حطت على صدره.

رفع الغطاء، وأسند ظهره إلى السرير. تمتم بآيات وأدعية.

هل كان حلمًا؟

بدا سيدي البوصيري أمام الباب بقامته الضئيلة، وملامحه المنمنمة، الجميلة، والمسبحة الهائلة الحبات تتدلى من يده.

أفسح الطريق للبوصيري. في داخله الارتباك والدهشة والفرحة.

جلس البوصيري على المقعد المواجه لباب الشقة، والضياء ينبعث من داخله، ومن ملابسه.

عصته الكلمات، فلم يجد ما يقوله.

أطال البوصيري تأمله بنظرة فيض إلهي، ثم اختفى.

نهض إلى النافذة، فواربها. اقتحم نور الضحى الحجرة. هم بالعودة إلى السرير، ثم عدل. ومضى إلى الصالة.

تمطت الوحشة، باردة، مقبضة، بنت أعشاشًا في أركان الشقة.

كان يتحسس الصمت، ويتنفسه. يتمشى بين قطع الأثاث الساكنة. يداخله إحساس بالوحدة. هو وحده في الشقة. بعد أن يتمدد في السرير، ينهض. يضيء نور الصالة. يطمئن إلى إغلاق النوافذ والبلكونات. تترامى حركة مفاجئة أسفل الطريق. تتسلل نظرته من خصاص النافذة. عربة كارو تقرقع عجلاتها على أسفلت الطريق. يعود إلى السرير، يتمدد على ظهره. يفرج ما بين ساقيه، ويضع يديه خلف عنقه. يحدق في السقف، ويسرح في اللاشيء. تتحرك التكوينات في السقف والجدران. تتشابك، وتختلط، وتتعارك، وترقص بما يذهله. يتمدد، يتكور، يتمطى، يحتضن الوسادة، يتحسس نعومتها بخدِّه. يغفو، فيوقظه

تلاقي أصوات المؤذنين في الجوامع القريبة. يسعل وهو يتهيأ للوضوء. يلاحظ تغيرًا في صوته. يعاود السعال، ينتحله، ليتأكد. يهز رأسه في عدم تيقن. ربما دار في الشقة يدندن بأغنية كانت آخر ما استمع إليه في الراديو قبل أن يغلقه.

ضايقه توقف بندول ساعة الحائط. سحب كرسيًّا، وملأ الزمبرك. تأملها. راجع الوقت على ساعة يده.

امتدت يده بتلقائية، تسحب القميص والبنطلون من الشماعة.

لم يعُد يطيق البقاء في الشقة. بدَت له سجنًا، يصعب عليه الحياة داخله. الوحدة والسأم والفراغ. يتردد على البيت للنوم، أو لتناول الطعام. لاحظ أنه يجد عناءً فيما كانت تفعله علية. ربما اكتفى — في الغداء — بقطعة جبن، أو سندوتش فول يعود به من الطنطاوي في شارع التتويج. ربما عاد بأقة كعك يغمس منها في الشاي. يخفق في استجلاب النوم. يسحب كتابًا، ويحاول قراءته. يغلبه شرود ذهنه، فيطوي الكتاب. يتصور نفسه في قلب مظاهرة، يهتف ويهتف ويهتف. ليس ضد أحد بالذات، لا الملك ولا الإنجليز ولا أي أحد. مجرد أن يعلو صوته بالهتاف.

هل ينام فلا يصحو؟ وماذا لو تأخرت النهاية؟ هل تسبقها أمراض الشيخوخة؟ هل يجد نفسه — ذات يوم — عاجزًا عن النزول إلى الطريق، والجلوس مع أصدقاء القهوة؟ تحاصره الوحدة، لا يطرق عليه الباب أحد؟

فكر أن ينزل من البيت في موعد الذهاب إلى الحقانية: تطالعه الدكاكين، أغلق معظمها أبوابه، والشبابيك تفتح مصاريعها، للنهار وهدوء الشوارع، والمستلقين على الأرصفة لصق الجدران، وجياد السراي في نزهتها الصباحية، وقرقعة عربات الكارو، وباعة اللبن والخبز، ونداء بائع الصحف أمام أجزخانة جاليتي، وإطفاء عفريت الليل — وهو يعدو — فوانيس غاز الاستصباح.

لمح إبراهيم سيف النصر يشخص بنظره ناحية ميدان الخمس فوانيس، كمن يتوقَّع قدومه.

هلل لرؤيته في فرحة ظاهرة: أين أنت يا رجل؟

ألغى سيف النصر تصوره القديم عن الأسرة ذات الولد والبنتين، أو البنتين والولد، دخلوا الجامعة، وإن لم ينهوا التعليم. كلمه عن مرض القلب الذي أصيبت به زوجته، عقب الولادة الثانية، فمنعها من الإنجاب. له ولد في السنة الأولى بكلية الآداب، وابنة في التوجيهية: هل ستكتفي بالشهادة؟

– هذا على أيامنا ... الشهادة الجامعية رخصة في يد البنت.

توقفت علية عن التعليم منذ الثالثة الابتدائية، وظلت نبيلة إلى السنة الأولى في نبوية موسى الثانوية. لم ينصحهما بالمواصلة أو التوقف. اكتفى بالإنفاق، ولم يأخذ منهما ويُعطي فيما يخص المستقبل. لم يحاول حتى أن يدخل حجرتهما، وإن طالت الجلسات في حجرته، وفي الصالة، وفي الشرفة المطلة على سيدي البوصيري.

مال إلى الرجل. راقته صحبته. استهوته التلقائية في ملاحظاته وتعليقاته. لا يضع سترًا على خصوصيته. يبوح بها عفو الخاطر. إذا كان أدهم أبو حمد هو الأذن المنصتة. يحرص على تعبيراته، يختار الجملة والكلمة والحرف. يشغله إلَّا تحمل الكلمات أكثر مما تعنيه، فإن إبراهيم سيف النصر هو النقيض. صورة الحياة في بيته، تتبدل بتبدل الحكايات: الزوجة المريضة بالقلب، تتسلم المرتب أول كل شهر، وتؤلف الجمعيات مع الجيران، وتحسن التدبير والتصرف. الولد يحب مشاهدة مباريات كرة القدم في ساحة السيالة، والبنت تفضِّل سماع الراديو على المذاكرة.

استنفدا كل ما بحوزتهما من ذكريات وملاحظات وآراء. اقتصرت ملاحظاتهما على نبأ في الراديو، أو حالة الطقس، أو قراءات قريبة. بدا سيف النصر على صلة طيبة بعدد كبير من أهل بحري، وصديقًا قديمًا لكل من يحدثه. يلقي التحية، ويتلقاها، والابتسامة ثابتة على شفتيه، والأسئلة عن الصحة والأحوال. يدخل في مناقشات وأسئلة وأجوبة. يبدو شخصية بلا ظلال.

اعتاد جلسات القهوة: أحاديث السياسة والأقدمية والدرجة الثابتة بمعاش، والدرجة الثابتة بدون معاش، والاعتماد الدائم، والاعتماد الوقتي، والأسعار، والرياضة، وأفلام السينما، وأحوال البحر، والضحكات، والنكات، والوشاية، والنميمة، والثرثرة لمجرد قتل الوقت. يضيق بجلسة القهوة. يستأذن، ويميل إلى شارع إسماعيل صبري، حتى شارع الميدان. يخوض الزحام. يتأمل البضائع المصفوفة أمام الدكاكين، وعلى جانبي الشارع. يسأل، ويفاصل، ويشتري بعد تردد.

نظر إبراهيم سيف النصر في ساعته: هل سرقك النوم؟

وغمز بعينه: يا بختك ... لا زوجة ولا أطفال.

هل جربت الحياة بلا ونيس؟ الحياة الفارغة، الباردة. الوحدة والصمت وتداعي الذكريات؟ لا تجد من تكلمه، فتكلم نفسك. تزهق من سماع الراديو، والقراءة، وارتفاق النافذة، والجلوس في الشرفة، وتأمل تكوينات الطلاء في السقف والجدران، وتراقص الأضواء والظلال. تجهد الذهن في السرحان. تنتبه إلى قدوم الليل، وقدوم الفجر. تفتح

عينيك على إطباق الظلمة. تختفي المرئيات والظلال. ليس إلا السواد المتكاثف. ربما تفاجئ نفسك وأنت تخاطب المدى الساكن، وقد تسأل في تحير: ماذا أفعل بهذه الحياة؟

هو حصان أضناه السير الطويل، بلا هدف. مساحات الفراغ واسعة. لا نهاية في الأفق، سوى ذلك المجهول الذي تغيب فيه حياته.

حين دس المفتاح في الباب، وفتحه. بدَت له الشقة غارقة في السكون. فوجئ بوقفته المترددة: ألا يريد أن يدخل؟ هل يموت بمفرده، لا يشعر به أحد إلَّا حين تنبعث رائحة جسده؟

داخل صوته تأثر واضح: أبقاك الله لأولادك!

قال سيف النصر وهو يشير إلى رجل معمم جلس في الناحية المقابلة من الطاولة: الشيخ قرشي ... قارئ جامع سيدي علي تمراز.

قال الشيخ قرشي وهو يحكم العمامة فوق رأسه: أنا واحد ممَّن وصفهم الرسول ﷺ بأنهم أطول الناس أعناقًا يوم القيامة.

لاحظ حشرجة في صوت الرجل: لا بأس.

وهو يجري براحته على صدره: أصبت بنزلة برد أثرت في صوتي. تركت جو الجامع الدافئ إلى جو الطريق البارد، فتأثر صدري وأحبالي الصوتية.

اصطنع سيف النصر لهجة مشفقة: المهم ألَّا تتأثر مواضع أخرى في جسمك!

بعيدًا عن منطقة الأعراف

ترامى الصوت خافتًا من وراء النافذة. أقنع نفسه بأنه نبش قط في الزبالة. أصاخ السمع، فرجح أنها عضعضة كلب في قطعة عظم. ثم خمن أنها هبة هواء مفاجئة. ثم خاف أن يكون الصوت من خدع الشيطان.

فرك عينيه، وأعاد التحديق في الفراغ الممتد أمامه.

أيقن أن أحدًا معه في الحجرة. نظر — بتلقائية — ناحية الباب. وجده مغلقًا.

تنبه للصوت من النافذة. أسفل الطريق، أو من البيت المقابل.

خمن أن اهتزاز زجاج النافذة لهبَّة هواء. ثم تذكر أن الليلة صيف. اتجه بنظرته ناحية النافذة. كانت الضلفتان مفتوحتين، تستندان إلى جدار الحجرة. وكان الشيش مواربًا.

أصاخ السمع، فتأكد.

فتح النافذة، فاقتحمت الظلمة الساكنة عينيه. ليس ثمة إلَّا ضوء خافت من عربة كباب أول السيالة.

ثمة شيء في داخله يخوفه، يتوقع ما لا يتخيله، ولا قبل له على مواجهته.

تعالت طرقات، عمق من شدتها الظلام، والسكون، وفقدان التوقع.

صرخ: من؟

أعاد السؤال.

توالت الطرقات، وإن لم يصِله جواب. أصاخ سمعه. تأكد من وقع أقدام خارج الحجرة. حدج أكرة الباب بنظرة خائفة.

فتح الباب، فلم يرَ أحدًا، وإنْ ظلَّ الصدى يتردد حوله. الأنفاس والضحكات والصيحات تملأ فراغ الحجرة، تملأ فراغ الشقة كلها. رآه وهو يُلقي الحقيبة على الكنبة،

يكشف الحلل في المطبخ، يتذوق ما يجده فيها. استطال البالطو على الشماعة في صورة الولد.

اقتحمه الخوف: بسم الله الرحمن الرحيم.

حاول استدعاء الآيات المنجيات وأسماء الله الحسنى.

قيل إن عروس البحر أخذته إلى قصرها في القاع. اجتذبتها عيناه البنيتان، وملامحه المنمنمة. جعلته واحدًا من أولادها الكثيرين. غاص البهاء، وطفا، واختنق، وشرق، ودفع باليدين والرجلين، واستغاث، واندفع الماء في فمه.

توالى ضرب الأولاد على الصفائح وأواني النحاس، وكل ما يصدر صوتًا، حتى تفزع عروس البحر، فتطلق الولد … لكن الليل جاء، وجاء الصباح. وتوالت الأيام، دون أن تطفو جثة الولد إن كان قد مات.

لم يعُد يطيق البقاء في البيت. تترامى الأصوات من الشارع. تملأ جو الحجرة، فيختنق. يتأكد من إحكام إغلاق النوافذ، حتى التي تطل على المنور الداخلي يغلقها جيدًا. ينزل الشارع. يجول بلا هدف. لا يتعمد الميل، أو التوقف. يطول طوافه حول أضرحة الأولياء. حتى الأضرحة التي لم يكن يعرف بوجودها، صادفها في سيره: سيدي كظمان، السيدة مدورة، سيدي كشك … ربما غادر الشقة لصلاة الفجر. يظل في ياقوت العرش أو أبو العباس حتى يهم الخادم بإغلاق الباب. يتمشى في ميدان الأئمة، أو على شاطئ البحر، يمضي إلى أحد القهاوي المتناثرة.

فوجئ بالميكروفون يقتحم الحجرة. استقر وسط السقف. تعالى الصوت — قبل أن يلملم نفسه — فارتجت الحجرة. لم يميز الكلمات. تداخلت، تشابكت، فبدت أحرفًا منفصلة. انكمش في السرير. دس نفسه — بالخوف — تحت الغطاء. ضم ركبتيه إلى صدره. سحب المخدة بأصابع مرتعشة. وضعها على رأسه. كتمها بساعديه.

علا الصوت، فزاد انكماشه، وأرهف السمع.

أحس بحركة في باب الشقة. ثمة من يحاول علاج قفل الباب.

تحركت أكرة الباب: من؟

تهيأ لاقتحام الطارق الحجرة. يسحبه من السرير. يفاجئه بما لا يتصوره.

اقتربت الأنفاس الساخنة. لامست وجهه. انتتر مفزوعًا. قذف بالغطاء، وجرى حافي القدمين.

كان ياقوت قد كوم الكراسي لصق الحائط، وبدأ في دلق الماء، داخل القهوة، وعلى الرصيف، ودفعها بمكنسة من القش.

هتف ياقوت وهو يتأمل القدمين الحافيتين: خيرًا يا إسماعيل أفندي.

كان الصباح في أوله. وكان ياقوت يعد الطاولات والكراسي، ويكنس، وينثر نشارة الخشب أمام القهوة.

قال من بين لهاثه: أبدًا ... جفاني النوم، فتركت البيت!

أنسام منعشة

أيقظه رنين جرس الباب.

رفع الغطاء، وكتم آهة لاصطدام قدمه بالكومودينو. لاحظ أن الجريدة ملقاة على الطاولة الصغيرة منذ الصباح. نسي حتى تصفح العناوين قبل أن يسلم نفسه — ثانية — للنوم.

همس وهو يغالب المفاجأة: علية.

قالت من بين ابتسامتها: هل فاجأتك؟

نظر من فوق كتفها: أين عبد المنعم؟

– رافقني إلى باب البيت ... ودخل البوصيري لصلاة العصر.

وهو يفسح لها الطريق: تصورت أنك نسيت الإسكندرية، ونسيتِني.

في صوت منفعل: ربما أنسى كل شيء ... إلَّا أنت!

– كلام ... أين أنت من زيارتك الأخيرة؟

لاحظ تأملها للمكان: كل شيء على حاله كما تركتِه.

أشارت إلى صورتها على الحائط: ما عدا هذه.

جاشت مشاعره: وضعتها لتذكرني بك.

اصطنعت الغضب: ألا تذكرني من نفسك؟!

– في بالي دائمًا أنت ونبيلة.

وعدته بأن تزوره مرة كل أسبوع. تنظف البيت، وتعد الطعام، وتعود مع زوجها آخر النهار. ثم تباعدت زياراتها، فلم يعد ينتظر قدومها.

حين انتقلت علية إلى بيت زوجها، أغمض عينيه، وتنهد. سبقتها بالزواج قبل ثلاثة أعوام أخته الصغرى نبيلة. أصر — لأعوام — أن يزوج الكبرى قبل الصغرى، وأهمل فكرة

زواجه في حياة أبيه، وبعد وفاته، حتى تقدم العمر بالجميع. خشي أن يفوت الصغرى سن الخصوبة، فوافق على زواجها من فراج توكل زميله بالحقانية. اطمأن إلى حياة أخته الكبرى معه. لم يعُد يشغله زواجها ولا زواجه. فاجأه عبد المنعم الوكيل، جار الطابق الثاني، بطلب يدها. وافق بلا مناقشة. لم يناقش حتى وضعها مع أولاد ثلاثة وفتاة في الجامعة والثانوي. ماتت أمهم فهي ستصبح مسئولة عن رعايتهم.

قالت علية: لم أعُد أصلح للزواج.

حدجها بعينين قلِقتين: لماذا؟

– هذه مسائل نساء.

همس في قلقه: لا أفهم!

حاولت أن تجد الكلمات. قهرها الحياء، فسكتت، ومضت ناحية المطبخ.

جعلت من أم عثمان الغسالة — ثاني يوم — رسولًا يبلغه بما لم تستطع البوح به.

– علية في سن اليأس.

– الرجل يريد زوجة ولا يريد أبناء.

– وما قيمة المرأة بلا إنجاب؟

وهو يضغط على الكلمات: الرجل له أبناؤه بالفعل.

رفض جلوس عبد المنعم الوكيل مع علية — ليلة زفافهما — في كوشة. توقع ملاحظات المدعوين لتقدم سن الوكيل، ولتقدم سن علية أيضًا. رضخ لإصرار العروسين، وإن أصرَّ — من ناحيته — على أن يجلس مع زملاء الحقانية في الشقة، بينما سرادق الفرح في سطح البيت.

كانت أمنية أمه أن ترى ابنتيها في بيتيهما، ينجبان، وتسعد بخلفتهما. وكانت دائمة التحدث عن الجمال المهمل في البيت، والحظ المائل، والزمن الذي يعطي المختلطات بالرجال في الوظائف والأسواق. ظلت الأحوال على جمودها حتى لحقها الموت.

زيارات علية، المتقاربة، قللت من إحساسه بالوحدة. لما صحبها زوجها — عقب خروجه إلى المعاش — إلى قريته، وجد نفسه وحيدًا للمرة الأولى. انداحت — في داخله — مشاعر صعب عليه تحديدها. قلق، أو خوف، أو إحساس بالعزلة. ثم بدت له الشقة قبرًا يتهيأ لابتلاعه. راعه الإحساس بأن الحياة خاوية، وأنها عبء سخيف، لا معنى له.

حاول أن يقصِّر ساعات اليوم، بالقعود في الحقانية على ما كان يحمله إلى البيت من أوراق. يا دوب يتناول طعام الغداء، ويصلي المغرب، ويعيد قراءة جريدة الصباح. ثم يصلي العشاء، ويمضي إلى سريره. يبتلع قرصًا مهدئًا قبل أن يسلم نفسه إلى النوم.

وهو يدخل حجرة النوم، في نهاية الطرقة، يقف أمام الحجرة الملاصقة، المطلة على المنور الخلفي. يتأمل السكون الباقي: السريرين المتجاورين، والترابيزة الفاصلة بينهما، والكليم الأسيوطي، والنجفة المتدلية من أوسط السقف، واللوحة المعلقة على الجدار لصخور ترتطم بالشاطئ، والصمت، صمت يشي — لا يدري كيف — بأن ساكني المكان غادروه. عزل الحجرة — منذ رحلة علية إلى قرية زوجها — عن البيت. يعبرها بنظراته، أو يستعيد ما جرى بوقفة متأملة.

توقع التغيير باقتراب أيام المعاش، وإن غابت في باله ملامحه. الحدود أكثر اتساعًا مما كان يتصور. ربما تنتهي إلى اللاأفق.

قالت علية وهي تشير إلى أواني الطبيخ فوق الترابيزة: احرص على تسخينها حتى لا تحمض!

قال لنفسه: كم يكفي الطبيخ الذي أعددته؟ يومين ... ثلاثة ... فماذا عن بقية الأيام؟

صعد إلى الشقة، بعد أن ودع علية وزوجها.

عند الباب، بدا كل شيء مختلفًا عما كان قبله. الجدران الساكنة، والصمت. رأى أختيه تتربعان على سريره، تسألان ويجيب، تشرق الأحاديث وتغرب. ألفت كل منهما مناداته لها باسم الأخرى. يروي لهما ما واجهه في الحقانية، تحدثانه عن مشاهداتهما لحركة الطريق أسفل الشرفة المطلة على البوصيري، أو النافذة الصغيرة المطلة على ميدان أبو العباس. أدرك أن كل ما حوله جدران. حتى الباب لا بد أن يكون مغلقًا، والنوافذ صلة انفصال، مثلما هي صلة اتصال، بينه وبين الناس.

لاحظ يده تهتز بكوب الشاي: هل ...؟

عندما دخل صيدلية الإسعاف، المقابلة للمحكمة الوطنية، لم يكن أعد نفسه لشيء، لا مرض يعاني منه، ولا دواء يطلبه.

تبين سخف الموقف لما واجه سؤال الصيدلي: أية خدمة؟

لجأ إلى يديه، يحاول التعبير عمَّا يعجز عن البوح به. ليست حالة محددة، ولا حتى روشتة يطلب ما فيها.

مد الصيدلي يده إلى موضع في الأرفف: ربما أفادك هذا الدواء.

هم أن يعيد علبة المهدئ إلى الصيدلي، لكنه أخرج النقود — بتلقائية — من جيب البنطلون. وضعها على المائدة، وغادر المكان.

قالت علية: كان العمل عزاءك بعد زواجنا.

واحتوته بنظرة حانية: لكنك الآن في المعاش.

وأظهرت التأثر: الوحدة قاتلة.

قال: تكيفت مع الوحدة.

هتفت علية بالتذكُّر: لماذا لا تعود إلى البركة؟

زوى ما بين عينيه: أية بركة؟!

– قريتنا ... بركة غطاس.

همس: وهل يعرفني هناك أحد؟

– وهل يعرفك هنا أحد؟

فوت قسوة الملاحظة: كنت مشغولًا بنبيلة وبك.

فاجأته بالسؤال: لماذا لا تتزوج؟

– أنا؟!

– نعم ... أنت!

استطردت في تلميح: لم يعد سبب قعودك بلا زواج قائمًا.

– فات القطار ... وانتظاره سخف!

– الرجل غير المرأة ... يجد عروسًا مناسبة في كل سن.

واتسعت ابتسامتها: هل تذكر إقبال ... صديقتي؟

وقرصته من خدِّه برفق: لم تتزوج بعد ... وكانت تعلن إعجابها بك.

لاحظت شروده في المدى: نسيتها؟

النسيان!

معاناة جديدة لم يكُن يتوقعها. يعد نفسه لَمَّا يتذكر ظروفه. تبدو ملامح الصورة واضحة، لكنها تذوي، وتتلاشى. ينسى ما كان رتبه في ذهنه، ولا يعرف لماذا وقف في هذا المكان، ولا الشيء الذي جاء من أجله. ربما ترك حجرة النوم إلى الصالة. يقف في وسطها، يتنقل نظره بين الباب، والشرفة المطلة على البوصيري، والطرقة المفضية إلى الداخل. يتذكر ما ترك له الحجرة. يغمض عينيه، ويطيل التذكر. ثم يعود إلى الطرقة، أو يجلس في الشرفة، يحاول استعادة التفصيلات الغائبة.

قالت علية: إن وافقت ... أخطب لك إقبال!

تخيل — لفترة — إقبال في الشقة، تمشي، وتجلس، وتطل من الشرفة، وتقف في المطبخ، وتحادثه في مائدة الطعام، وتقاسمه السرير. لازمته صورة إقبال كظله، ثم ذوت الصورة حتى تلاشت.

عاد إلى إغماض عينيه، يسلم نفسه للرؤى والتصورات والأطياف.

انحناءة

غالب تردُّده، قبل أن يخطو داخل الباب المفتوح.

ألف رؤية اللافتة تعلو الباب، في طريقه إلى المكتبات المتلاصقة خلف أبو العباس. نادى الحزب السعدي. توقف شاب نحيل القوام، يرتدي قميصًا وبنطلونًا، ويضع على عينيه نظارة طبية، عن الدخول بأوراق في يده إلى حجرة مغلقة.

– من تريد؟

وشى تهدج صوته بالارتباك: لا أحد! أريد أن أنضم إلى الحزب السعدي.

قال الشاب: عُد بعد السادسة مساءً ... يلتقي بك المسئول عن حي الجمرك.

– ألا توجد استمارة لملئها؟

قال الشاب وهو يدفع الباب المغلق: سيدلك على كل شيء.

لم يناقش اختياره في الانضمام إلى الحزب السعدي. لم يدفعه إلى الاختيار أن السعديين آخر من كانوا في الحكم، ولا أن مبادئهم هي الأقرب إلى اقتناعه. أهمل المفاضلة بين الأحزاب، وإن أكد الجميع أن الوفد هو صاحب الأغلبية في الانتخابات القادمة. وجود مقر للسعديين بالقرب من البيت، سبب وحيد لإقدامه على طلب الانضمام.

السياسة!

تلاحقت أمواجها في حياته منذ رحيل «اللواء»: مقتل بطرس غالي، إعدام إبراهيم ناصف الورداني، فرار محمد فريد، الحرب العالمية الأولى، نفي الزعماء إلى سيشل، ثورة ١٩١٩، تقرير ملنر، تصريح ٢٨ فبراير، وفاة سعد زغلول، وزارة حزب الشعب، مظاهرات ١٩٣٥، معاهدة ١٩٣٦، الحرب العالمية الثانية، حادثة ٤ فبراير، هزيمة المحور وانتصار الحلفاء، مظاهرات ١٩٤٦ ... أمواج متتالية يأتي بها المد، ويذهب الجزر، وهو في وقفته، يحرص على التأمل والمتابعة وإلقاء الأسئلة، لكنه لم يحاول الخوض بعيدًا عن الشاطئ.

مرة وحيدة، شارك في مظاهرات ١٩٣٥. نزل مع موظفي الحقانية إلى ميدان محمد علي الكبير والشوارع المتفرعة: يسقط هور ابن الطور ... الاستقلال التام أو الموت الزؤام. أهمل التحذير من أن الرفت — وربما السجن — عقابه، إن لمحه موظفو الإنجليز في المحكمة المختلطة. ضربة شومة من عسكري، أعادته إلى البيت بتورم في ساعده.

شهقت علية بالفزع: تذكر أننا مسئوليتك بعد رحيل أبينا وأمنا.

وغالبت دموعها: لو أنك أوذيت — لا قدر الله — ماذا نفعل أنا ونبيلة؟!

عاد — ثانية — إلى وقفته على الشاطئ، يرقب الأمواج المتتالية، يأتي المد، ويذهب الجزر. يتأمل، ويتابع، ويناقش، ويلقي الأسئلة، ويبدي الرأي في الأحزاب القائمة، وفي الملك، وخروج الإنجليز من مصر ... لا يخطر في باله أن يجاوز موضعه.

لم يكُن يفرق بين الأحزاب، ولا لماذا ترك النقراشي وأحمد ماهر حزب الوفد ليشكِّلا حزب السعديين، ولا لماذا استبدل مكرم عبيد حزب الكتلة بحزب الوفد، وأيهما الامتداد لمصطفى كامل: حافظ رمضان أم فتحي رضوان ونور الدين طراف وقادة الحزب الوطني الجديد؟

لماذا عاودته الرغبة في مغادرة الشاطئ؟ هل لأنه لم يعُد مسئولًا عن أحد؟ هل لأنه بلا عمل يشغله؟ هل هو الفراغ والوحدة والملل؟

في قهوة المهدي اللبان، هتف إبراهيم سيف النصر بدهشة: هل تنضم إلى حزب العملاء؟

أظهر زم شفتيه تأثره: أليسوا مصريين؟

– المصريون فيهم الصالح والطالح.

– إنها محاولة لشغل الوقت.

– اشغل وقتك بما يفيد ... انضم إلى الوفد.

وهو يقاوم الحيرة: لا أعرف مقره.

أشار بيده ناحية شارع رأس التين: ليس بعيدًا عن بيتك ... في الحجاري.

ورمقه بعينين متسائلتين: وماذا تريد من مقر الحزب؟ إنه مجرد مكان لتسجيل البيانات ... ولن تذهب إلَّا في المناسبات.

قال عبد الله الكاشف: ألن أحضر ندوات أو محاضرات.

– هذه فروع أحزاب ... وليست أندية ثقافية ... نشاطها الحقيقي أيام الانتخابات.

أشاح الكاشف بيده: لا داعي إذَن للانضمام إلى أي حزب؟

داخل صوت سيف النصر نبرة تحريض: الوفد حزب كل المصريين ... عضويته شرف!

قال الكاشف ضاحكًا: أنت وفدي متعصب.

اتسعت ابتسامته: أنا مصري متعصب!

ألقى حمادة بك السلام، وجلس.

لم يكُن يعرف المجاملات الاجتماعية قبل أن يشير عليه الحاج قنديل بدخول الانتخابات. لم يجامل في أفراح أو مآتم، ولا جلس على القهاوي إلَّا لإنجاز عمل. مجلسه المفضل رصيف قهوة التريانون. أمامه سعد زغلول والبحر، وعلى يساره الغرفة التجارية وفندق سيسل، وعلى اليمين ميدان محطة الرمل. وكان يجلس في ديليس ومونسنيور وباسترودس وأثينيوس.

أكثر من الجلوس على قهاوي النجعاوي بسوق المغاربة والمهدي اللبان وفاروق. يسكن الطابق الثاني في البيت الذي تقع أسفله قهوة فاروق، لكنه لم يكن يجلس في القهوة. يكتفي بقعدة العصر أمام دكان محمد صبرة، ودرس المغرب في أبو العباس. ربما جلس لإتمام صفقة في القهوة التجارية بالقرب من تمثال الخديو إسماعيل. ثم دفعه عباس الخوالقة — في ترتيبات الانتخابات الوشيكة — إلى الجلوس على قهوة الزردوني. لحظات، يستأذن بعدها لمشوار يدَّعيه. ثم نبهه المعلم نجيب المهدي إلى أن الدائرة الانتخابية تمتد من رأس التين إلى ما بعد المنشية، فتردد على القهاوي الأخرى.

قال عباس الخوالقة: أصوات الصيادين كثيرة ... تضمن نجاحك لو أنك حصلت عليها.

قال حمادة بك: وكيف نضمن أصواتهم؟

– إنهم رجالنا يا حمادة بك.

استطرد متذكرًا: ما دام وقت الانتخابات لم يأت بعد ... فسأحاول من الآن أن أنقل المقر الانتخابي لصيادي أبو قير إلى بحري.

وقال: علينا أن نفعل كل شيء لإنجاح حمادة بك.

قال عبد الوهاب مرزوق في لهجة متفاخرة: ربما استطعت أن أكلم حلمي بك حسين، فهو قريبي.

كان دائم التحدث عن قرابته لحلمي حسين. وكان يتردد عليه في معسكرات الحرس الملكي برأس التين، أيام الصيف، يتابع ترقياته من رتبة الصول إلى رتبة الأميرالاي.

قال عباس الخوالقة: حلمي حسين؟ أليس هو سائق الملك؟

قال عبد الوهاب مرزوق: هذه وظيفته المعلنة ... والحقيقة أنه الثاني في أهميته بعد رئيس الديوان.

غلبت اللهفة حمادة بك: هل يمكن أن يساعد في الانتخابات.

قال عبد الوهاب مرزوق: لن يصعب عليه تخطي أوامر وزير الداخلية محمد هاشم بألَّا يتدخل أحد في عمله.

قال عباس الخوالقة: حتى الملك وعد بألا يتدخل في الانتخابات.

قال عبد الوهاب مرزوق: لو أن هذا حدث، فلن تصبح مصر هي مصر.

أقنعه نجيب المهدي بأن الصيادين لا يرجحون مرشحًا. في الدائرة موظفون وحرفيون وتجار وعمال. المرشح الذكي هو الذي لا تقتصر الأصوات المؤيدة له على شياخة أو اثنتين.

بدأ في الجلوس على قهوة المهدي اللبان. معرفته قديمة بالمعلم نجيب المهدي الكريتلي، قبل أن يوسع نشاط دكان الألبان، ويحيله قهوة. يجاري ذوي الأصل الكريتلي أصحاب معظم القهاوي في بحري. يقضي ساعة أو نحوها، عقب مغادرته البيت في الناحية المقابلة. أبعده عن المهدي حرصه على جلسة العصر أمام دكان محمد صبرة، ودرس المغرب في أبو العباس. عاد بصداقة المهدي القديمة. عرفه بأدهم أبو حمد. أكله الوفد لحمًا، ورماه عظمًا. يجاهر بعدائه للوفد منذ توقيع معاهدة ١٩٣٦، وخروج أحمد ماهر والنقراشي. يتعاطف مع الطليعة الوفدية والحزب الاشتراكي والتنظيمات السرية. لا يشغله مبادئها. يؤيد رفضها لوفد النحاس وسراج الدين. عرفه أبو حمد بعبد الله الكاشف وإبراهيم سيف النصر وفهمي الأشقر وأحمد أبو دومة وحمدي رخا والشيخ قرشي. أهمل وفديتهم المعلنة، وتمنى صداقتهم.

من يدري؟ ربما لو أنه فاز في الانتخابات، تقترب الجزر البعيدة، تمسك قبضة اليد بما لم تصل إليه من قبل، لا تقتصر الحياة على درس المغرب وجلسة العصر والسير بلا هدف في الشوارع. يتردد عليه أصحاب المصالح والشكاوى والمطالب. أسر ورجال ونساء. يتعرف إلى الممكن والمتاح. يهمس بما يطلبه، أو يمليه.

قال له عباس الخوالقة وهما ينصرفان من قهوة الزردوني آخر الليل: دخلنا في الجد ... فحاذر من ألاعيب الخصوم.

فاجأته صورة سعيد النقيب وهو يعايره بمشكلته. يشير لها في جلساته على القهاوي، في نصف الدائرة الملتفة حول إمام أبو العباس، وهو يواجه جسده العاري في الحمام،

وسط انشغاله في حجرة مكتبه المطلة على تمثال سعد زغلول وامتداد الأفق في الميناء الشرقية. لم تعد الانتخابات القادمة شاغله الوحيد. امتثل سعيد النقيب لإلحاح الرجال أن يكتم على الخبر ماجورًا. لا يلمح بسيرة ولا تهديد ولا معايرة. تعود الحياة الزوجية إلى صورتها الأولى.

هل كانت موافقة سعيد النقيب، للتخلص من إلحاح الرجال؟ وهل يفاجئه بضربة، ربما لم يعد لها نفسه؟!

تلاشي الأصداء البعيدة

انتظر قدومها في الموعد، فلم تأتِ. خمن أنها ربما عانت مرضًا مفاجئًا. لما طال غيابها، داخله قلق. مال إلى كشك سيد.

عبد الله أفندي الكاشف؟

روت لي — زمان — عن مضايقة الرجل لها، فماذا تبدل حتى تقبل العودة للخدمة في بيته؟

– ليتك تعودين إلى البيت.

خبطت صدرها بيدها: وأين أنا الآن؟

– أقصد ... لا داعي للخدمة في البيوت.

أظهرت الضيق: أنا لا أخدم في البيوت.

قال: وعبد الله الكاشف؟

شهقت: ما لك يا سيد؟! إنه مثل أبي.

– شكوت لي من مضايقته لك.

– كنت مخطئة ... وأسأت فهم كلامه.

– هل أُقصِّر في الإنفاق على البيت؟

– وهل يضايقك أن أساعد في الإنفاق.

– الرجل مسئول عن بيته.

ثم بملاينة: تحتاجين للراحة كما نصح الطبيب.

– أنا أحافظ على صحتي ... وأنفق على نفسي.

– حتى مصروفك مسئوليتي.

– أنت هكذا تضع العقدة في المنشار!

– قولي إني أريد قطع دابر الخلاف!

قال سيد وهو يتشاغل بترتيب البضاعة: أنسية لم تعُد تحتاج إلى الخدمة في البيوت.

قال عبد الله الكاشف: أنسية ليست خادمة ... وأنا لا أعتبرها كذلك.

قال سيد: واقع الحال أنها كانت خادمة ... وهي الآن زوجة لرجل.

انداحت — في داخله — الأصداء البعيدة. تماوجت، وتشابكت، فغابت الملامح المؤكدة. حين لَمَّح لأنسية، كان يغالب شعورًا لم يتدبره. أقرب إلى اليأس، أو محاولة النفاذ من حصار. لحظة قذف بها الفراغ القاسي الذي يحياه. أثارته وهي تقف أمامه بملابس مبتلة، التصقت بلحمها. بدت كغشاء رقيق شفيف، يبين عن لون البشرة. أهمل اللحظة التالية، وماذا يجب أن يحدث. لم يدُر بباله صورة العلاقة التي لَمَّح للمرأة بها. رفض مجرد التصور أنه ربما يصحبها إلى حجرة النوم، أو أن العلاقة بينهما ستتأثر بما حدث. شاهد — زمان — فيلمًا في سينما الكونكورديا بالمنشية. أغوى السيد خادمته، حتى أسلمت له نفسها. لم تعُد — في اللحظة التالية — تناديه: يا سيدي! نادته باسم التدليل الذي تناديه به زوجته.

هل شجعته وقفتها على باب الحجرة؟

حافية، تجفف يديها في جانبي الجلابية، وتتكلم. تروي مشاهدات في الطريق، تسأل، تطلب رأيه، تضحك، تلتمع عيناها بما يدفعه إلى تصورات.

تأملها وهي تتجه إلى المطبخ، القوام ملفوف، وخطوط الجسم واضحة تحت الجلباب، والردفان يهتزان بعفوية، واتساخ الساقين لا يخفي امتلاءهما، ولا استواءهما، ولا صفاء البشرة.

استأذنت في أن يترك الحجرة، حتى تنظفها.

قال: كانت أختي علية تتولى تنظيفها.

روى لها عن حياته، في البيت، منذ طفولته. قوة غريبة لا عهد له بها، أنطقت لسانه، جرت بالكلمات دون أن يتدبر المغزى، ولا لماذا قالها. أنسية تنظف وتكنس، وهو يلاحقها بالروايات المتناثرة، والمختلطة. كانت تومئ، فتهبه الأمل. تعود إلى عملها فيلملم خشيته، ويلزم الصمت. خشي أن تسيء فهمه، فتعامله بما لا يليق بسنه ولا مكانته.

توزعته الحيرة. المشاعر في داخله: هل هو الحب؟ أو هي مجرد رغبة؟

ياه! في هذه السن؟!

لم يكُن قد عرف امرأة في حياته، فكيف يعرف أن هذا هو الحب؟

أشفق على نفسه مما حدث. هل ضايق أنسية، فصدَّته، أو أن ما حدث لم يكُن سوى حلم؟ تصور أن الأمر كله سينتهي لو فتح عينيه. لو استيقظ مما هو فيه.

لو أن أنسية أسلمت له نفسها، من يدري؟ هل كانت تعامله مثلما تعامله الآن؟ هل كانت تقول له: يا أستاذ، ويا سيدي، وتخفض عينيها في وجهه؟ هل كانت تتقبل ملاحظاته وتوجيهاته وغضبه؟ هل كانت تكتفي بدورها كخادمة، أو تطلب مزايا العشيقة؟ تدخل الشقة، وتخرج منها بلا إحم ولا دستور. تظل في البيت سواء كان لديها عمل، أم لمجرد أنها تريد البقاء. تأخذ ما ترى أنه حق لها، لا تطلعه عليه، ولا تستأذنه. وهل كان يستطيع طردها؟ وماذا يفعل لو أنها رفضت قراره؟

لم يدُر بباله أنه سيضاجعها، أو أنه — بالتحديد — لم يشغل باله بما بعد التلميح: كيف يتصرف لو أنها وافقت. ظلت المساحة بيضاء، لم يملأها بتكوينات ولا ألوان ولا ظلال. شيء لا يعرف كنهه، لعله الملل أو الوحدة، دفعه إلى التلميح بما لم يتصور أنه يفعله. ومض كالبرق الخاطف في سماء سوداء، خالية من النجوم. ضايقه رفضها، كلماتها الساخطة، ثم تواصلت السكينة في داخله. أخذ جانبًا. يقضي الوقت — ساعات عملها — في الشرفة المطلة على البوصيري.

رآها — مرات كثيرة — في دخوله البيت، وخروجه منه. عرف أنها تتردد على شقة المعلم عصفور في الطابق الأرضي. تطل من الخلف على دحديرة أبو العباس. أبطأ من خطواته وهي تعالج المفتاح في باب الشقة: كيف حال المعلم عصفور؟

وشت الحمرة في وجهها بالمفاجأة: الحمد لله.

غالب تردده: هل أنت من أقاربه؟

– أنظف له الشقة.

أنقذته جرأته: هل لديك وقت لتنظفي شقتي؟

لما سألها: أين تقيمين؟ اكتفت بالقول: عند جماعة!

أدرك أنها لا تريد أن تخبره أين تسكن. كان قد اطمأن إلى أمانتها. ترك لها مسئولية ما لم يفلح فيه: تجهيز الطعام، وغسل الثياب، وتنظيف الشقة. تغاضى عن العمود الذي لا بد أنها تأخذه إلى سيد في الكشك.

عرف — بالمصادفة — من هي، وحقيقة ظروفها عندما زاره المعلم عصفور في الحقانية. ساعده في إنهاء أوراقه.

فاجأه المعلم بصوت متلون النبرات: لم أكن أعرف أنك شقي.

فاجأته الملاحظة. أهمل ما بيده من أوراق، وتطلع إلى الرجل بعينين متسائلتين.

قال المعلم: أنسية.

– ما لها؟

– عرفت أنها تتردد على شقتك.

– لتنظفها ... مثلما تنظف شقتك.

أطلق الرجل شخرة: والمآرب الأخرى؟

– أي مآرب؟

– أنت أعزب فلك عذرك ... أما أنا، فأعترف ... لا عذر لي.

نفخ في نفاد صبر: أنا لا أفهم شيئًا!

وفتح فمه في ذهول لما رواه الرجل: أنسية تسبقه في الدخول إلى الشقة، والخروج منها. وقال المعلم عصفور كلامًا به إشارات وتلميحات. ثم علا صوته بالدهشة: معقول يا عبد الله أفندي أنك ...

قاطعه: أنا لم أعرف هذا الأمر في شبابي ... فهل أعرفه الآن؟

أزمع أن يظل باب الشقة مغلقًا في وجه المرأة، لا يفتحه إلَّا إذا ضغطت على الجرس، أو يفتح الشراعة ويطردها، أو يأذن لها بالدخول، ثم يصارحها بأنه عرف كل شيء. من هي، وماذا تعمل.

لما أتت في موعدها، وضغطت الجرس، فتح لها الباب، ثم مضى — كالعادة — إلى حجرته.

قال سيد: إذا أمرتني ... أحضر لك بنتًا صغيرة.

واستطرد في نبرة محايدة: بنت شاطرة ... أبوها واقف على أورمة في الحلقة.

وربت صدره بأصابعه: أنا أضمنها ... كأنها أنسية!

حياة جديدة

حين أعلن عن بدء فتح باب الترشيح للانتخابات، كان برد الشتاء ينداح في الشوارع والأزقة. خلت إلَّا من مارة قليلين، وأغلقت النوافذ وأبواب البيوت والدكاكين، وعلت الأمواج الحواجز الأسمنتية. اقتحمت سور الكورنيش، ووصلت إلى الجزيرة الطولية، أوسط الطريق، وتناثر الرذاذ على الرصيف، في الناحية المقابلة، وعلى واجهات القهاوي والكازينوهات.

عاد الحاج قنديل إلى مألوف جلساته أمام دكان الحاج محمد صبرة وعلى القهاوي. ذكَّره عباس الخوالقة بواجب الصداقة. تقلصت دائرة الأصدقاء القريبين بابتعاد الشيخ طه مسعود عن بحري، وسفر عبد الرحمن الصاوي إلى القاهرة. شارك في المناقشات، وأجاب على الأسئلة، وأصدر النصائح والأوامر.

قال الحاج قنديل: أول ما تفعله بإذن الله، تخفيض الضرائب علينا ... وإن أمكن فإلغاؤها.

بطن كلماته بالود: أنت تحدثني عما يخص المعلمين ... لكن الصيادين لهم أصواتهم أيضًا.

– الخير الذي يتحقق لنا يصب على الصبيان.

أهمل الحاج قنديل الكثير من الصفات القديمة، وإن ظل حريصًا على صفة المعلم والصبيان. يوافق على الأسئلة، وإبداء الرأي، والمناقشة، ولا يأذن بتجاوز الحائط الزجاجي. محاولة النفاذ منه يواجهها الصبي بلوم وشتائم قاسية. ربما طرده من المكان. يبتعد، فلا يعود إلَّا إذا رفع عنه الحاج غضبه.

قرأ حمادة بك الفاتحة مع الحاج قنديل. يضمن له أصوات الصيادين والسماكين والمترددين على الحلقة. أوكل لعبد الوهاب مرزوق مهمة كتابة كلمات الدعاية على الأوراق

واللافتات والملصقات. قرر عبد الوهاب مرزوق أن يستغني بذلك — ولو أيام الانتخابات — عن زيادة الدخل بإعطاء الحقن في البيوت.

قال الحاج قنديل: السرادقات مهمة جدًّا ... الجولات وسيلة الفقراء ... ولا قيمة لها!

استطرد وهو يعدل النظارة فوق أنفه: الناس يهمها الأنوار والزينات والخطب!

ثم وهو يومئ ناحية القهوة: ولا تنسَ المعلم الزردوني ... تأثيره على الناخبين يفوق تأثير أولياء الحي على عباد الله.

قال الزردوني في لهجة واثقة: هذه قهوة سياسية منذ أيام سعد زغلول ... من يأخذ أصوات زبائنها، ضمن الفوز!

قال عباس الخوالقة: بوسعك أن تطلب من المعلم الزردوني توزيع شربات النجاح.

قال حمادة بك: الانتخابات لم تبدأ يا حاج.

هز كتفيه في استهانة: اعتبرها انتهت ... الفوز مضمون بإذن الله.

كان حمادة بك قد عرف الطريق إلى المناسبات. يشارك في الأفراح، وفي الجنازات، ويجلس في سرادقات العزاء. وقع كوكيل على عقود للزواج، ودفع النقوط، وأرسل برقيات التهاني. سلم على أصحاب الدكاكين، والجالسين على الأرصفة وأمام أبواب البيوت. حتى المارة في الشوارع، يمد يده بالمصافحة دون أن يتأكد من الملامح. هز رأسه في حلقات الذكر بأبو العباس وياقوت العرش والبوصيري وأمام نصر الدين. التقى بالناخبين في القهاوي والدكاكين والجوامع والشوارع. زارهم في البيوت. حتى مباريات الكرة في الساحة الملاصقة لحلقة السمك، حرص على مشاهدتها. وكان الرجال يزفونه، ويهتفون له، والنساء يزغردن من النوافذ، وعلى أبواب البيوت.

تبرع بعشر قطع من السجاد الشيرازي لجامع أبو العباس. هو قطب الإسكندرية، وسلطانها، وأهم أولياء الحي. وأعلن عن فتح فرن التمرازية يومًا في كل أسبوع لتوزيع الخبز — بالمجان — على فقراء الحي. كل فرد له ثلاثة أرغفة. وعد بسفلتة شوارع السيالة، وتوصيل المياه النقية والنور، وزيادة مساحة الأرض الجديدة المقتطعة من البحر، أمام مساكن السواحل. يبني عليه مساكن جديدة للصيادين، ومدرسة، ومسجدًا، ومستشفى وملعبًا للكرة. ووعد بصرف تعويضات للصيادين في حالات الغرق، أو تعطل البلانسات، وبإعانات من الحكومة أيام النوات والبطالة. وإقرار مكافأة نهاية خدمة للصياد عند التقاعد، ووعد بأن يجد عملًا لكل متعطل من أبناء الحي، وزيادة حصص التموين من الشاي والسكر للقهاوي، وتوسيع خدمات مستشفى الملكة نازلي، فلا يقتصر على أمراض

النساء والولادة وأمراض الأطفال. وأعد للتوزيع على تلاميذ مدارس الحي، أقلامًا ومساطر وكراريس وكشاكيل، طبع عليها صورته.

اتفق مع مطبعة «المستقبل» بشارع الأباصيري، لطبع أوراق الدعاية. تعلوها صورته، وتحتها كلمات كتبها له عبد الوهاب مرزوق. استهواه تفسير عبد الوهاب مرزوق لاستقلاله عن الأحزاب بأن حزبه هو أبناء بحري. صار يردد الكلمات ومعناها في قعداته.

قال الحاج محمد صبرة إن حمادة بك يرشح نفسه عن دائرة الجمرك كلها. إذا أراد الفوز، فعليه أن يمد جولاته إلى شوارع الحجاري وأبو وردة وإسماعيل صبري والموازيني وفرنسا والميدان والتتويج ووكالة الليمون. حتى الأزقة والحواري المتشابكة، المتصلة، إلى ميدان المنشية، عليه أن يجوبها. يسلم على أصحاب الدكاكين، والجالسين في القهاوي والغرز، والمارة.

قال الحاج قنديل: جمال كاتو مرشح الوفد ... هو الوحيد الذي نضع له حسابًا.

أومأ برأسه: صحيح.

وربت كتفه: لكن الرجل موظف في الحكومة.

قال الحاج قنديل: أتصور أنه استقال.

قال محمد صبرة: لا تصور في الأمر ... القانون يحظر الجمع بين الوظيفة وعضوية مجلس النواب.

قال الحاج قنديل: المهم أنه أفلح — قبل استقالته — في نقل آلاف الأصوات من وزارته إلى دائرة الجمرك ليحققوا له الفوز!

مال عبد الوهاب مرزوق على حمادة بك: لا نريد للشائعات أن تؤثر على نتيجة الانتخابات.

ردد حمادة بك الكلمة: الشائعات؟!

– يدَّعون أنك تضيِّق على عمالك.

شعر أنه قد أُلقيَ إليه طوق النجاة في قلب دوامة. ذهب باله فيما تصور أنه نسيه. أعادته إلى ذهنه الهمسة المفاجئة. السؤال يشغله: ماذا لو أن أنسية باحت بالسر إلى سيد، فنقله إلى أحد خصومه؟

اصطبغ وجه عباس الخوالقة بحمرة داكنة، حين همس قاسم الغرياني بلهجة معتذرة: ولكن حمادة بك لا صلة له بالصيادين.

لما أنقذه قاسم الغرياني من الغرق، منحه نقودًا ونسيه. يراه في القهوة، وفي الحلقة، وفي الطريق، فلا يتبينه، ولا يكلمه، أو يسلم عليه. يكتفي بجلساء الحاج محمد صبرة. إذا لم يجدهم، أو يجد واحدًا منهم، غادر المكان.

صرخ الخوالقة: الرجل يقضي معنا أكثر مما يقضيه في بيته!

كان قد سلم عباس الخوالقة رزمتين من الأوراق المالية، فئة خمسة جنيهات. يقطع الخوالقة الورقة نصفين. يعطي الصياد نصفًا، ويحتفظ بالثاني، ثم يقرب المصحف من وجه الصياد. يقسم أن يعطي صوته لحمادة بك.

استطرد الخوالقة بنبرة غاضبة: نحن نعرف عن حمادة بك أصله وفصله ... أما المرشحون الآخرون فغرباء عن الدائرة.

لم يكن خميس شعبان قد أدلى بصوته في الانتخابات من قبل، ولا حمل بطاقة انتخابية. أهمل الأمر حتى رأى قاسم الغرياني يتأمل بطاقته.

– هل لديك بطاقة انتخاب؟

وهو يقلب البطاقة بيده: لم أكُن أعرف شكلها.

قال خميس شعبان: اذهب إلى القسم ... لا بد أن اسمك مدرج في جداول الانتخاب.

نفى الغرياني بهز رأسه: لا ... إلَّا إذا كانوا قد فعلوها من أنفسهم.

– هل هذه البطاقة لازمة للانتخابات؟

قال الغرياني: لا تدخل لجنة الانتخاب إلَّا بها.

– ماذا أفعل إذَن؟

قال محيي قبطان: حمادة بك يستخرج لك بطاقة.

قال خميس شعبان: وأنتخبه؟

قال محيي قبطان: طبعًا.

قال خميس شعبان: لكنني لا أريد انتخاب هذا الرجل.

قال محيي قبطان: لَمن ستعطي صوتك؟

رمقه في ريبة: لم أقرر.

وتلفَّت — بتلقائية — حوله.

زغد الغرياني محيي قبطان بود: تريد انتخاب حمادة بك ... أم مجاملة المعلمين؟

وتنهد في نفاد صبر: بصراحة ... سأنتخب جمال كاتو مرشح الوفد.

تلفت حوله هامسًا: حمادة بك صديق المعلمين ... فليكتفِ بأصواتهم!

قال حمودة هلول: لكننا أعطينا كلمتنا.

– كلمة الغصب لا قيمة لها.

– لن تنتخبه إذَن؟

أعاد التلفت حوله: ربنا يسهل!

قال عباس الخوالقة لعم سعد صاحب المجيرة بشارع إسماعيل صبري: تعرف أنك لن تفوز ... فلماذا ترشح نفسك؟

بدا الخبر كالمفاجأة، وإن أَلِف الناس ما فعله في الانتخابات السابقة. يرشح نفسه، ثم يسحب ترشيحه مقابل مبلغ من المرشح الذي يتنازل له.

قال عم سعد: من حق أي إنسان أن يرشح نفسه ما دام يملك التأمين.

– تعرف أنك ستفقده.

– ولماذا لا أفوز؟ أنا من الحي ... والناس يعرفونني!

غلف حمادة بك صوته بمداهنة: فإذا تنازلت لأخيك؟

قال عم سعد: سأتنازل بالثمن الذي أحدده ... وربما بدت الريح مواتية، فلا أنسحب، وأكسب!

بحلقت عيناه: وتصبح نائبًا في البرلمان؟

هز عم سعد كتفَيه بلا مبالاة: وما له؟ أجيد القراءة والكتابة ... وغيري لا يفك الخط!

ورسم على شفتيه ابتسامة باهتة: إذا كان البحر مليئًا بالسمك، فلا تتردد في إلقاء شبكتك.

زفر حمادة بك في ضيق: أنا لا أخشى الرجل نفسه ... لكنني أخشى من تفتيته للأصوات!

تناول عم سلامة حبات الملح بإبهام وسبابة يده اليمنى، وألقاها من فوق كتف حمادة بك الأيسر.

ذهب الملح إلى الشيطان، واختفى الشر.

رقصة لعرائس البحر

لما انتهت حلقة المسلسل الإذاعي في الخامسة والربع، تأكد الرجال أن حمادة بك لن يصل. تضاربت الآراء حول ما إذا كان قد قدم أوراق ترشيحه للانتخابات، أم أنه قد آثر الانسحاب قبل أن تبدأ المعركة.

كانت قهوة الزردوني قد امتلأت بالصيادين. من اعتادوا الجلوس عليها، ومن قصدوها لدواعي الانتخابات. حتى الحاج قنديل، عاد إلى القهوة بعد غيبة.

استند الكثيرون إلى الجدران، أو جلسوا على الرصيف. وتناثر رجال، إلى ناصية حارة أبو يوسف، يصيحون لمرأى أية سيارة. أجهدت الأعين تحديقها في القادمين من أول السيالة، ومن الشوارع الجانبية. ربما توقعوا مجيئه من ناحية البحر، فتتجه الأعين ناحية شارع فهمي الناضوري.

نفخ الحاج قنديل: هل فعلها الرجل؟!

قال عباس الخوالقة: ولماذا أنفق كل تلك الآلاف؟

قال خميس شعبان مطمئنًا: لعله قدم أوراق ترشيحه ... ثم انشغل.

قال الحاج قنديل في ضيق: وموعده معنا؟

قال خميس شعبان: ما يهمنا هو أن يقدم أوراق ترشيحه قبل انتهاء الموعد.

قال الحاج قنديل: هذه مشكلته.

قال عباس الخوالقة: واتفاقنا معه؟

قال الحاج قنديل: اتفقنا لصالحه ... لا لصالحنا!

وداخل صوته غضب: فعلها الرجل بعد أن شلحت جلبابي للنزول في البحر!

قال خميس شعبان مواسيًا: أنت الحاج قنديل ... لا حاجة بك لحمادة بك ولا لأي نائب!

جلس قبالة البحر، في كازينو الإبراهيمية. ترك للمحامي مهمة إنهاء أوراق الترشيح. يلتقيان قبل الثانية، لتقديم الأوراق.

كان يتطلع من النافذة الزجاجية، المفتوحة. البحر حصيرة، والمياه رائقة، شفافة، والموج يلامس الرمال ببطء، ويرتطم بجوانب الكازينو. وثمة طيور النورس وعصفور الليل والعصفور الأسود والعنزة، تحلق في امتداد الشاطئ.

فاجأته المرأة.

بدت بثيابها المتواضعة غريبة عن الشاطئ. نظراتها المتطلعة ناحيته، حيرته. تلفت، فتبين خلو المكان.

مضت خطوات حتى لامست قدماها الماء. تدافعت الأمواج، وامتدت. غطت قدميها وساقيها إلى قرب الركبة. هرولت عائدة بظهرها.

لاحظ أنها ترفع ساقيها بما قد لا يلامسه مد الأمواج.

خمن أنها تغويه. تعمَّد التحديق لتفهم أنه فهم.

دارت بطرف إصبعها على ثديها، ثم جرت أصابعها بالهرش في ساقيها.

غالب تردده، ولوح لها. ردت عليه بتلويحة من يدها. وتناهت إليه أصداء ضحكتها.

أشار إليها. همس بما يطلب. سبقته إلى الأوتوبيس المتجه للمنشية، ولحق بها. مالت من شارع السبع بنات إلى شوارع وحواري وأزقة. لكثرتها، ولتعدد الانحناءات، غاب المكان، وإلى أين يمضي.

أوغلت به في الانحناءات. تتسع وتضيق وتعلو وتهبط وتتلوى. نساء جالسات على الأبواب، والأفخاذ متعرية، والأثداء تلقمها أفواه الصغار، وأولاد يلعبون، وذباب وطين وكومات زبالة ومياه غسيل — أبطأ من خطواته حتى لا يتزحلق فيها — وقطط وكلاب وخنازير وروائح طبيخ ومجاري ونداءات باعة وزعيق وشتائم. وتترامى من داخل البيوت المغلقة أحاديث هامسة وضحكات وغنج وبكاء أطفال.

دخل وراءها طرقة ضيقة، مظلمة. تفادى أجولة وطسوتًا وأقفاصًا وعروقًا من الخشب.

فتحت حجرة مواربة.

الظلام الشفيف يتيح رؤية الأشياء. الحجرة واسعة، مرتفعة السقف. تآكلت جدرانها، وتقشر طلاؤها. وثمة نشع هائل، ابتلع الركن العلوي. لها نافذة خشبية مغلقة، يتسلل منها ضوء خافت.

وقفت في وسط الحجرة.

تأففت من الحر. نزعت الملاءة. كانت ترتدي قميصًا من الحرير الأسود الشفاف، بحمالتين من الدانتيلا، ويحيط به من أعلى الصدر نقوش جميلة ملونة. أميز ما فيها بشرة سمراء، وعينان واسعتان، مكحولتان، وحاجبان رفيعان، وصدر كبير، وشفة سفلى ممتلئة.

هل ظلَّا بمفردهما؟ هل دخل الحجرة آخرون؟ ولماذا تناهى الأذان في غير موعد؟

تداخلت الأصوات في الغابة، فغاب الصوت المحدد. وضعت ذراعيها حول خصرها، ومالت بأعلى جسمها. علت موجة فداهمتهما، طوتهما في لجتها. تمطت في مساحة الحجرة، وتواصل الزمان في لحظات مختلطة، متشابكة، وعلت أغنيات الفحيح، ومالت الجدران، وتراقصت، وترامت أغنيات قديمة، وومضت بروق المتعة، وتعالت صرخات النشوة والألم، وقالت الأم: إنه يبكي منذ طردت القط. وقال الأب: هذا أهون من خربشات القط له، وتحركت آلاف الأيدي والأقدام، وانطلقت — دون صوت — صيحات الاستغاثة، وحلقت طيور، وتراقص جان ومردة وعفاريت، وعلت الأمواج، وتلاحق المد والجزر، وتداخلت النوات، والتفت الأشرعة حول الصاري، فأدمته، ودار القارب حول نفسه، وهبط إلى القاع، فتلقفته عرائس البحر، والتمعت الأصداف ببريق أخاذ، وتطايرت الأسماك، ولثمت المياه رمال الشاطئ، وتأوهت الأقدام لنتوءات الحصى، وومض البرق، وهطلت الأمطار كالسيل، وانطلقت النيران من فوهة الفرن، ولطمته عروس البحر بذيلها السمكي فغاب في أعماق السحر، وانسدل شعرها على وجهه فغطاه، وتفجر الينبوع، وباحت الحياة بسرها، النشوة الحقيقية: سر الأسرار، ومبعث الوجود، وأخذ الوجد حلقة الذكر.

صحا — في حدائق الشلالات — على ذؤابات الشمس وهي تنسحب من فوق الأشجار. تبين أن المرأة تركت له ثيابه الداخلية وحدها.

أهمل صرخة نهى حين فتحت له الباب. مضى إلى حجرته، فلم يغادرها. رفض الإجابة عن الأسئلة. شدد على الخدم أن ينكروا وجوده. حتى فؤاد أبو شنب رفض استقباله. نقل إليه الخدم كلامًا عن نقص الدقيق والمازوت، فاكتفى بالقول: قولوا له يتصرف!

دوخته المرأة، فغاب عنه المكان.

لو أنه عرفه، هل يقوى على البوح؟ هل كانت المرأة تعرفه؟ هل دسها عليه خصومه؟ لو أنها تعرفه، فلماذا أخذت ما أخذت؟ ربما استعاد الأمر، ومنحها المزيد. اللاذكريات هي ما يتذكره. دخل البيت القديم فغفا، وصحا في حدائق الشلالات. لماذا؟ وكيف؟ وهل كانت نظرات المرأة موزعة، أو أنها اختصته بها؟

كتم الهواجس داخله، فلم يعلنها. صارح أنسية ففتح على نفسه طاقة جهنم. يقدِّر ويبني ويخمن ويفسر الأقوال والتصرفات. يخاف أنها روت ما حدث لسيد، أو لسواه.

حاول أن يقدم أوراقه صباح اليوم التالي.

اعتذر مأمور قسم الجمرك بالأوامر. كان قد أبلغ الداخلية بأسماء المرشحين، وانتهى الأمر.

غادر مبنى القسم مذهولًا: هل انتهى الإنفاق والجولات المتعبة وجلسات القهاوي والوعود والاتفاقات والسيارات الأربع تطوف الحي، في كلٍّ منها مكبر يدعو لانتخابه ... هل انتهى ذلك كله إلى نكتة سخيفة؟!

قال قاسم الغرياني: خدمته الظروف! فلو أنه دخل الانتخابات ربما أخفق في استرداد التأمين.

قال حمودة هلول: كان يعتمد على تأييد المعلمين.

هتف الغرياني مستنكرًا: المعلمين؟! إنهم لن ينتخبوه نيابة عنَّا!

اتساع الدائرة

صحا، فوجد الشقة غارقة في الظلام. هل نسي إضاءة نور الصالة، أو أن الكهرباء مقطوعة؟

أفسحت له يده، حتى اصطدمت أصابعه بالحائط. واصل التحسس، حتى عثر على زر النور.

انداح الضوء، فأدرك أن النوم سبقه قبل أن يضيء نور الصالة. تمدد للاسترخاء، فنام.

تقلب على السرير. استعاد ما حدث نهار أمس. الإعداد للجولة الانتخابية في قهوة فاروق. اجتذبته دوامة المظاهرات والسرادقات والمقار الانتخابية واللافتات والملصقات والهتافات والشعارات. السير وراء المرشح على القهاوي، ومصافحة أصحاب الدكاكين. المشاركة — باستحياء — في ترديد الهتاف: إن جيت للحق ... كاتو أحق! صياغة ملصقات الدعاية، وتعديلها، وتصويب أخطائها اللغوية. الجولات الانتخابية، والسرادقات، والمنشورات، والأقواس. اللافتات فوق الدكاكين والقهاوي، وعلى الأعمدة الخشبية، تدعو للمرشحين. أسماء لا يعرف معظمها.

تمنى لو أن القهوة فتحت أبوابها حتى الصباح، فلا يعود إلى البيت. يعاني الوحدة بين الأثاث الساكن، والجدران، والصمت. يتعشى بطعام خفيف: جبنة بيضاء، وزيتون، وعلبة زبادي. ربما اكتفى بثمرة فاكهة. حتى الشارع في أسفل يسكن تمامًا. لا حفيف سيارة، ولا قرقعة عربة حانطور أو كارو، ولا وقع أقدام، ولا نداءات. ليس إلَّا الصمت، يسيطر على مشاعره، يتخلل حواسه.

أصبحت المعركة الانتخابية حياته. يصحو لها، وينام عليها. يتنقل بين المقر الانتخابي لمرشح الوفد في قهوة فاروق وقهوة كشك وبين الجوامع والقهاوي والدكاكين وأندية

السيالة. يصحب جمال كاتو في جولاته بشوارع الحي، في مظاهرة أو بمرافقين لا يزيدون عن الخمسة. يعد الشعارات، ويطبع النشرات الانتخابية، ويشرف على تعليق اللافتات فوق الأعمدة، وعلى جدران البيوت وأبواب الدكاكين، ولافتات القماش الأبيض المثقوبة تصل الطوابق الأولى للبيوت المتقابلة. حفظ اللافتات الملصقة على الجدران، ولافتات القماش: ابن الدايرة ... نصير الفقراء ... الرجل النزيه ... صديق الجميع ... ابن سعد زغلول.

راقه أن الرجل أستاذ جامعي. تعلم في جامعات أوروبية، وحصل على شهادات ودرجات علمية كبيرة. تأمله وهو يجالس الناخبين، وهو يُلقي خُطَبه في السرادقات، وهو يتعامل مع معاونيه. يكتفي بإصدار الأوامر، ولا يتباسط. يميل إلى الصمت والتأمل. إذا جلس على القهاوي، يجيب على الأسئلة، فلا يزيد.

وسَّطه جمال كاتو لإقناع رشاد الحلاق بشارع جودة حتى يسحب ترشيحه. في حوالي الخمسين. ضئيل القامة، يرتدي جلبابًا من الكستور، دهن شعره بالصابون، فبدا متبلدًا، مشَّطه إلى الوراء. وله عين حولاء، لا يستطيع منها تبين اتجاه نظراته، ونظارته الطبية بلا ذراعين، فاستبدل بهما قطعتي دوبارة التفتا حول أذنيه. وتناثر في وجهه ثقوب دقيقة بتأثير جدري قديم، والكلمات تصدر من سقف حلقه، فتحدث صوتًا كالطرقعة.

قال الرجل: لا أريد سوى التعويض عن رسوم الانتخاب، وتكاليف إقامة السرادق.

قال الكاشف: أي سرادق؟

– دفعت مقدمًا لسرادق ... ولا ذنب للفراش في بقية التكاليف.

– كم؟

وهو يتلمس الكلمات: هناك أيضًا ما أنفقته على شراء الأصوات.

تناثر الرذاذ من فم الكاشف: يا رجل ... أنت لم تبرح مكانك.

جرى براحته على رأسه في تثاقل: مرشحك هو الذي يطلب تنازلي.

كان يعبِّر بانبساط عضلات الوجه وانقباضها، والتفاتات الرأس، وحركة اليدين، وعلو الصوت وانخفاضه. فإذا أثاره محدِّثه، أطلق شخرة كالخوار.

أعفاه عباس الخوالقة من الحرج. انتحى بالرجل في زاوية قهوة مخيمخ، وحصل على توقيعه بالتنازل.

فوجئ الكاشف في نفسه لما ردد الهتاف وراء إبراهيم سيف النصر. عرف في نفسه الخجل، حتى من الكلام وسط جماعة، لكنه انساق وراء التدافع. خاض زحامًا قرر الخروج منه مرات كثيرة، لولا أن البديل اختفى. تبدأ الجولة من قهوة فاروق. تمضي

إلى ميدان المنشية. تخترق الشوارع والأسواق المحيطة، أو تمضي إلى داخل بحري. تنطلق من ميدان الخمس فوانيس، إلى رأس التين والأنفوشي والسيالة. الشوارع القديمة، كثيرة الالتواء، المتشابكة، المتداخلة، تعبق برائحة الزمن. رائحة لها خصوصيتها، تبين عن انتماء المكان إلى بيئة البحر، وثمة فجوات بتأثير الرطوبة والملوحة في واجهات البيوت. والمداخل تضيق بألواح الخشب والفلين والحبال والغزل. ورائحة المعسل المحترق، وبخار الفول يتصاعد من القدور، وطرطشات الطعمية، وقلي السمك. والنساء يتنادين — ويتكلمن — من النوافذ والشرفات المتقاربة، ومن أمام الأبواب. أو يستروحن النسمات المترامية من ناحية البحر. ورائحة لا يدري طبيعتها تصدر من بيوت حارة اليهود، رائحة نفاذة، غريبة، لا يعرف سرها، والقهاوي والمطاعم ودكاكين البقالة والعطارة والسمك والخضروات، والعربات تتقابل — تنفذ منها الجولة بصعوبة — عليها أقراص الجبن التركي وأقفاص الخضر والفاكهة والمصنوعات البلاستيكية وجريد الخبز، ومرساة الميناء الشرقية: المراكب الشرعية الصغيرة، والفلايك، والكواتر، والدناجل، واللواتس ... يحاذر برك المياه الطينية في الطريق، أو لا يحاذرها. أجاد التخمين بين مياه الاستحمام المخلوطة بالصابون ذي الرائحة، ومياه الغسيل المصطبغة بلون الزهرة، والمياه المتخلفة من تنظيف السمك.

تتردد الهتافات خافتة. تترك لارتفاع أمواجها انضمام المارة وأصحاب الدكاكين. تتضخم في سيرها. تقترب من المظاهرة.

قال له الجرسون ياقوت في ود يسيل لزوجة: أنا وأنت هتيفة ... الفارق أنك تهتف بلا مقابل ... أما أنا فأتقاضى خمسين قرشًا آخر النهار.

ثم وهو يجري بأصابعه على رقبته: نبحة صوتي لها ثمن!

خيل له أنه يستمع إلى صوته للمرة الأولى. لا يتذكر أنه علا بصوته من قبل. هي أحاديث متبادلة. أخذ ورد، لا يعوزه ارتفاع الصوت. لم يكن يهتف بصوته. ثمة صوت تنفرج به شفتاه. يعلو ويمتد. يعيد الهتافات. يغالب التردد والخجل. يشفق من أن يراه زميل في الحقانية. سيعود بما رأى، مضيفًا إليه ما لم يفعله، ولا خطر في باله. تتشوه المكانة التي خرج بها إلى المعاش، وربما تسقط تمامًا.

مال عباس الخوالقة على أذن عبد الله الكاشف: إذا كان مرشحك يريد الفوز حقًّا ... فإن الأصوات الحقيقية هنا ... في الأنفوشي ورأس التين!

واتجه إلى أحمد الزردوني بنظرة محرضة: ما رأيك يا معلم لو أنك رشحت نفسك، بدلًا من التعب لإنجاح الآخرين؟

قال الزردوني: قعدتي في القهوة أبرك من مليون مجلس نواب!

قام ليشرب من القلة الموضوعة على الحامل داخل الشرفة. لاحظ الرجال الثلاثة، تكوموا في حديث هامس على باب ميضأة البوصيري.

حاول أن ينصت — بالفضول — إلى ما يهمسون.

أخفق، فعاد إلى الداخل.

ونفس وما سواها

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

قرآن كريم

قال أبو الحسن الشاذلي:

«مَن أحب الله، لم يستعمل جوارحه إلَّا فيما يوافق محبوبه، وأنفاسه كلها محفوظة بالطاعة. ولو حيل بينه وبين الخدمة لفارق الدنيا من ساعته، لأن الطاعة قد صارت غذاء أرواحهم، فإن فارقوها ماتوا. نفعنا الله بهم. آمين!»

قال أبو العباس:

«وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ، فيكون آخذًا عنه، وكفى بهذا منه.»

صعد الشيخ عبد الحفيظ — إمام سيدي علي تمراز — المنبر.

لاحظ سريان الهمس في صفوف المصلين. نظر إلى النجفة المتدلية من أعلى صحن الجامع، وقال: إني أكلمك!

كرر القول بصوت أعلى.

فهم المصلون ما يعنيه، فاتجهوا إليه بانتباههم.

حمد الله، وأثنى عليه، وعلى آلائه، وشكر نعماءه، وصلى على محمد صفيه، وخاتم أنبيائه.

استعاذ بالله من سيطرة الشيطان على العقول، ثم دعا المصلين إلى انتخاب المرشح الأصلح. لم يذكر الاسم، وإن تحدث عن دور الوفد في الحركة الوطنية، ومقاومته لوصاية الإنجليز والسراي.

علا صوت الشيخ: قال رسول الله ﷺ: مَن ولي من أمور أمتي شيئًا، ثم لم يجتهد لهم، ولم ينصح، فالجنة عليه حرام.

همس إبراهيم سيف النصر في نفسه: ينصر دينك يا شيخ عبد الحفيظ ... اعتدل الميزان بكلمتك!

كان إمام أبو العباس قد أذهل الجميع بدعوة المصلين إلى انتخاب مرشح الأحرار الدستوريين. أعاد بقية المرشحين حساباتهم، وطالت الجلسات مع المؤيدين.

للشيخ عبد الحفيظ صيته ومكانته. يبدو مهابًا بقامته الطويلة الممتلئة، وهالة الذقن البيضاء المحيطة بوجهه، وتعمده الجدية في أقواله وتصرفاته، وإن علَت شفتَيه ابتسامة هادئة لا تكاد تفارقها. وكان إذا خرج إلى الجامع يهيئ من نفسه، يعنى بتسريح شعر رأسه، وتخضيب حاجبيه وشاربه، ويدهن، ويتطيب بالغسل والاغتسال والروائح الطيبة، ويرتدي أحسن ما عنده.

تزايدت أعداد القادمين من ضواحي الإسكندرية والمدن القريبة، يحرصون على أداء صلاة الجمعة في علي تمراز. يشغلهم ما يقوله الشيخ في خطبه، متابعته للأحداث، ومواجهته للحكومة. يتزايد الزحام، ويتسع. يسد الميدان. يفيض على الشوارع المتفرعة. يصعد ناس — لسماع الخطبة، وأداء الصلاة — إلى أسطح البيوت المحيطة بالجامع. يطل من النوافذ والبلكونات، نساء وأطفال. تجتذبهم الحشود التي تغيبها انحناءات الشوارع، وارتفاع الميكروفون — أعلى المئذنة — بصوت الشيخ عبد الحفيظ. إذا كانت الحكومة تملك الراديو، فإننا نجد التعويض في بيت الله، نلتقي فيه خمس مرات كل يوم، وبالذات في صلاة الجمعة.

عند حلول موعد الخطبة، يصعد على المنبر برجله اليمنى، وهو يتلو أدعية. يرفع رجله اليمنى عند كل درجة حتى يصل إلى المنبر. يلتفت إلى الحضور، ويلقي السلام، ثم يجلس، ليرفع الشيخ قرشي الأذان.

كان يرتجل خطبه. لا يلتزم بالخطب الموضوعة التي ترسلها وزارة الأوقاف. لا يعظ الناس، ولا يذكِّرهم، أو يحذرهم وبال الجدال بالباطل، وما يلحق بالباطل من سخط الله. يتحدث فيما يشغل الناس، ويشغله. يطيل التحدث فيما تنشره الصحف، وتبثه الإذاعات، ويتناقله الناس. يعقب على الشائعات. يقصد وجه الله وحده. لا يرعى خاطرًا لأحد، ولا

يجامل مخلوقًا على حساب الخالق، ويجهر بالملاحظة دون أن يعنيه وقعها على نفوس مستمعيه، وإن زاد في الكلمات، أو اختصرها، أو أعاد ما يرى أنه قد غمض عن المصلين. لم يكن يفرق بين رؤساء الوزارات المتعاقبين. جميعهم مسئولون عن المصائب التي تحيق بالبلد. عاب على الحكام أنهم لم يبايعوا الناس على ما بايع الصحابة رسول الله من القول بالحق ونصرة الدين، لكنهم بايعوهم على نظام وقوانين ليس فيها من الشرع إلَّا ما وافق الهوى، والشريعة صالحة لزماننا الحالي. إنهم لا يقيمون الدين ويحاربون أهله. لم يأخذوا البيعة من الناس بصفقة اليد وثمرة القلب، ولا بالطوع والاختيار، إنما بالجبر والقهر. قال: إن الطاعة لا تجب لمن لا يقودنا بكتاب الله. وعاب على وجهاء البلد أنهم آثروا الدنيا، واقتربوا من السلطان. وأكد أن الله لن يسأل الفقراء يوم القيامة عن زكاة، ولا عن حج، ولا عن صدقة، ولا عن مواساة، إنما هو يسأل الأغنياء عن هؤلاء المساكين. وعاب على المسلمين أنهم يريدون الإسلام بلا عزة، والدنيا بلا سلطان، وأنهم أبطلوا الجهاد، ولا يحبون ذكره. وعاب على الجميع قلة الورع، وعدم التقوى، وطول الحساب، ومخالفة الشرع، ونشر الكتاب، وكثرة الطالبين، وتعلق المظلومين بالظالمين، والكذب، والغيبة، والنميمة، والزور، والبهتان، وصحبة الأشرار، ومخالطة الأراذل. وقال: مشكلة المسلمين في قلوبهم وليست في عقولهم.

لم تكُن تستوقفه حدة العبارات، ولا سخونتها. يتكلم في القضية بما يفد إلى خاطره. يستعين بآيات القرآن وأحاديث الرسول. وكان أسلوب إلقائه يؤثر في المصلين. وإن جلبت عليه طريقته في الجدل والمناظرة ملاحظات ومؤاخذات.

لم يعرف عنه أنه قبل كسوة، ولا أخذ جراية. الكرامة عنده هي الاستقامة، وإن كان يقبل هدايا الفقراء، ويفرح بها.

اعتبره الناس إمام وقته، لا في بحري فقط، ولا في الإسكندرية وحدها، وإنما في البلاد المصرية كلها. تحدثوا عن اجتهاداته وآرائه، تخالف ما تحدث به أئمة البوصيري وأبو العباس وياقوت العرش ونصر الدين وعبد الرحمن والجوامع الأخرى، فهو عارف للفتوى على المذاهب الأربعة، بصيرًا بأقوالها واتفاقها واختلافها. دعا للعودة إلى أيام الإسلام الأولى، واتباع أحكام القرآن والسنة. وكان يطيل السجود والدعاء والابتهالات والتوسلات، ويكثر من الاستشهاد بآيات القرآن وأحاديث الرسول. وكان يقول: ما جاء به الرسول علينا أن نأخذ به، وما نهى عنه علينا أن ننتهي عنه. أفتى بعدم جواز الشفاعة، والتوسل بالأنبياء والأولياء، ونهى المصلين عن زيارة ضريح سيدي علي تمراز، والشفاعة به. ولم يُخفِ

غضبه لما رأى أحد المصلين يضع على الضريح — من بين فرجات الأعمدة النحاسية — رسالة إلى ولي الله.

قال: كتابة الرسائل للأولياء خرافة.

وأردف في نبرة حاسمة: الأولياء قدوة فقط ... ولا شأن لهم بعرائض الاسترحام والمظالم.

نهى جلساءه عن قراءة «دلائل الخيرات». قال: إن التوسل بالأنبياء والأولياء كفر، على المرء أن يستعيذ بالله منه.

هاجم في خطبه جماعات الطرق الصوفية. اتهمها بأنها ليست من الدين في شيء. وجد في حركات الصوفية أباطيل تشمئز منها القلوب، وتنفر عنها الخواطر. جاهر برفض التنطع في الدين، والتظاهر بالتقوى والورع، وارتداء المرقعة، والإتيان بالخوارق والأعاجيب التي تسحر أعين الناس: أكل الحشرات والصبَّار، ابتلاع الثعابين والزجاج وقطع الفحم المشتعلة، الضرب بالسيف والدبوس، غرز الإبر والمسامير الكبيرة في الوجنتين والأنف. وعاب على المعتقدات الغيبية، كالسحر، وقراءة الورق، واستخدام الرقى، والعين الحاسدة، وتحضير الأرواح. أنكر ما ينسبه البعض إلى نفسه من علم الغيب، وقراءة الطالع، والتنبؤ بالمستقبل. وحين سارت مواكب الصوفية أمام الجامع في احتفالاتها بمولد أبو العباس، تعالى صوت الشيخ عبد الحفيظ — في الميكروفون — يعيب السلوكيات الباطلة. وقال: إن الإسلام لا يعترف بأعياد الميلاد. حتى مولد الرسول بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. ورفض أن تقرأ في صحن الجامع أحزاب الشاذلية. قال: لا أحب إلى الله من «لا إله إلا الله»!

وعندما تناهت دقات دفوف من بيت إبراهيم سيف النصر، المقابل، قال في غضب: هذه أصوات الشياطين!

ظلت أعداد المصلين في تزايد. لم يصرفهم الخوف من غضب المشايخ في الطرق التي يشغى بهم الحي: الشاذلية، والقادرية، والرفاعية، والأحمدية، وغيرها، وإن اعترض عليه مطربش من المصلين، لما أعلن رفضه لقصد زيارة القبر الشريف، دون قصد الجامع النبوي.

صار علي تمراز موصوفًا بالبركة، يتبرك الناس بالصلاة فيه. يشغى بالقادمين من مدن البحيرة والغربية والمنوفية، يدفعهم حب الاستطلاع لرؤية الشيخ عبد الحفيظ، وسماع خطبه. يشغلهم ما يقوله، ومتابعته للأحداث، وآرائه في الحكومة القائمة.

وقال أمين عزب: الشيخ عبد الحفيظ أفضل الأئمة في الحي ... ولولا انشغالي في الزاوية لحرصت على الصلاة وراءه.

مع تعاظم المصلين، فإنه ظلَّ بلا أتباع ولا مريدين، ورفض ما نسب إليه من كرامات. علا صوته بالرفض عندما جعلته أعداد من المترددين على الجامع وليًّا، وجعلوا أنفسهم مريدين. قال: لا ولي ولا مريدون!

وقال في تأكيد: لست وليًّا ولا صاحب طريقة، ولا مريدين لي!

وشردت عيناه فيما لا يتبينه أحد: كل مؤمن له قدر من الولاية ... على قدر إشراق نور الإيمان في قلبه!

كان يرفض اللمة، وينفر من الإفراط في المجالسة والمخالطة. يخشى — من انشغاله بتزاحم الناس وأسئلتهم — أن يخطئ فيما ينبغي قوله. يظل في الجامع من صلاة العصر إلى ما بعد صلاة العشاء. لا يلتفت إلى المصلين إلَّا إذا اعترض طريقه سؤال أو فتوى. يجيل عقله فيما أنصت إليه، أو قرأه، لا يأخذه على علاته. يقلب الأسئلة والأجوبة والاجتهادات، فلا يقتنع إلَّا بما يطمئن إليه بعقله، ويتأكد من صوابه. يخاطب سائليه على قدر فهمهم، يتصور الحياة فيما يواجهونه من مشكلات. يمضي إلى حجرته أيمن الباب الرئيس، أو إلى الميضأة للتوضؤ. وكان دائمًا على الطهارة، ويستقبل القبلة في كل جلساته.

كانت صِلته بالمترددين على الجامع تنتهي بإغلاق الأبواب. يعود — ماشيًا — إلى بيته في الوسعاية المقابلة لمدرسة إبراهيم الأول.

اعتبروه عالم عصره، يرجعون إليه فيما يشكل على غيره من الأئمة والمشايخ. يقضي بما يرى أنه الصواب، وما يوافقون عليه، ويحرصون على درسه اليومي بين المغرب والعشاء. يجلس على دكة المبلغ، في مواجهة الباب الرئيس، تعلو عن الأرض بحوالي المتر، من الخشب المخروط، زينت حوافها بآيات قرآنية. يتركز في الفقه والتفسير والحديث. يقاطع الأحاديث إن مضت في غير الوجهة التي يريدها، بابتسامة مشفقة، وهزة رأس. يصمت المتحدث عن المتابعة. يصل بكلمات تعود بالحديث إلى بداياته. لا انحناءات، ولا ثرثرات جانبية.

عرف عنه ميله إلى التيسير على الناس. من تفوته صلاة، فإن قضاءها يحفظ له ثوابها، ومن لا يطيق الصوم، فإن عليه فدية طعام مسكين، والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلًا، وما يريده البيت يحرم على الجامع، ونفى وقوع طلاق الغضبان، والطلاق الذي يراد به الحمل على شيء، أو المنع عنه، واعتبار الطلاق الثالث في مجلس

واحد، طلقة واحدة. كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، وكل الخطايا مغفورة، ما عدا الشرك بالله.

كان يكره تقبيل المصلين ليده. ينزع يده في غضب واضح: شيخنا أبو الدرداء قال: لا أحسن السباحة، وأخاف الغرق!

لم يكُن يجد غضاضة في أن يلتقط الأوراق من داخل الجامع، ويحرص على صيانته من كل ما يشوِّه جماله. يأمر بتنفيذه، وتجنيبه ما يسيء إلى مهابته، كرفع الصوت، والهراء، والتشويش على المصلين، ويقول: مَن أخرج أذًى من المسجد بنى الله له بيتًا في الجنة. واستنَّ تقليدًا جديدًا، لم يكُن متَّبَعًا من قبلُ. جعل الجامع مفتوحًا طيلة الليل. يتردد عليه من يريد العبادة. الصلاة وقراءة القرآن وكتب الدين، وإن نغز بعصا رفيعة كل من راح في النوم داخل الجامع. بيت الله ليس فندقًا. وكان يظهر الغضب لرؤية الجالسين في الجامع بلا عمل: الحديث في الجامع يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش!

وحين لمح الشيخ قرشي يجلس على قهوة المهدي اللبان، لم يُخفِ استياءه: حامل القرآن هو حامل راية الإسلام ... يجب ألَّا يجالس أصدقاء اللهو تعظيمًا لحق القرآن.

قال الشيخ قرشي: إنهم موظفون محترمون.

قال الإمام: مهما تبلغ مكانة المرء، فإنه جناح بعوضة في ظل القرآن!

قال أدهم أبو حمد: لولا أن الصحة لا تحتمل ... لصليت كل الأوقات في علي تمراز.

كان أدهم أبو حمد يصلي الأوقات في جامع سيدي عبد الرحمن بن هرمز بشارع رأس التين. أجهده حرص الشيخ عبد الحفيظ على الطمأنينة في العبادة. إذا رفع الأذان، انفض عن كل من حوله، وأقبل على مقدمات الصلاة، يطيل في وضوئه، لا يعلو صوته بغير آيات القرآن والأدعية والتسابيح، لا يتحول بصره حتى يأخذ مكانه من الصلاة، بمفرده، أو إمامًا للمصلين. يحرص على أداء كل صلاة في وقتها. يطيل الصلاة، القيام، والركوع، والسجود. يتلو السور حتى نهاياتها. لا يعلو صوته: سمع الله لمن حمده، إلا بعد أن تكون الأفواه قد سكتت عن التمتمات والأدعية. الصلاة توجه إلى الله، خشوع حقيقي له. اعتاد المصلون إطالة سجوده. يظل في سجدته دقائق. صلة المرء بربه، أقرب ما تكون بالسجود، فهو يهب الفرصة للمصلين وراءه حتى يفرغوا كل ما بنفوسهم. يضعون جباههم على الحصير، يشغلون الوقت الطويل بأدعية وابتهالات، حتى يعلو صوت الشيخ عبد الحفيظ بالتكبير. يؤدي الصلاة، فالكعبة بين حاجبيه والصراط تحت قدميه، والجنة عن يمينه، وجهنم عن شماله، وملك الموت في قفاه، يظن أنها آخر صلاته. ربما قطع الصلاة، يعود

إلى التكبير من البداية، يعتذر — بصوت مسموع — أن عارضًا من أمور الدنيا شغله، صرفه عن صدق التوجه إلى الله، والصلاة لا تجوز إلا أن يقبل المرء عليها بنية مخلصة.

قال إبراهيم سيف النصر: من ينكر أن كلام الرجل عدل الميزان؟

قال أدهم أبو حمد: هل في مصر ميزان ليعتدل.

قال سيف النصر: هذا ما ستراه عندما يفوز الوفد.

وأضاف بلهجة محرضة: عندما يفوز الوفد سأدعوكم إلى أكلة ستاكوزا.

ونظر ناحية عبد الله الكاشف: وإن كنت أشفق على عبد الله أفندي لأنه سيصعب عليه تصريفها.

وغمز بعينه.

حجاب الأنوار

علت الهتافات، وانطلقت زغرودة من نافذة تطل على شارع السيالة.

السرادق بعرض شارع السيالة، وإن ترك حيز للسير بين الرصيف والجدران. فتح ناحية ميدان المساجد، صفت الكراسي والسجاجيد، وغطيت الأرض بالرمال الحمراء، وتدلَّت اللمبات والكلوبات من سقف السرادق، وتعالت الأصوات من الميكروفونات المبثوثة في جوانب السرادق. تنقل تلاوة القرآن والخطب والهتافات وعبارات التأييد. وغنى عزت عوض الله:

يا زايد في الحلاوة عن أهل حيِّنا
ما تبطل الشقاوة وتعالى عندنا.

صور المرشحين ملصقة على الجدران. الهواء يتلاعب باللافتات، تغطي شرفات البيوت، وتعلو الأعمدة الخشبية، وعلى الحوائط.

علا الإيقاع بالجولات الانتخابية، والسرادقات، والجلوس في القهاوي، والاتهامات المتبادلة، والوشايات، والشتائم، والشكاوى الكيدية، والمعارك الصغيرة، تتداخل الكلمات الطيبة فلا تتسع.

أخذ حمادة بك المنشور الانتخابي من عباس الخوالقة. قرأه بنظرة غير متأملة، وطواه، ورده إلى الخوالقة.

لم يعُد يشغله من رشح نفسه، ومن انسحب. أهمل التردد على درس المغرب في أبو العباس وقهوة الزردوني. اكتفى بقعدات طياري أمام دكان محمد صبرة، وفي قهوة فاروق بشارع إسماعيل صبري.

كان المعلم أحمد الزردوني يعاني حرجًا باعتزام حمادة بك ترشيح نفسه. وفديته قديمة بدايتها في أحداث ثورة ١٩١٩. شارك في المظاهرات، وهتف بالجلاء، وترصد لجنود الإنجليز في الشوارع المظلمة.

بركة يا جامع.

قالها حين بلغه نبأ تأخر حمادة بك عن آخر موعد للترشيح. غالب الحرج، واستعاد وفديته القديمة. أعلن تأييده لجمال كاتو، مرشح الوفد، وأصر أن يقيم سرادق السيالة على نفقته.

قال جمال كاتو في صوت متأثر: لا أريد أن تشق على نفسك ... يهمني أصوات الصيادين.

قال الزردوني في تأكيد: اعتبرهم في جيبك.

لم يكُن عم سلامة يعرف الفرق بين الوفد والأحرار الدستوريين والوطني. كلها أحزاب تسعى للجلوس على مقاعد الحكم، والحصول على مكاسب لأعضائها. من حقه — ما دام يساعدها في الفوز — أن ينال قضمة من الرغيف.

وافق أن يعلق كل المرشحين أوراق دعايتهم على جدران المطعم. قال: هذا مولد ... حرام أن نطلع منه بلا حمص!

قال المعلم الزردوني: حمادة بك صديقنا ... كان أولى.

ثم في لهجة غاضبة: من قال له يتأخر عن تقديم أوراقه؟!

رفض عبد الناصر السوهاجي صاحب قهوة مخيمخ أن يقرأ الفاتحة مع جمال كاتو ما لم يعد بأن تقتصر التلاوات في سرادقاته على قراء القهوة.

تأمل عبد الله الكاشف التسمية: ابن الدايرة!

قال: هذا التعبير حمال أوجه، فلماذا لا نغيره؟

قال المعلم الزردوني: جمال كاتو ابن الدائرة فعلًا.

نفض الكاشف رأسه: المعنى حمال أوجه!

لم تعد أيدي الرجال تمتد إلى الجيوب. اعتادوا قدوم المرشحين والخطب وهتافات التأييد، وبذل الوعود، ودفع أثمان المشاريب نيابة عن الجميع.

ضايق إسماعيل سعفان صوت الميكروفون. اخترق الضجيج رأسه، ثقبه. تلاوة قرآن وخطب وهتافات. تداخلت الأصوات فلا يميز شيئًا، تلاغط لا حد لصخبه يخترق أذنيه. حتى زجاج النوافذ اهتز لشدة الصوت.

أمسك الكرسي بيد مرتعشة، واقترب، واقترب.

الناس — في الداخل — مشغولين بما يجري على المنصة، والخطب، والهتافات، والزغاريد.

بآخر ما عنده، رفع الكرسي، وطوح به في الظهور المتساندة. أيقظته الفوضى التي أعقبت الصخة المتأملة: قنبلة!

انتتر الجالسون، وتدافعوا إلى الشارع. توزعت الأقدام. دفعته في اندفاعها خارج السرادق. حاول اتقائها بيديه ... لكن الموجات الخائفة، الغاضبة، ابتلعته.

تعالت الكراسي، ونزلت، وتكسرت، وتناثرت، وتطايرت الزجاجات الفارغة، وتطوح الشوم، والتمعت الخناجر والسكاكين، واهتزت الكلوبات واللمبات، وانطفأ معظمها.

قال عبد الوهاب مرزوق لإسماعيل سعفان، وهم يقلونه في عربة البوكس: يا رجل ... ابنك لم تأخذه عروسة بحر ولا بر.

أضاف في نفاد صبر: ابنك أكله السمك.

بحلقت عيناه، لا تطرفان. تجمد على هيئته. غابت التصورات. بدت الصدمة أقوى مما يحتمله. كان يرفض — في أعماقه — الحكايات الغريبة، لا يصدقها، لكنها الأمل في أن يعود البهاء. المستحيل هو الجدار المصمت.

الأعماق

أزاح الستارة، وتطلع إلى الطريق.

بدا الباب الخلفي لسيدي البوصيري هادئًا، خاليًا من الداخلين والخارجين. وثمة ضوء شاحب يترامى من المصباح أعلى الساحة الرخامية. تناثرت في زاوية الرؤية الممتدة إلى المئذنة مزق سحب بيضاء، والهواء البارد أغلق نوافذ البيوت، وكان يحرك أغصان الشجر، تتساقط منها الأوراق، يتلقفها الهواء، يقذف بها إلى بعيد.

قال إبراهيم سيف النصر: أصر الملك ألَّا يعود الوفد إلى الحكم منذ أقال حكومته في ١٩٤٤ ... لكن الوفد عاد بإرادة الشعب!

ثم وهو يهز قبضته: مع ذلك فإن خطاب العرش الذي ألقاه النحاس أكد أنه سوف يتبع في الحكم سياسة قومية لا تعرف التحزب ولا المحاباة والمحسوبية.

قال فهمي الأشقر: كلام زعيم!

قال إبراهيم سيف النصر: المهم أن يوقف النحاس الملك عند حده.

قال أدهم أبو حمد: والإنجليز؟

قال سيف النصر: لن يتردد النحاس في إلغاء المعاهدة.

قال المهدي اللبان: هل قرأت ما قاله فؤاد سراج الدين في مجلس النواب: في المجلس الآن ٢٢٨ نائبًا اشتراكيًّا.

اتجه سيف النصر إلى أدهم أبو حمد بنظرة متشفية: راحت عليك إذَن يا أدهم أفندي أنت وحزبك الاشتراكي.

قال عبد الله الكاشف: أعلن الراديو منذ قليل تشكيل الوزارة الجديدة.

قال أدهم أبو حمد: المهم أن ينقضي وقت قبل أن يعلن عن إقالتها.

قال سيف النصر: فال الله ولا فالك!

قال الكاشف: هذه لعبة القط والفأر بين الوفد والسراي منذ أيام الملك فؤاد.

هتف إبراهيم سيف النصر: إلَّا هذه المرة ... الأغلبية ساحقة.

قال المهدي اللبان: أنا لا أحب السياسة ... وأرفض لعبة الانتخابات ... لكنني أرحب بفوز الوفد نكاية في الملك!

قال أدهم أبو حمد: الناس اختارت الوفد كراهية في معاوية، لا حبًّا في عمرو.

– ماذا تقصد؟

– انتخبوا الوفد بغضًا في الملك والسعديين ... لا حبًّا في حكمه!

وزفر في حزن: بصراحة. أنا أشم رائحة تدخل من السراي في تشكيل الوزارة.

قال سيف النصر: لا يمكن! هذه حكومة الوفد ... حكومة مصطفى النحاس.

قال أبو حمد: وماذا عن تعيين محمد حيدر قائدًا للقوات المسلحة؟ إنه المسئول الأول عن كارثة فلسطين!

أكد المهدي اللبان أنه رأى مرشح السعديين يستقل سيارته خارج الحي، لما تجاوز مرشح الوفد الأصوات المطلوبة. وروى أدهم أبو حمد ذكرياته عن ثورة ١٩. احتلال الإنجليز للجمارك في الميناء الغربية. نزولهم إلى الشواطئ والأحياء والشوارع. التفافهم حول قصر رأس التين كي يحموا السلطان فؤاد. حين عاد سعد زغلول من مالطة، استقبله الشعب في باب نمرة واحد. مر الموكب في شارع رأس التين، وشارع فرنسا، وميدان محمد علي، وشارع شريف، وشارع فؤاد، إلى فندق بالقرب من كوم الدكة. تذكر الشيخ قرشي ما فعله به البوليس في انتخابات صدقي: كتبوا علامة بالطباشير على ظهره. عرف المخبرون خارج لجنة الانتخاب، أنه أعطى صوته لمرشح المعارضة، فعاقبوه بعلقة!

تنهَّد وهو يغمض عينيه: أيام!

وحيد كما كان. الاستيقاظ وقراءة الصحف وسماع الراديو والأكل والانتظار الممل. عالج حشرجة في صوته، ربما بتأثير هتاف الانتخابات.

لو أن الانتخابات استمرت. لو أنه ظل على تنقله بين المقر الانتخابي والقهوة، والمشاركة في إعداد اللافتات والنشرات، ومرافقة جمال كاتو في شوارع بحري وحواريه.

ضوء المصباح أخفى تسلل أشعة الشمس من خصاص النافذة. لم يلحظ قدوم الصباح إلَّا بعد أن نظر — بعفوية — ناحية النافذة المغلقة. تعمد الاستيقاظ مبكرًا. أعاد ترتيب المكتبة. اختار ما ينوي قراءته. جال بعينيه في الحجرة، يبحث عن شيء يقطع به الوقت. تمشي في الشقة. أطل من الشرفة على الداخلين إلى البوصيري، والخارجين منه.

مضت اللحظات بطيئة، ثقيلة. اشتاق لهد الحيل الذي كان ينخر في جسمه، وهو يسلم جسمه إلى السرير، آخر الليل. الجولات الانتخابية، والجلوس على القهاوي، والمشاركة في المناقشات، والسير فيما لم يكُن يعرف من شوارع الحي وحواريه.

قدمت أسرته من بركة غطاس وهو في الخامسة. وولدت أختاه في البيت الحالي. بدَّل طريقه — بعد ترك الدراسة — من مدرسة رأس التين الثانوية إلى سراي الحقانية. طريق وحيدة، لا يغيرها. ألف البنايات على الجانبين: الشرفات والنوافذ واللافتات والدكاكين والقهاوي. ألف كذلك سحنًا مطلة، أو واقفة، أو تعبر الطريق. قادته الحملة الانتخابية إلى أماكن لم يرها من قبل. شوارع وحواري وأزقة وزوايا وأضرحة. حتى مقام سيدي كظمان القريب، تعرف إليه في طوافه مع جمال كاتو.

لاحظ إبراهيم سيف النصر نظرته الداهشة. همس وهما يسيران في نهاية الموكب: من ير نظرتك يحسبك أجنبيًّا ضل طريق العودة إلى الميناء.

رفت على شفتيه ابتسامة معتذرة: أعترف أني رأيت بحري الذي لم أكُن أعرفه.

قال سيف النصر: يا رجل ... حتى حلقة السمك بدوت فيها كالغريب.

قال: ومن يسمعك؟! وقتي امتصته مشاغل الوظيفة والبيت.

تفتح قلبه لقاسم الغرياني. اجتذبه مرحه ونكاته ومداعباته. حين عرف أنه لم يتزوج، همس في أذنه بأنه — مثله — بلا زواج، لكنه مسكون. عشقته جنيَّة، ترافقه في النهار والليل، لا تتيح له الحياة مع سواها.

قال له وهو يجلس مع جمال كاتو في قهوة الزردوني: ما لك والسياسة؟ أنسب وضع لك: معلم في الحلقة!

هتف بالدهشة: أنا؟!

ثم وهو يبعد إحدى راحتيه عن الأخرى: أنا لا أعرف حتى أنواع السمك ... أدفع ثمن الشروة دون أن أعرف ما اشتريت.

أدار مفتاح الراديو. عبد الوهاب يغني: «جفنه علم الغزل». استوقفته الكلمات في البداية. تأملها. نقل جهاز الراديو من موضعه على الرف في الصالة، إلى ترابيزة خشبية بالقرب من السرير. يدير المؤشر بين المحطات، دون أن يغادر مكانه.

وهو في طريقه إلى الداخل، لمح صورة زفاف نبيلة وزوجها في موضعها على الجدار. نقل غرفة نومه من الداخل إلى ناحية الطريق. تقترب منه أصوات المستندين إلى جدار البوصيري، والساعين إلى ميدان المساجد، والقادمين منه، وسمَّار قهوة مخيمخ أول الميدان، والدعوات والابتهالات من ساكني الخيام في الدحديرة الخلفية.

جهز لنفسه كوب شاي. وعاد إلى الشرفة المطلة على سيدي البوصيري.

بدا الباب الخلفي هادئًا، خاليًا من الداخلين والخارجين. وثمة ضوء شاحب يترامى من المصباح في الأعلى.

كان قد انسحب على نفسه — في الأيام التالية لانتهاء الانتخابات — لا يكاد ينزل إلى جامع البوصيري، ولا إلى جولته الأسبوعية بين جوامع الحي وأضرحة أوليائه، ولا إلى قهوة المهدي اللبان. الجلسة متشابهة، والأحاديث لا تتغير. كلام وكلام وكلام. حتى الألعاب التي تسلِّي الوقت في القهاوي — هو لا يعرفها! — لا يأذن بها المهدي. القهوة للمشروبات والجلسات والدردشة.

عاد إلى جلسته اليومية في قهوة المهدي اللبان.

لم يعد يطيق الوحدة. تمتد به سرحات الخيال: هل يأتي اليوم الذي لا يقوى فيه على الحركة؟ يحتاج لمن يعد له الطعام، ويقدمه له؟ من يعينه على الذهاب لدورة المياه؟ من يناوله الدواء في مواعيده؟ يراقب أحواله الصحية، فلا تفاجئه أزمة تذهب بحياته؟ بعثت الوحدة في نفسه إحساسًا بالخوف، خوف مقبض، يتلبسه، يخنقه. ربما صحا على أنفاس أو وجوه تقترب منه. ينتفض جالسًا. يستعيذ بالله من الشيطان، ويقرأ آية الكرسي. وكان يطيل في دعواته وصلواته، ويطيل السجود. قال إمام البوصيري: إن صلة العبد بربه أقرب ما تكون وهو ساجد.

فاجأه إبراهيم سيف النصر بالسؤال: لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

لم يكُن أعدَّ نفسه للسؤال، ولا تصور أن سيف النصر سيواجهه به. قاوم الارتباك لحظات. قرر أن يجيب بما لا يجعل السؤال طرف خيط. بدت كل الطرق مفتوحة إلى ما يخشى حدوثه.

غمغم: كله قسمة ونصيب.

نادى على الجرسون — ليقطع اللحظة — وطلب كوبًا من الينسون.

قال سيف النصر: هل تتصور نفسك عجوزًا؟

ثم بلهجة تأكيد: يسموننا عواجيز ... لكننا أوفر صحة من شبان هذه الأيام!

ثم قال موضحًا: سن اليأس للمرأة ... وليس للرجل.

وأظهر التأثر: مع أنها تستطيع الفعل في أي عمر.

وقال في تأثره: أما الرجل فلا بد أن يواجه ضياع القدرة بتقدم العمر.

تضايق عندما دنا الرجل بفمه من أذنه: إذا كنت تشكو شيئًا، فإني أعرف طبيبًا ممتازًا.

علا صوته بتلقائية: ماذا تقصد؟

أهمل الغضب البادي: فهمي الأشقر طال رفضه للزواج دون أن يذكر السبب. لما صحبته إلى الطبيب، خطب بنت الحلال، وأنجب خمسة أبناء.

قال الكاشف: من حقه أن يعوض خسارته في اليانصيب.

لاحظ أن فهمي الأشقر يدمن شراء أوراق اليانصيب. أسماء لا يعرفها، ولا سمع بها من قبل: الإسعاف ... المواساة ... الفراشة ... الجمعية الخيرية الإسلامية ... يدعو باعة اليانصيب، أو يأتون إليه إذا لمحوه في القهوة. لا يكاد يتناهى إليه نداء: يانصيب ... لوتريه ... حتى ينقل نظراته بين الأشقر والمرأة التي غالبًا ما يخصها بنظراته. وكان فهمي الأشقر ينشغل عن الجلسة وهو يراجع قوائم النتائج. البريمو هدفه الذي يحلم به. يتجدد أمله باقتراب الأرقام من الرقم الفائز، أو بفوز صديق بالرقم الفائز. يحزن للفوارق البسيطة في الأرقام، وينهض صائحًا، عندما يطالعه رقم من الأوراق التي اشتراها. ألف رؤيته يراجع قوائم الأرقام الفائزة أمام دكان السجائر المجاور للطنطاوي بائع الفول. يطيل الوقفة، فيبدِّل رجليه. يكتفي بإلقاء السلام، أو يسرع في خطواته.

قال الكاشف: عزوفي عن الزواج لأسباب أسرية.

ثم بصوت هامس: زالت بعد فوات الأوان.

استقر في داخله إحساس، بأن سن الزواج فاته. وطَّن نفسه على أن يظل عزبًا، يواجه الأسئلة، وربما الملاحظات المعيبة، بابتسامة محايدة.

مرة واحدة فكر في الزواج. لمح — وهو في طريقه من حجرته إلى المطبخ — باطن فخذ إقبال جارة الطابق الثاني، وهي تجلس على السرير في حجرة علية. اتخذ — في اللحظة التالية — قرارًا بالتقدم إليها. كان قد أعد ما ينوي قوله لعلية، حين فاجأته بصوت هامس: إقبال حدثتني عن شقيقها ... يريد مقابلتك.

سكنت ملامحه: لماذا؟

أخفضت رأسها بالحرج: ربما يريد خطبتي.

أربكه الاختلاط بين ما أزمعه، وما فاجأته به علية. قرر أن يمضي في الطريق الثانية، فهي أصوب.

اجتذبه من الشرود صوت سيف النصر: تزوج ... وتمتع بما بقي لك من الحياة.

قال أدهم أبو حمد: ومن قال إن الزواج متعة؟!

شغله الهاجس: ماذا لو أنه مات وحيدًا في الشقة؟! ربما مضت أيام حتى يتعفن دون أن يدري. فكر أن يشدد على تهامي بائع الخبز، فيعاود الطرق حتى يفتح له الباب، لكنه استسخف الفكرة.

تجمعت الكلمات على شفتيه، وعزوز بائع اللبن يصب من السطل في الحلة الصغيرة. يطلب منه خادمة تنظف الشقة، وترتبها. تعد له طعامه إن استطاعت. خشي أن يدس له البائع من تساعده على سرقة الشقة، فابتلع الكلمات.

أزمع أن يباعد بين أوقات المترددين عليه.

قال لتهامي: هل يمكن أن تؤخر مجيئك ساعة؟

– لماذا؟

– أبدًا ... ربما أكون نائمًا.

قال تهامي في تحير: هل أعود ثانية بعد أن أنهي جولتي؟

أدرك أنه سيجد الرد نفسه عند بائع اللبن، وبائع الصحف.

تذكر دعوة من إبراهيم سيف النصر، في الأيام الأولى لتردده على قهوة المهدي اللبان. مضى ناحية الكورنيش، عبر الرصيف المقابل لنقطة الأنفوشي، ترافقه الرائحة، النفاذة، المترامية من حلقة السمك، والغزل المنشور في الخرابة، خلف النقطة، وعلى المراكب الساكنة في زاوية الميناء الشرقية.

فوجئ سيف النصر لرؤيته، وإن اكتفى بتوصية العامل — أمام المدخل — عليه.

بهرته الأشكال والتكوينات والألوان والأسماك الكبيرة والصغيرة. أطال الملاحظة والتأمل. سرح في المدى لرؤية هيكل عظمي لسمكة هائلة، في مدخل المتحف. وحين اصطدمت عيناه بشمس الظهر، كان يتأمل ما رأى، وإن داخله شعور بأنه لن يعود إلى المتحف ثانية.

أزمة!

لم يكُن المصلون قد ألفوا ما حدث. أخذتهم الدهشة، وصاح البعض بالخوف.

كان الصمت قد لف صحن سيدي علي تمراز وميدان الخمس فوانيس والشوارع المتفرعة. تحدث الشيخ عبد الحفيظ عن زواج الأميرة فتحية من رياض غالي. علا صوته بالغضب والانفعال. أفاضت الصحف فيها، لكن الإمام كأنه تحدث عنها للمرة الأولى: الإسلام لم يكسب رياض غالي ... والمسيحية لم تخسر بتحوله!

اتجهت إلى المنبر مشاعر المصلين. غلبها القلق لما خنقت العبرة صوت الإمام، وتخبلت عليه الخطبة. تقضت اللحظات بطيئة. غابت عن الجميع وسيلة التصرف.

همس الإمام: ساعدوني على النزول.

تسابقت الأيدي تعينه على ما يريد.

دُعي الطبيب الأرمني من البيت المجاور. نبهه إبراهيم سيف النصر، فخلع حذاءه. أخلى حجرة الإمام بالقرب من ضريح سيدي علي تمراز، إلَّا من الشيخ قرشي، وعم سلطان خادم الجامع. تفحصه بأصابعه، وبالسماعة. لم يلمح المؤذن والخادم في وجهه أمارات قلق.

قال الشيخ قرشي: خيرًا.

قال الطبيب: لعله أجهد نفسه.

قال عم سلطان: هل ننقله إلى المستشفى أو إلى البيت؟

قال الطبيب: فليظل هنا حتى تستقر الحالة ... ثم أعاود الكشف عليه.

قال إبراهيم سيف النصر، وهو يستقر في مجلسه على الكرسي: هذا رجل همه الصراحة، ومواجهة الأعور بما بعينه.

قال الشيخ قرشي: إنه دائمًا يحبكها.

وبَّخَه الشيخ عبد الحفيظ ليلة أمس — عقب صلاة العشاء — لأنه يرفع صوته بالصلاة والتسليم على النبي بعد الأذان، وإن لم يأخذ عليه محاولة تحسين صوته. قال: هذه بدعة ... والبدعة ضلالة.

كانت له طريقته في تلاوة القرآن ورفع الأذان، يبدأ التلاوة بنغمة واطئة، ثم يفرد راحته بجانب فمه، ويطيل عنقه، فتبدو العروق نافرة. يبدأ صوته في الارتفاع. تردد صداه جدران الجامع، ويسمعه — من خلال الميكروفون — سكان المناطق القريبة. ويحرص — في الأذان — على أن يجعل إصبعيه في أذنيه، ويلتفت برأسه وعنقه ناحية اليمين، في القول: حي على الصلاة، ويلتفت ناحية اليسار في القول: حي على الفلاح دون صدره وقدميه، ليحافظ على استقبال القبلة. ويقف في جوانب المئذنة، ليصل صوته إلى النواحي الأربعة، ويطيل في أهازيج السحر، وفي التواشيح ومدائح الرسول. وكان يجيد تقليد كبار المقرئين: الشيخ سكر، والشيخ ندا، والشيخ رفعت، والشيخ على محمود. يقلد الصوت وطريقة الأداء. يستدعي صورهم في الجوامع التي استمع إلى قراءاتهم فيها. له مع محمد عبد الوهاب حكاية أعاد روايتها مرات كثيرة: التقى به في سان استيفانو. غنَّى أمامه. استعاد عبد الوهاب الأغنية، ثم قال: لو أنك تحولت إلى الغناء، فسأخشى منافستك!

قال فهمي الأشقر: رأيت صورة رياض غالي في الصحف ... وسيم — يشهد الله — ومصقول الشعر، وشديد الأناقة.

قال إبراهيم سيف النصر: فليغر بأناقته.

قال الشيخ قرشي: نعم ... الإسلام لم يخسر كثيرًا.

قال سيف النصر: ولا المسيحية ... أسلم الأفاق كي يتزوجها.

قال فهمي الأشقر: يعني هو الآن ... لا مسلم ولا نصراني.

قال عبد الله الكاشف: ذكرت الصحف أن الملكة نازلي هاجمت رجعية الشعب المصري.

قال فهمي الأشقر: أحسن الملك بحرمان أخته من لقبها.

قال الشيخ قرشي: الرجل أعلن أنه يعتبر رياض غالي مجرد نصاب.

قال إبراهيم سيف النصر: حتى مجلس البلاط، لم يأخذ بإسلامه ... اعتبره تغطية لهدف دنيء.

قال أدهم أبو حمد: أنا لا أبرئ النحاس ... ألم يرجع إلى الملك في عيد ميلاده كل الفضائل؟

وجاش انفعاله: أي فضائل يقصدها هذا الرجل؟

أهمل حمدي رخا صمته المحايد: لم يعد الوفد هو الوفد منذ عاد إلى الحكم.

وزفر في أسى: نحن لا نرى إلا حكومة تلبي كل ما يطلبه الملك.

ألف خلوته لنفسه. حتى لو شارك بسؤال، أو بتعقيب، فإنه يعود إلى نفسه. محارة تلوذ بصدفتها. يتابع المناقشات بعينين متأملتين، أو شاردتين. ربما أخذه ما لا يتبينه أحد إلى ما لا يرى. بدا غريبًا عن المجموعة. حتى أدهم أبو حمد يخرج عن صمته برأي أو اعتراض.

قال فهمي الأشقر: وأين الملك؟ إنه الآن فؤاد باشا المصري في رحلته الأوروبية!

قال الشيخ قرشي: ربما يريد أن يجعل مصيف دوفيل عاصمة الحكم!

قال إبراهيم سيف النصر: لو أنك تجيد رفع الأذان مثلما تجيد التعليقات السياسية؟

لاحظ أن الشيخ قرشي أخطأ مرتين في أذان الفجر. نسي — مرة — تكرار «حي على الصلاة»، ونسي — في المرة الثانية — قول «الصلاة خير من النوم». إذا تذكر الشيخ بداية صداقتهما أعاد القول: ما محبة إلَّا بعد عداوة. حين لزمت ابنته الفراش بحمى قاسية، أخفق علاج الأطباء، حتى بدأت تخرِّف في كلامها. دعا الشيخ قرشي إلى قراءة أوراد وتلاوة قرآن فوق رأسها.

سحب الشيخ يده لما حاول أن يقدم له ما لم يتبينه: هذا واجب.

– وهذا حقك.

ربت الشيخ كتفه بود: مرتبي أتقاضاه من وزارة الأوقاف … والظروف ميسورة.

تحول الارتباك — بإصراره على دفع المقابل — إلى غضب. امتدت جلساتهما في قهوة المهدي اللبان. كلَّمه الشيخ قرشي عن العسيرات، قريته القريبة من سوهاج، وعن سبعة فدادين يديرها أشقاؤه لحسابه، وبيت يدرُّ عليه إيرادًا ثابتًا. جاوزت معرفة أصدقاء القهوة له حد الإنصات لتلاوة القرآن، ولرفع الأذان والتواشيح وأهازيج السحر. وجدوا فيه متابعة للأحداث وقدرة على الحوار. فاجأهم بآراء تعكس فهمًا للأوضاع السياسية في الداخل والخارج. حتى زيُّه كان يختلف عما يرتديه قراء الجوامع. وحين قرر أن يفرغ للقراءة، تعلم أصولها في صورة صحيحة. حفظ الكثير من الأشعار، ومرن صوته على النغمات المختلفة، وعود نفسه احتساء ملعقتين من عسل النحل كل صباح، وتجنب الأطعمة والسوائل الحريفة والتدخين والكحوليات. وكان يحرص على أن يؤدي وظيفته بمفرده. يتلو القرآن قبل صلاة الجمعة والعيدين، ويؤذن للأوقات الخمسة، وينشد أهازيج السحر.

قال حمدي رخا: فلندخل إلى القهوة.

لاحت مظاهرة قادمة من طريق الكورنيش، سبقها الأولاد يتقافزون. اختلطت الأجسام والهتافات والأعلام ولافتات القماش.

نفحات الوصال

وضع ربطة الطير على الطاولة. عصافير ودقانيش وبروبيو.

قال عبد الله الكاشف: من شارع الميدان؟

قال إبراهيم سيف النصر وهو يسحب كرسيًّا: لا ... من ميدان المنشية.

وضم أصابعه على شفتيه: أطعم من السمَّان.

– لا أحبها ولا أحب السمَّان.

لم يكن يأكل اللحم ولا البيض ولا الطير. كان السمك طعامه المفضل، لكنه كان يرفض شراءه من الحلقة. تقرفه الأوساخ في الأرض والطبالي. ينتظر قدوم البلانسات في الفجر، يساوم على شروة.

قال إبراهيم سيف النصر وهو يجري على جبهته بمنديل: هذا هو زعيم الشعب ... من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها.

كان يوم أمس حارًّا بالنسبة له. وجد نفسه وسط المتظاهرين الذين استقبلوا النحاس في عودته من أوروبا. علت الهتافات: ألغِ المعاهدة يا نحاس. جلس إلى الراديو في المساء ينصت إلى النحاس وهو يعلن إلغاء المعاهدة.

قال أدهم أبو حمد: هذه خطوة لتغطية إخفاق حكومة الوفد في مفاوضاتها مع الإنجليز.

وهز إصبعه في تأكيد: ظني أن النحاس أراد أن يقوي مركزه أمام الملك حتى لا يقيل حكومته.

هتف سيف النصر: تاني؟!

قال أبو حمد: رائحة فسادها زكمت الأنوف.

أطلق سيف النصر — من أنفه — ضحكة مبتورة: جلالته هو الذي سيقضي على الفساد.

قال الشيخ قرشي: ربما يرفض شيخ المنسر أن يرفض القسمة.

ومض في عيني سيف النصر استياء: لست عضوًا في الوفد كما تعرفون ... لكنني لا أتصور أن يصبح نضال الوفد فعل عصابة!

قال أدهم أبو حمد: يثيرني أنك وفدي أكثر من الوفد ... الفساد ظاهرة الفترة.

قال سيف النصر: وهل كانت الناس تتنبه لولا ما تنشره الصحف؟ وهل كانت الصحف تنشر لولا حرية الصحافة؟!

قال فهمي الأشقر: ولماذا لا يجد الملك في إلغاء المعاهدة مطلبًا أراده الناس؟

قال عبد الله الكاشف: من حق النحاس أن يلغي المعاهدة ... لكن الإلغاء سيظل من طرف واحد.

واستطرد بالتذكر: أذاعت الشرق الأدنى تصريحًا لوزير خارجية بريطانيا رفض فيه إلغاء المعاهدة، وهدد باستخدام القوة.

قال إبراهيم سيف النصر: هل يفرضون علينا صداقتهم؟

قال فهمي الأشقر: هذه سياسة ... لا شأن لها بالعواطف!

قال أدهم أبو حمد: أخشى أن تذهب السكرة وتأتي الفكرة.

قال الشيخ قرشي: ماذا تقصد؟

قال أبو حمد: لا تنسوا الملك وقوات الإنجليز في القناة.

قال سيف النصر: الملك أضعف من أن يواجه زعامة النحاس ... وعلى الإنجليز أن يدافعوا عن احتلالهم للقناة.

قال زكي بشارة: هل يفعلها النحاس؟

قال الكاشف: هذه المعاهدة ... إما أن تجلي الإنجليز ... أو تضيِّع كل شيء!

اتجه فهمي الأشقر إلى أحمد أبو دومة، ربما ليبدِّل الحديث: ألست أبًا يا مولانا؟

قال الشيخ أبو دومة: ولي من الأولاد خمسة.

قال الأشقر: كيف تمنع الولد من الخروج إلى دورة المياه؟

– أي ولد؟

قال الأشقر: ابني ... رءوف.

قال أبو دومة: لا آخذ بالي.

قال المهدي اللبان: ذكرتني ... هل يصح يا رجل أن تلوي أذن الولد فكدت تنزعها؟!

هتف أبو دومة: ابنك أنت أيضًا؟ هذه حملة منظمة إذن؟ أنا لا أعاقب الأولاد عمالًا على بطال ... ولا بد أن الولد أخطأ.

قال المهدي اللبان: فرق بين عقاب الكبير وعقاب من يصل إلى ركبتك.

قال إبراهيم سيف النصر: قل إلى صدرك ... فالشيخ — كما ترى — في طول طفل!

فاجأ زكي بشارة عبد الله الكاشف بالسؤال: هل ما زلت على صلة بالحقانية؟

قال الكاشف: أتردد عليها ... وإن لم يعد لي فيها صداقات.

– أريد خدمة.

استطرد لنظرة الترحيب في عيني الكاشف: تسجيل عقد ابتدائي لقطعة أرض اشتريتها في المحمودية.

تدخل إبراهيم سيف النصر: ألا تترك هذه الأشياء لموظفيك؟

– إنها بيع وشراء لأكبر الأولاد ... لو علم إخوته فستحدث مشكلات لا داعي لها.

لم يكن يتحدث عن أسرته في دمنهور، ولا حياته الخاصة. أجاب على النظرات المتسائلة عن أيام إقامته الطويلة في الإسكندرية: أنا أترك كل شيء للموظفين ... مهمتي تسلم الإيرادات.

ذوت الأسئلة في الأعين. اطمأنوا إلى تفسيره، وتوقع أنهم لن ينشغلوا بحياته الخاصة. هي سره الذي يرفض أن يعرفه أحد. لو أنه باح بما في داخله لسيف النصر فسيمضغ سيرته، ثم يبصقها. الحائط الشفيف عازل يريده، يطمئن إليه. حياته الخاصة جزيرة لا يأذن لأحد بدخولها.

صحا عبد الله الكاشف في الموعد القديم للحقانية. رغم اعتدال الجو فإنه حرص على ارتداء بدلة كاملة، تأكد من المنديل في الجيب العلوي، وأطال التأمل إلى هيئته أمام المرآة. البدلة، والقميص ذي الياقة المنشَّاة، والكرافتة، والطربوش. جرى على تسريحة شعره، ولامس بإصبعه طرفي شاربه، ومسح الزبد الأبيض على جانبي فمه المبلل دائمًا.

استعاد ما كان نسيه من تثاؤب حركة الطريق. شمس الصباح تلامس أسطح البيوت، والنوافذ أغلق معظمها، والشوارع هادئة، ومقام سيدي خضر — يقرأ له الفاتحة — بابه، ونافذته العلوية القصيرة المتقاطعة بالخشب المخروط، ينفصل عن المسجد المصمت الواجهة، فيما عدا نوافذ علوية، وحيدة الضلف، والمستلقون جوار المسجد يطوون أغطيتهم. وتغطت بالمشمع عربات اليد على الرصيف، وعلى جانبي الشارع، وبائع الصحف أمام أجزخانة جاليتي، المغلقة. وثمة ولد يركب بسكليتة، ويحمل لوحًا مرصوصًا بأرغفة

الخبز، وقبالة الطريق إلى سوق الخيط، عربة امتلأت حتى الحواف بالترمس، وأحيطت بقصاري الحلبة الصغيرة، والقلل، وقصاري العتر والورد.

رأى زكي بشارة جالسًا بمفرده في زاوية الرصيف المقابل لسيدي علي تمراز.

دعاه إلى كوب شاي بالحليب قبل أن يمضيا إلى الحقانية.

قال الكاشف: الأفضل أن نبكر في الذهاب لننهي أوراقنا قبل الزحام.

قال زكي بشارة في دهشة: طبعًا ... ما دمنا معًا فلن نواجه عقبات.

تنبه إلى المعنى، فقال بسرعة: طبعًا ... طبعًا.

لم يُخفِ انتشاءه وهو يرد التحية على زملاء عملوا معه، وإن رافقه الحرج منذ صعد الدرجات الرخامية إلى داخل المبنى العالي. ملأ الاستمارات، وأعد أوراق الملكية، وتنقل بين الأرشيف والخزينة والتوثيق.

– أشكرك.

تصافحا أسفل الدرجات الرخامية. اتجه زكي بشارة ناحية ميدان محمد علي، ومضى هو عائدًا من شارع فرنسا.

تقديم المجاهدة

أعاد إبراهيم سيف النصر ما قرأه في «المصري» على الجالسين: استدعاء السفير المصري في لندن، بناء مساكن للأهالي الذين دمرت قوات الاحتلال بيوتهم ... معاقبة من يتعاون مع قوات أجنبية. توقف العمل في معسكرات الإنجليز بعد انسحاب عمال السكة الحديد وسائقي القطارات وعمال الشحن والتفريغ، وعمال الورش والمصانع والإدارات.

علا صوته بالفرحة: وإباحة حمل السلاح لكل المواطنين.

قال المهدي اللبان: يعني من حقنا حمل السلاح؟

قال أدهم أبو حمد: يكفينا حمل الهموم.

أعادت أحاديث الجالسين ما رددته الصحف والإذاعات: الفدائيين، كفر أحمد عبده، الإسماعيلية، التل الكبير، الدبابات، مدافع الهاون، أم صابر، عمر شاهين، البريجادير إكسهام.

قال عبد الله الكاشف: محطة الشرق الأدنى أذاعت نبأ انسحاب ٦٠ ألف عامل من معسكرات الإنجليز في القناة ... الورش والمصانع والإدارات المختلفة.

الإذاعات والصحف والأخبار والتعليقات والمناقشات والشائعات. المظاهرات ظاهرة في معظم المدن. تسلل الفدائيين إلى معسكرات الإنجليز ... الاستيلاء على الأسلحة والذخيرة ... إشعال النيران ... قطع خطوط التموين ... نسف القطارات، ومستودعات البترول ... مهاجمة الدوريات المسلحة ... أيد الشيخ عبد الحفيظ تصريحًا لشيخ الأزهر إبراهيم حمروش، يحل فيه دماء الجنود الإنجليز.

طالت جلساته في القهوة. يسأل، ويجيب، ويناقش. وجد نفسه — دون أن يعد نفسه — قطرة في بحر آلاف المتظاهرين في ميدان المنشية. ابتلعته الأجسام المتلاحمة والنداءات واللافتات: اطردوا المستعمر بالسلاح ... نريد السلاح ... يسقط الدفاع المشترك

... الوساطة الأمريكية خدعة ... عمال القنال فداء للوطن ... الإفراج عن المسجونين السياسيين ... نؤيد إيران.

شمله ذعر حين مزق الطلبة صورة الملك فاروق، وداسوها بأحذيتهم، وهتفوا: أين أمك يا فاروق؟

نفذ من بين المتظاهرين إلى سوق راتب. نجا بنفسه من زحام المظاهرة.

قال فهمي الأشقر للشيخ أحمد أبو دومة: هل يشارك أطفال الكتاب في مظاهرات الطلبة هذه الأيام؟

قال أبو دومة: السياسة ممنوعة في الكتاب!

قال عبد الله الكاشف: أنا أرى أن فترات إيقاف الدراسة فاقت فترات الدراسة نفسها.

قال أدهم أبو حمد: بعد قرار تعيين حافظ عفيفي رئيسًا للديوان الملكي ... تساوى الحدث السياسي والنكتة! لم تمضِ أيام على إزالة كفر أحمد عبده.

قال إبراهيم سيف النصر: لك حق ... هذا ليس وقته ... الناس تموت كل يوم في القناة.

أعاد فهمي الأشقر الاسم: حافظ عفيفي؟ أليس هو الرجل الذي انتقد منذ ثلاثة أشهر تفكير حكومة الوفد في إلغاء المعاهدة.

قال زكي بشارة: تعيين حافظ عفيفي إشارة البدء لمظاهرات صاخبة.

قال أحمد أبو دومة: بالمناسبة ... من هو فيفي الذي هتفت المظاهرات بسقوطه مع حافظ عفيفي؟

قال إبراهيم سيف النصر: يقصدون مَن عيَّن حافظ عفيفي في منصبه!

قال أبو دومة: هذا الملك عدو نفسه!

قال أدهم أبو حمد: لماذا نلوم الملك ولا نلوم حكومة الوفد التي سكتت عما حدث كأنه في بلد آخر.

وتنهد: إن كان النحاس فوجئ بهذا التعيين، فهي مصيبة. أما إن كان لا يعلم، فالمصيبة أعظم!

وضرب راحة يده في الأخرى: من كان يتصور أن المظاهرات تهتف ضد النحاس؟!

وتحسَّس — بتلقائية — سجحات في جبهته. اجتذبه — عند خروجه من معهد الأحياء المائية — بحر مظاهرات بلا ساحل. الهتافات ضد تهاون حكومة الوفد في حماية الناس من عدوان الإنجليز. حطم المتظاهرون مصابيح النور، واقتلعوا الأشجار. ظل البحر

على صخبه بعد أن منعت الحكومة المظاهرات. هتف المتظاهرون ضد الملك أيضًا! ناله — في عراكهم مع البوليس — ضربة قايش. بقي من أثر تورم الجبهة سجحات.

– الاستقالة هي ما يملكه الرجل حتى يستعيد شرفه!

قال أدهم أبو حمد: كل صحف المعارضة تتحدث عن الثورة ... فمتى تقوم؟

كان يحرص على شراء روز اليوسف، واللواء الجديد، والاشتراكية، والدعوة، والكاتب، والملايين.

مال عبد الله الكاشف من الشارع الخلفي لسيدي علي تمراز، إلى شارع إسماعيل صبري. هتف لرؤية بسيوني البتانوني زميله في الحقانية. أظهر الود، وإن داخَلَه حرج لم يَدرِ بواعثه.

– وحشني الزملاء.

قال البتانوني: نفتقدك كثيرًا يا عبد الله أفندي ... ما كنت تفعله، لا يقوى عليه — صدقني — ثلاثة موظفين.

وهو يمد يده للمصافحة: قواكم الله!

فكر أن يعرض مساعدته. يأتي إليه الرجل بملفات تحتاج إلى إعداد ومراجعة، يقتل بها الوقت الذي قتله. ناقش الفكرة بينه وبين نفسه. لدقائق. وكان الرجل قد غاب في انحناءة الشارع.

رأى الأولاد يلعبون الكرة الشراب.

غالب التردد حين اصطدمت الكرة بقدميه.

ثم شاطها بكل قوته.

التقلب في المعارف

تأمل عباس الخوالقة جلسة منصور مكاوي المسترخية على رصيف قهوة الزردوني. ينفث دخان السيجارة، ويتابع بعينين ساجيتين، حركة الطريق في السيالة: القادمون من الأنفوشي وحلقة السمك، وباعة الخس والبطاطا وغزل البنات، وأصداء جلسة سماع تتناهى من مسجد المسيري، وشمس الأصيل تلامس الأسطح وأعلى الجدران، ومجموعة من النقاشين، اقتعدوا الرصيف أمام مطعم النبلاء، وامرأة — في الشرفة المقابلة — تنشر ملابس مغسولة على حبل مشدود بين عمودين من الخشب، ونسائم باردة قادمة من اتجاه البحر، تلاطف وجهه، وتنعشه. ومن داخل القهوة يتناهى صوت حودة بدران متغنيًا:

يا صيادين السمك ... صيد السمك غيَّة
أنا اللي صنعت الشبك ... أصل السمك ليَّه
أنا قاعد معاكم يا ناس ... أمانة عليكوا تسمعوا النيَّة
أنا وحدي طرقت الباب ... والحلو مش ليَّه
أنا باصيد السمك ... وصيدك انت يا حلو غيَّة
أنا سميرك يا حلو ... يا سمير الأصل والنيَّة

قال الخوالقة: جعله الولد قاسم ابن بحر!

جاوز رهبة البداية في توالي الرحلات. غالب الدوار. عرف تقاليد الجيرة بين البلانسات. أبناء البحر — مثل أبناء البر — يتبادلون الزيارات، ينتقلون من بلانس إلى آخر. صرخ لصوت طقطقة في جانب البلانس. سحب الغرياني بلطة أسفل الدفة وهو يضحك: سمكة المنشار غرزت أسنانها.

وهوى بضربات قوية، متوالية، في جانب البلانس: تظل معلقة بالبلانس حتى نفصل رأسها ... هكذا!

أذهله ما رواه حمودة هلول عن محيي قبطان. مد يده يداعب سمكة تقفز فوق الماء، وتغيب. السمكة من النوع الرعاش، اجتذبته إلى البحر. توالت صرخاته، فألقى الغرياني نفسه في البحر، وأنقذه.

ألف الرجال رؤيته وهو يحمل المطرقة، وهو يزيل الصدأ من الجوانب، حتى الخطاف أزال صدأه، وهو يطمئن إلى صوت الموتور. وكان يأخذ ويعطي، ويروي الحكايات، ويجامل.

كان يرتدي أفرولًا اتسعت فيه بقع الزيت والشحم والألوان. يتأمل كرمشة أصابعه، وتلونها من عمليات الغسل والتطرية والغلي والصبغ.

– مهنة لا بأس بها ... لكنها تختلف عما كنت أفعله في القناة.

قال قاسم الغرياني: وماذا كنت تفعل هناك؟

– ميكانيكي آلات.

نطق وجه الغرياني بالدهشة:

– قلت إنك تعمل في الدباغة ... وهي تحتاج إلى تعليم.

وهو يضحك: ما يفعلونه أفعله.

ألفوا جلوسه على قهوة الزردوني. يأتي — بعد صلاة العشاء — يسلِّم، وينتحي مكانًا، أو يجلس وسط الرجال الذين عرفهم وعرفوه. توسط له عباس الخوالقة، فعين في ورشة لدباغة الجلود بالورديان.

كان عبد الوهاب مرزوق قد أشار — منذ عشرة أيام — إلى شاب وقف على رصيف مسجد المسيري المقابل. في حوالي الثلاثين. انسدل شعره المنكوش على جبهته فغطاها. نحيل القامة. بشرته سمراء، أقرب إلى السواد. في وجهه طفولة تخفي حقيقة سنه. له عينان واسعتان، صريحتان. وأنف أقنى. وثمة رعدة خفيفة تسري في الوجه، من العين اليمنى إلى الذقن. تمتد إلى العنق، فيبدو كمَن يهم بالالتفات. يرتدي بنطلونًا، وسترة صوفية برقبة عالية، وحذاء بدون جورب. طوى في يده جريدة أربع طيات، تحولت إلى ما يشبه المسطرة.

قال عبد الوهاب مرزوق: هذا منصور ... ابن شقيق الجماعة.

قال الحاج قنديل: أهلًا وسهلًا.

أضاف عبد الوهاب مرزوق: كان يعمل في معسكرات الإنجليز بالقناة.

قال الحاج قنديل: أرحب به على البلانسات لو أنه يركب البحر!

تلاغطت عبارات الترحيب والأسئلة والملاحظات. تناثرت أسماء الإسماعيلية والتل الكبير ونفيشة. ثم ألف الرجال تردده على القهوة. غاب التميز من كلماته. ربما أشار — بمناسبة — إلى أيام عمله في القناة، لكن مناقشات الرجال كانت تجره إلى البحر والحلقة وعمليات الفدائيين.

كان يستقل الأوتوبيس من ميدان المنشية إلى أول الورديان. ينزل أول المستودعات والشون ومصانع الدباغة. ينزع اللحم عن الجلود الخام المملحة، ويغسلها، ينتف الشعر المتبقي منها، يكلِّسه، يفرد الجلود، ينقعها في القلويات. يضع طبقات الجلود فوق الطاولة الرخامية الطويلة. اعتاد الحياة — في وقت لم يكُن يتوقعه — في رائحة الدماء المتجمدة والملح والأبخرة المتصاعدة والقلويات وسوائل الدبغ والتلوين.

عرف الرجال أنه ابن شقيق زوجة عبد الوهاب مرزوق. أقام معه في شقته المطلة على مسجد طاهر بك بالحجاري. لم يتحدث عن ظروفه الخاصة، ولا ما إذا كانت له أسرة وأبناء. يأتي إلى القهوة في موعده. يجلس بمفرده، أو يجالس الرجال، إلى قرب انتصاف الليل: أستأذن ... فأنا أصحو في النجمة!

فاجأه عباس الخوالقة بالسؤال: ماذا كنت تعمل في القناة؟

كان قد استراح إلى الطيبة في ملامح وجهه.

قال منصور: ميكانيكي آلات.

قال الخوالقة: لن تعجز عن فهم ميكانيكا البلانس.

أضاف في ود: ما دام العمل في المدبغة قد راق لك ... يمكنك أن تركب البحر.

وربت كتفه: لن يكون أكثر تعبًا.

ثم وهو يتجه إلى قاسم الغرياني: علِّمه يا قاسم ليطلع البحر معكم في الرحلة القادمة.

وشرد في الأفق: من كان يتصور أن البلانسات ستعمل بالمكن.

وتطلَّع إلى دخان الشيشة المتصاعد في حلقات رمادية: إلى خمسة عشر عامًا ... كنا نستخدم الشراع وحده!

ظلال حزينة

قاوم تردده — لدقائق — قبل أن يبدل طريقه، بعد أن غادر القهوة. مضى إلى البيت المقابل. صعد السلم الخشبي المتآكل في ظلمة شفيفة. تحسس باب شقة الطابق الأول. هي شقة إبراهيم سيف النصر. تجسدت ملامحها بأحاديث سيف النصر في ذهنه. الصالة الواسعة، تحيط بها ثلاث حجرات، تطل اثنتان على ميدان الخمس فوانيس. إحداهما لنومه وزوجته، والثانية للولد. أما الحجرة الثالثة — لنوم البنت — فتطل على المنور الداخلي.

لمح عينين واسعتين، اختفتا بمواربة الباب.

مسح المكان بشعور أنه قد تعرف إليه من قبل.

دخل إبراهيم سيف النصر، يرتدي جلابية من الكستور المقلم، ويغطي رأسه بطاقية بيضاء: زيارة غالية.

ثم وهو يهم باحتضانه: لو كنت أعلم أن غيابي عن القهوة سيأتي بك، لفعلتها من زمن.

قال عبد الله الكاشف: قلقت، وقلق الأصدقاء ... فأذنت لنفسي بالزيارة.

– زارنا النبي.

رنا إليه بعينين متسائلتين: خيرًا؟

أطلق سيف النصر ضحكة منفعلة: لم يعُد أدهم وحده هو البطل ... ففي هذا البيت شهيد.

أردف للدهشة الصامتة، المفزوعة، في عيني الكاشف: ابن ممدوح استشهد منذ أيام في السويس.

صرخ دون تدبر: إنا لله وإنا إليه راجعون ... كيف؟

روى عن الولد ذي العشرين عامًا. سافر إلى منطقة القناة، وترك ورقة يعتذر فيها، ويطلب الدعوات. مات في منطقة وابور المياه. معركة بين الأهالي وقوات الإنجليز، شارك فيها كتائب الفدائيين. استشهد خمسة فدائيين، وكان ممدوح واحدًا منهم.

– ولماذا لم تقُل لي؟ أنت لا …

كاد يقول له: أنت لا تخفي سرًّا، لكنه أمسك. خشي أن يصدم مشاعر الرجل الحزين. هو — بالتأكيد — حزين، ومصاب، ومفجوع. الضحكة المنفعلة لا تخفي العينين الدامعتين، ولا التجاعيد التي أضافت إلى العمر، ولا الشارب المتهدل، المرتجف، ولا الشرود فيما أخفق في تبينه.

أحنى رأسه في ألم: البقية في حياتك.

قال سيف النصر: خشيت إن أنا نزلت القهوة أن أزعجكم بما جرى.

غلبته الحماسة: تزعجنا؟ كيف؟ من حقك أن تمن علينا … من حقك أن تفخر بالشهيد ممدوح.

قاوم سيف النصر تأثره: المؤلم أنه جاء على كبر … وهو وحيد على البنت.

وداخل نبرته الساخرة حزن واضح: حرمني المغفل من الامتداد.

واغتصب ابتسامة: كان سيحفظ اسمي من بعدي.

ربت الكاشف كتفه براحته: هذه مشيئة الله.

هو لم يجرِّب الأبوَّة، فهو لم يجرِّب الحزن على الابن الراحل. هل أخطأ، أو إن الله خصه برحمته؟ ماذا لو أنه تزوج وأنجب، ثم مات الولد؟ هل كان يواجه ما يواجهه الرجل؟ هل يتماسك ظاهره وفي داخله حزن قاتل؟

قال أدهم أبو حمد بعد أن صحب الكاشف سيف النصر إلى جلسة المهدي اللبان: دم كل الشهداء في رقبة حكومة الوفد.

وعلا صوته: المفروض أنه حين ألغت المعاهدة كانت قد تحسبت لكل الاحتمالات.

تداخل في صوت الكاشف دهشة: هل نحارب الإنجليز؟

– نقاومهم … ولن يحدث هذا إلَّا إذا تسلح الشعب.

قال الكاشف: يبدو أنك لم تقرأ عن الحوادث التي ادعى أصحابها أنهم فدائيون.

شوح أدهم بيده في غضب: لا أفهم كل هذا … لكن إلغاء المعاهدة أشبه بإعلان الحرب … وكان علينا أن نستعد لذلك.

قال سيف النصر: كنت واحدًا من مستقبلي النحاس باشا في محطة مصر يوم ٢٠ أكتوبر الماضي. هتف الناس: نريد السلاح للكفاح ... فقال لهم: تريثوا ... إن كل شيء سيتم في أوانه بإذن الله ... والله مع الصابرين.

ثم وهو يكتم انفعاله: الله مع الصابرين!

الأنس والوحشة

قال إبراهيم سيف النصر وهو يزيح الجريدة جانبًا: لم تعُد كل خلفة فاروق بنات ... أنجبت له ناريمان ولي العهد.

اتجه فهمي الأشقر بعينيه إلى الشيخ أحمد أبو دومة: هل تمنح تلاميذ كتابك إجازة بهذه المناسبة مثل بقية التلاميذ؟

قال أبو دومة: كتابنا يخضع لإشرافي لا لإشراف المعارف!

قال إبراهيم سيف النصر: دوران العداد هو ما يشغل الشيخ أبو دومة في المسألة كلها.

قال فهمي الأشقر: أي عداد؟

– الرواتب التي تدفعها أسر الأولاد.

بدا كأنه قد نسي تمامًا وفاة وحيده، فهو يتكلم ويثرثر ويطلق النكات، لكن عين الكاشف المختلسة، المتأملة، لاحظت أنه يكابد من الألم ما يغالب في كتمه وصوته يعلو بالتعليقات والمداعبات. حتى النكات التي يطلقها وهو يضحك.

قال سيف النصر: المصيبة أن المظاهرات لم تتوقف ... زادوا على الهتاف بسقوط الملك، هتافات بسقوط الملكية!

المظاهرات — أسفل البيت — نقلت الانتخابات إلى بيته. يعرفه المتظاهرون التابعون لجمال كاتو. يلوحون له، ويمضون.

قال حمدي رخا: لا اعتراض على هذا ... أما مسألة الاصطدام بالبوليس وقلب عربات الترام وإشعال النيران، ففيها نظر.

قال الشيخ أبو دومة: الحمد لله أن الكتَّاب ليس تابعًا لوزارة المعارف ... وإلَّا خرب بيتي!

قال فهمي الأشقر وهو يأخذ أوراق اليانصيب من المرأة ذات الوقفة المتأودة، والعينين المكحولتين، والشفتين الممتلئتين، يعلوهما أنف أفطس. تدلَّت خصلة من شعرها المخضب بالحنَّاء على جبهتها، وحجبت عينها اليمنى، ولصوتها غنَّة واضحة. ترتدي فستانًا أسود شفافًا، مشغولًا بخرج النجف والترتر والخرز الملون، وتضع في ساعدها أساور زجاجية ملونة، تحدث صوتًا إذا تحركت يدها.

– خذ لك ورقة يا عبد الله أفندي.

غالب الحرج بالغمغمة بما لم يتبينه هو نفسه، وسكت.

همس سيف النصر: إذا كان زكي بشارة يدمن الخمر … فإن اللوترية عند صديقنا الأشقر إدمان آخَر.

كان الأشقر يعرف رأي سيف النصر في اليانصيب، والمرأة، وإن لم يحاول مناقشة الأمر. المصادفة أغرته بشراء الورقة الأولى. اقتناها للتخلص من إلحاح المرأة. عادت إليه — عصر اليوم الثالث — ببشرى المكسب. عشرين جنيهًا، طرف خيط قاده إلى توقعات الأيام التالية.

ضحك سيف النصر في أذن عبد الله الكاشف: بدأ بإدمان بائعة اليانصيب … ثم أدمن اليانصيب وبائعته!

قال أدهم أبو حمد: أنا أرفض الحياة في الوهم!

واغتصب ابتسامة: قراءة صفحة الوفيات أجدى لَمن هم في أعمارنا.

تنبه الكاشف إلى أن صفحة الوفيات بالأهرام هي أول ما يطالعه. لم يكن يقرؤها من قبل، لا يعرف الراحلين إلَّا من الملصقات على جدران البيوت والدكاكين وأبواب الجوامع. متى بدأ القراءة؟ ولماذا؟ لا يتذكر على وجه التحديد. ربما حين رحل صديق، وأشارت أحاديث القهوة إلى نعي الأهرام. بحث عن النعي المحدد، مرة واثنتين وثلاثًا، ثم بدأ في البحث عن أسماء الراحلين، ربما يجد فيهم من يعرفه. يتصفح عناوين الصفحة الأولى، ويقلب الصفحات، إلى أعمدة الوفيات. يقرأ كل نعي إلى آخره. وكانت الأعمار تشغله. يسأل: هل كان مريضًا، أو اختطفه الموت؟ تقلقه وفيات الأعمار القصيرة. يفزعه انتهاء الأجل في عمره، أو قبله. تداخله راحة لصاحب السن المتقدمة وهو يمشي، ويتكلم، ويعلو صوته بالتذكر، وبالآراء الصائبة.

لماذا الإنسان — وحده — يعرف النهاية؟ هل يعرف الحيوان والطير نهاية حياته؟ هل يعي — مثل الإنسان — ما يطرأ عليه من تغيرات طارئة، وضرورية، تقوده إلى النهاية، آخرها الشيخوخة. ضيف ثقيل يفرض علينا صداقته، ويقودنا إلى ما نتوقعه.

تنبه لنفسه: ها أنا ذا أصبحت عجوزًا متفلسفًا!

وهو يميل من شارع الميدان إلى الموازيني، لمح الرجل. تأمله. حلق لحيته، وأسدل شاربه على شفتيه، وفرق شعر رأسه من النصف. وكان يرتدي بنطلونًا، وقميصا شتويًّا، ألوانه مربعة، وحذاء من الأجلاسيه اللميع.

– الشيخ يوسف بدوي؟

رمقه الرجل بنظرة متوجسة: هل تعرفني؟

قال إبراهيم سيف النصر: كنت أصلي بعض الأوقات في زاوية الأعرج.

غمغم الرجل بما لم يتبينه. لماذا تخلص من لحيته؟ عرفه من اتساع عينيه، والتماعهما. بدَّل إزالة اللحية من ملامحه.

تردد قبل أن يلقي السؤال: هل تركت المشيخة؟

عاود الرجل كلماته المدغمة.

وشت لهجته بود: لم نعُد نراك في الزاوية.

قال يوسف بدوي بصوت هامس: تركت الإمامة لَمن يعينه وقته.

أردف في لهجة هادئة: كانت الزاوية بيتي ... لما تزوجت صعب أن يكون لي بيتان!

قال سيف النصر: هل تركت الإسكندرية أيضًا؟

– أتردد عليها لإنجاز بعض أعمالي.

وعبر بيديه: أشرف على زراعة أرض لي في بلدتي ... عزبة خورشيد.

روى إبراهيم سيف النصر ما حدث لأصدقاء القهوة. ثنى إلى الجالسين نظرة طويلة، يتأمل وقع ما روى.

لم يبدُ أنهم تذكروا الرجل.

دس يده — بتلقائية — في جيبه، أخرج منديلًا. مسح به وجهه، وجانبي فمه.

وظلَّ صامتًا.

مواصلة المدد

صحت على مواء قطة من المنور الخلفي: داووووود.

حتى القطة! ولماذا ليس أنا؟

كان اليأس قتلها وهي تغادر بيت الشيخة نبيهة بشارع الكناني. قالت الشيخة إنه لم يبقَ لها حيلة. نصحتها أن تقصد الطبيب، ربما يفلح.

قالت: زرت مستشفى الملكة نازلي حتى تعبت.

قالت الشيخة: اتركي المسألة على الله ... هو الشافي بإذن الله.

اعتادت الكشف، والتحليل، واختلاف التشخيص.

قالت للطبيب: تكرر حملي ... وفي كل مرة أصاب بنزيف في الشهر الثاني أو الثالث ...

قاطعها الطبيب: وتفقدين الجنين.

وسألها: هل تحملين أشياء ثقيلة؟

– لا.

استطردت: منذ الحمل ... لا!

قال الطبيب: سأعطيك أدوية ... أثق أن النزيف سيتوقف!

ودفع لها بروشتة: هذه أدوية تساعد على تثبيت الحمل.

ثم بلهجة محذرة: خذيها ... ولن يتكرر الاجهاض.

شكت لجارة الطابق العلوي من الماء المتساقط على غسيلها. ذكرتها المرأة بعقمها. قالت إنها ميتة حية، وإنها كالشجرة التي لا تثمر، حلال قطعها.

أصعب اللحظات حين يأتيها الحيض. الحلم بعيد ... فمتى يتحقق؟

قرأت الفاتحة، والصمدية، وقل أعوذ برب الفلق، قبل أن يشلح سيد جلبابه ليهم بها.

لجأت إلى التعاويذ والتمائم، وزارت الأولياء، وتناولت الأعشاب والأدوية الشعبية، ولزمت السرير — على ظهرها — لفترات طويلة، وصلَّت في الأوقات. حتى صلاة الفجر صحت لأدائها.

قالت للشيخة نبيهة: أريد ولدًا.

قالت المرأة: فإذا جاءت طفلة؟

– كل ما يأتي به الله خير.

– أنا مجرد وسيلة ... قد لا تبلغ نهايتها.

طوت النقود، ودسَّتها في يد المرأة: لا يهمني ما تفعلين ... يهمني أن أنجب!

أعطتها ورقات مطوية، طلبت وضعها في وعاء مملوء بالماء الممزوج بماء الورد، وتدليك الجسم بالمزيج ليلة الجمعة. ثلاثة أسابيع. تفد — بعدها — أعراض الحمل.

نصحت المرأة — في زيارة تالية — بأن تغطس في مياه البحر. السحر سبب مشكلتها. ربما وضع عمل لأذيتها. كتابة سحرية على جسم قرموط، قذف به في ماء البحر. إذا غطست في الأنفوشي، لا بد أن يبطل مفعول السحر. الماء الجاري لا تقربه الأرواح الشريرة، فيبطل السحر، ويقي من الحسد.

كتب لها الشيخ مكي، قارئ سيدي نصر الدين، سبع سور من القرآن، تقرأ سورة منها كل يوم. تعود إلى بدايتها في بداية الأسبوع. ثلاثة أشهر، فلا يسقط الحمل. نزلت البحر عقب أذان الفجر، قبل أن يصحو الشاطئ. تقدمت في المياه حتى بلغت ركبتيها. واصلت التقدم، فغمرت المياه فخذيها. ثم خاضت حتى وصلت المياه عنقها. لم تكن تحسن العوم، فاكتفت بتغطيس رأسها مرة واحدة، سريعة، ثم رفعتها. استحمت في الخلة والرجلة. دخلت مجيرة عم سعد بشارع إسماعيل صبري في عز النهار. فاجأت الرجال المتناثرين في المجيرة، وخرجت. لحست بطن الترسة. ذبحت حمامة، ومشت — حافية — سبع مرات في دمها الساخن. عدت على النار سبع مرات. تلقت في حجرها فأرًا ميتًا، وثعبانًا منزوع الأنياب. مرت فوق صينية بخور سبع مرات. خطت فوق دم ترسة مذبوحة حالًا. طلعت السلم بالمندار. ذبحت ديكًا منقوشًا. لبست لفافة من الحلبة والعسل، تمتص الرطوبة من بيت الولد، فيتحقق الحمل. ارتدت الصوفة. دهنت صدرها بماء عقد العقيق. جاءت على نفسها، واستعارته — لليلة — من أم محمود. وتحممت بالماء المتخلف من حلاقة سيد لذقنه، ورشفت من ماء الاستحمام بعد اختلاطه بإصبع الكافر. مشت على قضبان السكة الحديد، وعلى رأس حمار ميت، ومشت من تحت جمل، وفوق سحلية. رفضت التمدد في نعش. أبدت فزعها لمجرد التصور. وإن شقَّت المقابر،

وزارت المساخيط في عامود السواري، ودفعت لحارس المساخيط بالقرب من سراي رأس التين. أذن لها بأن تقف — لدقائق — في ظلمة الليل. كتمت الخوف حتى جاوز احتمالها، فطارت من الباب الحديدي الموارب. ذكَّرَت نفسها في فجر الأيام الثلاثة الأخيرة، في الشهر العربي. تدخل المقابر. تعود من طريق أخرى، لا تسلِّم ولا تردُّ السلام، حتى تعود إلى البيت.

قال سيد: أي مكان في الدنيا، لن «يسبب» الخوف أكثر من خرابة سيدي داود.

لاحظت البسمة على جانب فمه، فتشجعت: بيت وليس خرابة.

– لولا أنك كنت تسبقينني إليه ... ما دخلته أبدًا.

غالبت ارتعاشة وهي تستحم بليفة، غُسِّل بها ميت. تمرغت — قبل صلاة العصر — حول ضريح أبو العباس. استغاثت بولي الله، وطلبت المدد.

عانت القلق لتغير عادة سيد. عاد إلى قهوة الزردوني. يغادر الكشك إليها. يشارك في القعدات، ويلعب الكوتشينة. ربما ظل حتى نهاية الليل. يدخل البيت في الظلمة. يتمدد على كنبة الصالة، حتى يتنبه لصحو أنسية، فيكمل نومه داخل الحجرة. لا يكلمها إلَّا لضرورة. ويجيب على أسئلتها بكلمات سريعة، مدغمة، وإن حرص ألَّا تفلت منه عبارة شتم، أو معايرة. ما يعنيه أن ينعكس في مرآة حياتهما إصراره على أن ينجب الولد.

احتضنها بنظرة محرضة: وحق الموج ومن سيَّره ... إذا أنجبت ولي العهد ... أعدك برحلة مثل التي قضاها الملك مع ناريمان.

قالت: سافرا إلى خارج مصر ... فإلى أين تأخذني؟

– إلى حيث تشائين.

– آخر مكان نستطيع الذهاب إليه هو العجمي.

ثم وهي تضحك بعصبية: حتى العجمي لا تستطيع اصطحابي إليه ... سيدي العجمي يكره النساء!

تشاغل بالنظر من النافذة المطلة على البلقطرية، وهي تضع الورقة المكتوبة في كوب ماء. راقبت ذوبان الكلمات، ثم صبَّت الماء في براد الشاي.

استوقفت الحاج محمد صبرة — مترددة — لما رأته في شارع الموازيني.

– أنا في عرضك يا حاج.

– أرسلي سيد ... وليفعل الله ما فيه الخير.
همست بالخوف: لا تخبره بأني لجأت إليك.
– اطمئني ... سأبعث في طلبه!

أسفار الصبح

قال الشيخ قرشي: الإمام الجديد جعل منا تلاميذ في مدرسة!

أردف للدهشة المتسائلة في عيني أدهم أبو حمد: لم نعُد ندخل إلَّا من الباب الخلفي.

أمر الإمام بإغلاق أبواب علي تمراز، فيما عدا باب الميضأة بشارع رأس التين. يدخله المصلون أولًا. يخلعون أحذيتهم، وما علق بها من طين، ثم يدخلون — بعد الوضوء — صحن الجامع.

أغلق عبد الله الكاشف — من الداخل — باب القهوة: هل عرفتم ما حدث؟

اندفعت من الباب — لحظة فتحه — دفقات من الهواء البارد. وكانت بقايا شمس النهار تعلو جدران البيوت. وصنع توالي هطول الأمطار بركًا طينية في جوانب الشوارع.

أفسح لنفسه موضعًا: القاهرة احترقت.

فز سيف النصر من جلسته: ماذا؟

قال الكاشف: القاهرة احترقت ... والملك أقال وزارة النحاس.

– كيف؟

وهو يفسح لنفسه موضعًا خلف الطاولة، عليها براد من الصاج، وثلاثة أكواب، ولبانة صغيرة، وسكرية.

– خرجت مظاهرات للاحتجاج على مذبحة البوليس في الإسماعيلية ... تدخلت عناصر فأحرقت كل ما صادفته.

هتف سيف النصر: تقصد ... القاهرة احترقت ... احترقت كلها؟

ارتفع صوته لإصغاء الجالسين. حتى المهدي اللبان مال برأسه من وراء البنك، وأصاخ سمعه: بنايات كثيرة وسط البلد ... دور سينما وكازينوهات وبنوك وفنادق ومحلات تجارية.

قال أدهم أبو حمد: أنا لا أصدق أن المتظاهرين أحرقوا القاهرة.

ثم وهو يغالب انفعالًا واضحًا: لا بد من محرض.

قال الكاشف: ألا تكفي مذبحة الإسماعيلية؟

قال سيف النصر: قلبي يحدثني أن ما حدث لم يكن مجرد رد فعل.

ثم علا صوته بتساؤل: أليس غريبًا أن الحريق حدث في يوم استئناف الدراسة؟

وخبط جبهته بأصابعه كالمتذكر، واتجه بابتسامة مغتصبة إلى أدهم أبو حمد: زعيمك في السجن الآن.

اهتزت النظارة الطبية بالقلق: من؟

– أحمد حسين.

ثم في نبرة تأكيد: هو المحرض على حرق القاهرة.

قال أدهم أبو حمد بنبرة لم يعهدها الكاشف في صوته: ولماذا لا يكون الملك هو الفاعل؟ لماذا لا يكون الإنجليز؟ لماذا لا يكون الوفد نفسه؟

قال فهمي الأشقر: مستحيل أن يكون الحريق من فعل المصريين.

قال عبد الله الكاشف: ما حدث ليس مفاجأة ... قرأت صحف الأمس ... مذبحة ضحيتها عشرات الجنود فقدوا حياتهم في ظروف سخيفة.

قال إبراهيم سيف النصر: هذا عملهم.

قال الكاشف: لا تضع في يدي مطواة ... وتطالبني بمقاتلة أسد!

قال أدهم أبو حمد: النحاس قائد دفع قواته إلى الأمام دون أن يؤمن مؤخرته!

نظر أدهم أبو حمد عبر الباب الزجاجي المغلق إلى حركة الطريق. سريعة بتأثير البرد الشديد، ومحاولة الفرار من الأمطار التي استمرت منذ الصباح.

وشى صوته بحزن: المهم أن عمليات الفدائيين في القناة انتهت.

قال إبراهيم سيف النصر: كدنا نجني ثمرة إلغاء الوفد للمعاهدة.

أعاد عبد الله الكاشف الكلمة: كدنا!

وهز رأسه في تأثر: الحقيقة أن حكومة الوفد تدفع ثمن إلغاء المعاهدة.

وتباطأت الكلمات: أعلنت الطوارئ وذهب الوفد.

التفتت النظرات — بتلقائية — إلى عفريت الليل، ينتقل بسرعة من مصباح إلى آخَر، يضيئها، ويواصل الجري، حتى غيَّبه الطريق. وكانت قطرات المطر تصطفق بزجاج النافذة المغلق.

قال الشيخ أحمد أبو دومة: هل يمنعون الناس من السير في الشوارع؟

قال المهدي اللبان: ويغلقون أبواب الدكاكين والمحلات العامة ... من السادسة مساء إلى السادسة صباحًا.

– يعني لن نسهر في القهوة.

وأردف متذكرًا: كيف نشتري ما نحتاجه؟

قال المهدي اللبان: عندك النهار بطوله.

قال إبراهيم سيف النصر: تصورت أن الحكومة اكتفت بمنع المظاهرات والإضرابات والتجمهر.

المظاهرات!

أَلِف السير وسط المظاهرات، وإن لم يشارك فيها. شارك في مظاهرات التأييد — هل يعتبرها كذلك؟ — لجمال كاتو. إن جيت للحق جمال أحق. لا هتافات ضد الإنجليز أو السراي أو الحكومة. الفرق في نوعية الهتافات وتوقع الخطر في المظاهرات التي امتلأت بها الإسكندرية. لوريات البوليس والخوذات والدروع الحديدية والهراوات والصدامات الدامية.

مال الكاشف على إبراهيم سيف النصر: جئت هذه المرة للوداع.

أردف للنظرة المتسائلة: أعد نفسي للعودة إلى القرية.

قال سيف النصر: قلت لي إن مدافنكم في الإسكندرية.

أردف في لهجة معتذرة: أقصد أن حياتك استقرت هنا.

مرات قليلة، زار فيها القرية، خلال الأعوام الأخيرة: حضور واجب عزاء، المشاركة في عقد قران، زيارة مريض عرف اشتداد حالته، يقضي النهار، أو يعود صباح اليوم التالي. يلزم بيت العائلة، لا يغادره إلَّا لأداء الواجب. ربما استقبل — بابتسامة مجاملة — من يعلمون بمجيئه القرية، إلى ما بعد موعد نومه بساعة، ثم ينفتح فمه بالتثاؤب.

قال الكاشف: أسافر إلى القرية لأحيا فيها.

أسفر الأفق عما أغراه بالمضي ناحيته. بدت له ثمار الاحتمالات قريبة. البيت في نهاية الغيطان، يطل على الخلاء من كل جوانبه، لا يحوي إلَّا الضروري من الأثاث، وتظلل حديقته الصغيرة أوراق اللبلاب، وعلى سطحه عشَّة للبط والدجاج، وبرج للحمام.

تنحنح ليخلص صوته من بحة: كنت قد اعتدت الوحدة ... لما جاءت أيام الانتخابات ومضت ... شعرت أن الوحدة مستحيلة!

وسرح بنظرته: تصور شخصًا دعا الآلاف إلى حفل في بيته ... فلما انصرفوا، فوجئ بنفسه وحيدًا بلا أنيس.

لاحظ أنه انشغل — في الفترة الأخيرة — بما يجري في القرية. ينتظر زيارة القادمين منها. يحملون الزواد والأخبار والشائعات. يسأل، وتشغله الإجابة. يتكلم فيما قد يفاجئ القادم، وأنه ليس في أيامه. تصور اللافتة التي وضعت على الطريق باسم القرية. ماذا طرأ على بيوتها وشوارعها؟ وهل يظل دكان البقالة في موضعه على داير الناحية؟ وشجرة الجميز المطلة على الترعة ... هل لا تزال في موضعها، أو أنها اجتثت؟ وهل يذكره العجائز؟ هو الآن عجوز. ربما رحل من يكبرونه في السن. كانوا يتحدثون عنه باسم أمه: ابن عزيزة ... هل يذكرونه؟ هل يذكره أحد؟

تملكه حنين لا يدري بواعثه. بدت بركة غطاس كالأصداء البعيدة، الجميلة، كالحلم الذي تمنى أن يحياه. تومض في ذاكرته مشاهد متشابكة، ومختلطة. تنثال دون محاولة للاستدعاء: خلاء الغيطان الممتدة، البيوت الطينية، الواطئة، الشوارع الضيقة، الأرض الترابية الجافة، المشققة، أكوام القش وأحمال الحطب فوق أسطح البيوت، الأشجار، الترعة، الطريق الزراعي، ليالي الحصاد، الساقية، النورج، الشادوف، الكتَّاب، التقاط الثمار المتساقطة من الأشجار ... ناوشت ذاكرته حتى الأصوات المترامية إلى حجرته المطلة على الغيطان. صرير الجنادب، ونقيق الضفادع، ونباح الكلاب، وترامي صوت ماكينة الطحين في طرف القرية.

طالت جلسته في الشرفة. يتأمل الداخلين إلى البوصيري، والخارجين منه. هل يعود إلى الشقة، والنافذة، والمشاهد التي أحبها: حركة الطريق، والميضأة المرمرية، وأبيات البردة، وحلقات الذكر، والأذان. ومن السطح، تبدو قلعة قايتباي، ولسان السلسلة، وحاجز الأمواج، والأشرعة البيضاء في الميناء الشرقية، والبواخر الضخمة والروافع والمخازن والحاويات داخل الجمرك، والعلم يرفرف على السارية العالية فوق سراي رأس التين.

غلبه تأثر، لم يقوَ على كتمه.

انسحب إلى داخل الشقة. ارتدى ملابسه، وغادر الشقة إلى القهوة.

نفث إبراهيم سيف النصر دخان سيجارته. تصاعد في فراغ القهوة المغلق. اصطدم بالسقف. تشكلت غمامات رمادية مستديرة.

قال سيف النصر: أنا شخصيًّا أفكر كثيرًا في أن أقيم في القرية بعد رحلة المعاش ... أبتعد عن الدوشة والزحام، وأغسل أعصابي بالهدوء.

قال الكاشف في شروده: ما قريتك؟

– سامول ... بالقرب من المحلة الكبرى.

ثم علا صوت سيف النصر فيما يشبه الصراخ: ماذا تفعل يا شيخ زفت؟!

كان جابر برغوت قد نزع جلبابه أمام النصبة، وقذف به في أرضية القهوة. بدت ثيابه الداخلية متهرئة، ومثقوبة.

قال جابر برغوت: طلعت من هدومي!

قال سيف النصر: اطلع من هدومك، أو مت ... استر نفسك!

قال جابر برغوت: استروا أنفسكم أولًا، أو يحل عليكم غضب سيدي الأنفوشي!

هنـــداوي